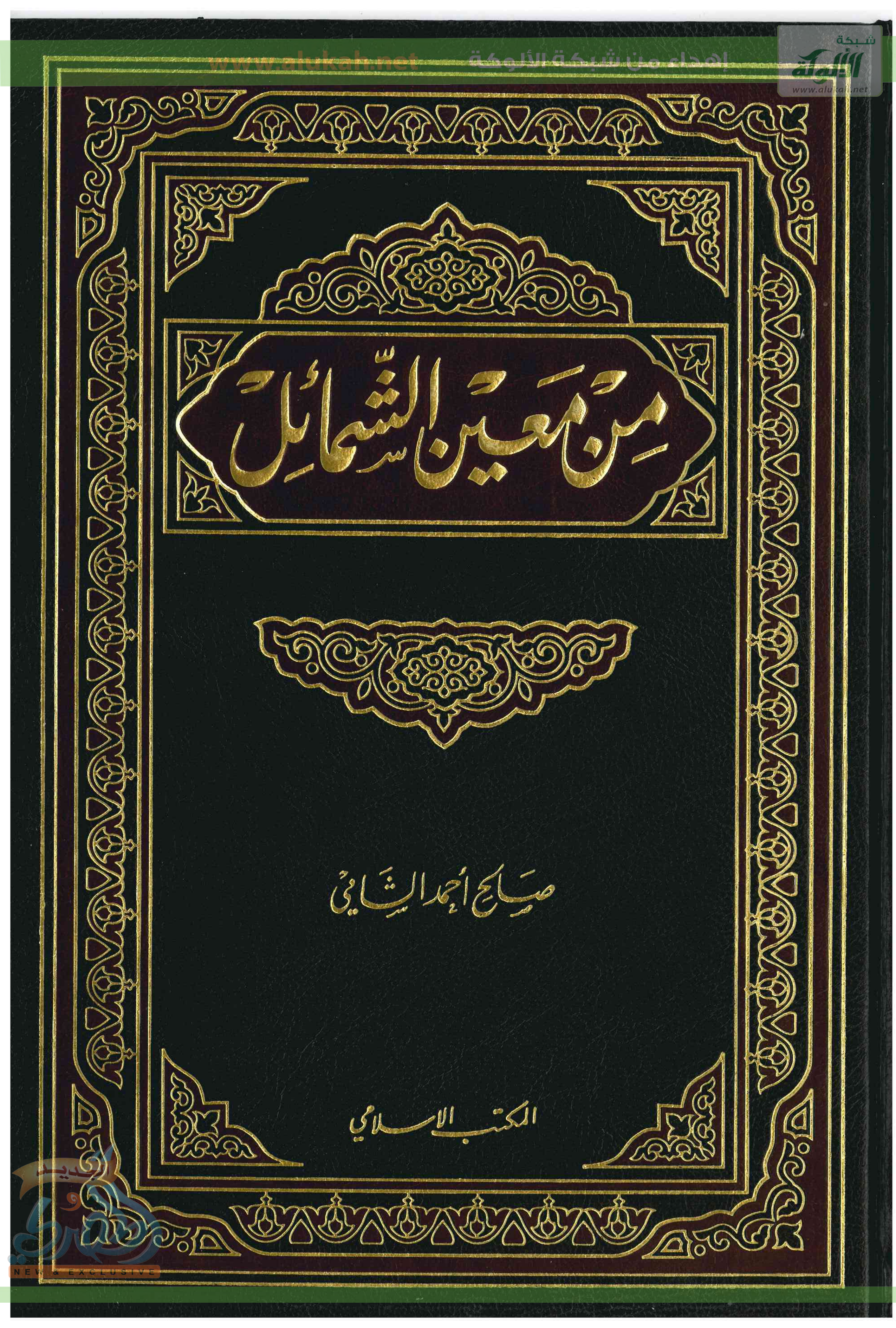

إهداء من شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net
من معين الشمائل
صالح أحمد الشامي
المكتب الإسلامي



الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥





مِن مَعين الشّمائِل

تأليف

صالح أحمد الشّامي

المكتب الإسلامي





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

وقال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢).

يوجه الله تعالى في كل من الآيتين الكريمتين أنظار المؤمنين وأسماعهم إلى شخص رسول الله ﷺ ليكون التلقي عن طريقه.

وتقرر الآية الأولى، وجوب الانصياع لتطبيق أوامره، واجتناب ما نهى عنه، قال ابن كثير في تفسيرها: «أي مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر».

وقال ﷺ: (إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم)(٣).

---

(١) سورة الحشر، الآية (٧).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

(٣) متفق عليه (خ ٧٢٨٨، م ١٣٣٧).





وبهذا فإن الآية الكريمة تقرر دائرة العمل الإلزامي، دائرة الفرض والواجب.

وتقرر الآية الثانية، أصلاً عظيماً من أصول هذا الدين، وهو التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

ولهذا كانت دائرة العمل فيها أوسع مما تقرره الآية الأولى.

ومعنى التأسي: «اتباع الأقوال والأفعال في كل صغيرة وكبيرة. في العادات وفي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات، في العمل وفي طريقة أدائه، في القول، وبالطريقة التي أُدّي بها هذا القول. إنه التأسي بالمضمون والشكل.

وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى من الآية الكريمة. فنقلوا لنا كل ما شاهدوه، أو سمعوه منه ﷺ، نقلوا الطريقة والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والنوم والكلام والمشي.. وكل شيء، حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته.

نقل الصحابة لنا ذلك، وطبقوه تأسياً واقتداء»[(١)].

فهذا ابن عمر رضي الله عنهما، كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها، ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[(٢)].

وهذا الكتاب - وكتب الشمائل إجمالاً - إنما تدور حول هذه الآية الكريمة. وتعمل على بيان الشمائل والأخلاق والآداب التي كان يتحلى بها النبي ﷺ لتكون قريبة المأخذ، سهلة المتناول، بغية العلم بها أولاً والعمل بها ثانياً.

---

(١) عن كتاب: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، للمؤلف ص ٩-١٠.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٣٥٦، وقال: أخرجه البزار بإسناد لابأس به، وقال الهيثمي: رجاله موثوقون.



ومما ينبغي التنبيه عليه: أن بعض كتب الشمائل توسعت في إيراد الأحاديث الضعيفة، بناء على الرأي القائل: بأن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في ميدان الفضائل.

وفي هذا الكتاب سيكون الاستشهاد بالأحاديث قاصراً على الصحيح والحسن منها، وما نقلته من الضعيف، فإني أنبه عليه، وإنما يكون ذلك في باب الإيضاح والاستئناس، وليس في تقرير الأحكام.

ومما لا شك فيه: أنه لا مجال لإعمال الخيال في كتابة السيرة، لأنه ﷺ نهى عن الكذب بشكل عام، وعن الكذب عليه بشكل خاص، لما يترتب على ذلك من مفاسد. ولذا كان الوقوف عند الصحيح والحسن هوالأولى.

وقد انصرفت معظم كتب الشمائل إلى العناية بوصف جسمه ﷺ وهيئته تفصيلاً، والأدوات التي كان يستعملها، الأمر الذي ضيق مساحة الشمائل.

فالإمام الترمذي اقتصر على ذكر: الكلام، والضحك، والمزاح، والبكاء، والتواضع، والحياء، والخلق.

واقتصر الإمام ابن كثير على ذكر: الأخلاق، والكرم، والمزاح، والزهد، والشجاعة.

واقتصر الإمام البغوي، وكتابه من أوسع كتب الشمائل على: حسن الخلق، والحلم والعفو، والرفق، والرحمة والشفقة، والبكاء، والضحك، والحياء، والشجاعة والجود، والتواضع والخوف.

ولعل الذي دفعهم إلى ذلك، هو قصرهم الشمائل على الجانب الإيجابي الفعلي، فهم في الغالب يريدون لكل عنوان واقعة مادية يُسْتَشْهَدُ بها عليه. والخلق الذي لا تتوفر له تلك الواقعة، لا يذكرونه.

ولكنا عندما ننعم النظر، فإنا نستطيع تقسيم الشمائل إلى ثلاثة أنواع:

الأول: شمائل إيجابية فعلية، ومن أمثلتها: الشجاعة والحياء. وهذا النوع هو الذي اقتصر عليه كتَّاب الشمائل.



الثاني: شمائل إيجابية دلَّ عليها قوله ﷺ. وهي ما حض عليه ﷺ من أعمال البر. مما لا يظهر في الوقائع المادية، وإنما تظهر آثاره من خلال السلوك العام، وقد لا تظهر بعض الأحيان. كالإخلاص.

فقد حض عليه ﷺ كثيراً، وحذر من فقدانه، وهذا الأمر ليس مما يظهر في الوقائع المادية، وإنما مرجعه إلى نية الإنسان..

فعندما يأمر به ﷺ، فلا بد وأنه كان ملتزماً به وفاعلاً له، فما كان ﷺ ليأمر بشيء، ثم لا يفعله.

ولا شك أن هذا السلوك مما يدخل في الشمائل.

الثالث: شمائل «الترك» ويتمثل هذا النوع في الامتناع عن سيء الأخلاق.

وهذا جانب مهم في موضوع الشمائل، ولم يذكره أحد ممن كتب في هذا الموضوع.

وفي كتابنا هذا، ستظهر هذه الجوانب - إن شاء الله - واضحة المعالم، بحيث يستكمل الهيكل العام للشمائل الكريمة بنيانه.

على أنه مهما بذل الباحث من جهد في محاولة لاستيعاب شمائله ﷺ، فإنه سيظل مقصراً، إذ لا يمكن استقصاء ذلك، وستظل كتب السنة المطهرة، هي المرجع الأوفى لهذا الغرض وغيره، مما يتعلق بالنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا كان اختيار عنوان الكتاب «من معين الشمائل» ليكون مطابقاً للواقع، إذ المذكور فيه إنما هو نماذج.

وقد جعلته في عشرة مقاصد، ينضوي تحت كل منها فصول.

المقصد الأول: في النسب الشريف والقرابة الطاهرة.

المقصد الثاني: في صفة النبي ﷺ وهيئته.

المقصد الثالث: في أخلاقه ﷺ وشمائله.



المقصد الرابع: في طهارته ﷺ من سيء الأخلاق.

المقصد الخامس: في آدابه ﷺ.

المقصد السادس: سيرته ﷺ في تلبية حاجاته الضرورية.

المقصد السابع: تحت عنوان «النذير العريان» وفيه بيان ما حذر منه.

المقصد الثامن: في طرف من عباداته ﷺ.

المقصد التاسع: في بيان المجتمع الذي أقامه ﷺ.

المقصد العاشر: في حقوقه ﷺ.

وقد وضعت له فهرساً حرفياً للموضوعات إضافة إلى فهرس المقاصد وفصولها كما وردت في الكتاب.

هذا، والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المسؤول. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة جمادى الآخرة ١٤١٧هـ

١٣/١٠/١٩٩٦م

كتبه

صالح أحمد الشامي


شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE

قال الإمام ابن القيم:

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي ﷺ. فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

[زاد المعاد ١/ ٦٩]

وقال:

فإذا صدق في ذلك ـ أي العبد بجمع خواطره وحديث نفسه على إرادة ربه ـ رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادىء أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

[مدارج السالكين ٣/ ٢٦٨].

المقصد الأوّل

النّسب الشّريف والقرابة الطّاهرة




الفصل الأول
النسب والمولد والأسماء

النسب الشريف:

ولد رسول الله ﷺ في مكة، ومكة يومئذٍ هي القلب من جزيرة العرب، فهي المركز الديني الذي يعظمونه، وفيها الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وإليها يحجون، وبها يطوفون.

وفي قبيلة قريش التي كانت تقطن مكة كانت هذه الولادة، وهي قبيلة لها كل الاحترام والتقدير في نفوس العرب، فهي حامية الحرم والقائمة على شؤونه.

والعرب أمة تعتز بالأنساب، إذ بها يعرفون، وبها يفتخرون.

وفي هذا الوسط ولد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقد اتفق النسابون على نسبه فقالوا:

«هو محمد بن عبدالله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نزار، بن معد، بن عدنان»[١].

قال ابن القيم: «إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١)، وزاد المعاد (١/ ٧١).
(٢) زاد المعاد، لابن القيم (١/ ٧١).



وأما أمه ﷺ فهي: آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر(١).

فهو ﷺ خير أهل الأرض نسباً.

روى مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)(٢).

وقد شهد أعداؤه بعلو هذا النسب، ففي حديث أبي سفيان، وقد سأله هرقل عن نسب النبي ﷺ، قال أبو سفيان ـ وهو يومئذ عدو لرسول الله ـ: هو فينا ذو نسب.. فقال هرقل: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها(٣).

ومن المعلوم، أن أعداءه ﷺ جهدوا في البحث عن المطاعن التي ينالون بها منه، فأعياهم ذلك ولم يجدوا. فرموه بالسحر والجنون.. مما يظهر معه كذبهم، ولكنهم لم يفكروا في النيل من نسبه لما يعلمون من مكانة هذا النسب.

وينبغي أن نشير إلى أن نسبه ﷺ كان الوسط والذروة في قريش، فليس هناك بطن من قريش إلا وللنبي ﷺ قرابة فيهم، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾(٤).

أخرج البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن قوله ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد

---

(١) سيرة ابن هشام (١/١٥٦).
(٢) أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٢٧٦).
(٣) أخرجه البخاري، برقم (٧).
(٤) سورة الشورى، الآية (٢٣).



ﷺ، فقال ابن عباس: عجلتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة(١).

والمعنى «فكأنه قال: احفظوني للقرابة، إن لم تتبعوني للنبوة». «وكانت قريش تصل أرحامها، فلما بعث النبي ﷺ قطعوه، فقال: صلوني كما تصلون غيري من أقاربكم»(٢).

والاستثناء، في قوله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ منقطع، كما قال في فتح الباري، فلم يطلب الرسول ﷺ على دعوته أجراً، وإنما طلب كف الأذى، وصلته بصلة القرابة.

وإذا كان ﷺ في الوسط والذروة من حيث نسبه، فليس من قبيل المصادفات أن يكون الزمن الذي بعث فيه خير الأزمنة، وأن يكون ذلك الجيل خير الأجيال، وأن يكونا ـ الزمن والجيل ـ ذروة الخط البياني في تاريخ الدنيا، سواء أكان ذلك بالنسبة للماضي الذي سبقه، أم بالنسبة للمستقبل الذي جاء بعده.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه)(٣).

وجاء في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)(٤).

وهكذا تلتقي خيرية الأصل والمنشأ، مع خيرية الزمان، مع خيرية الإنسان المختار للمهمة الكبرى و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٥).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨١٨).
(٢) فتح الباري (٨/ ٥٦٤، ٥٦٥).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٥٥٧).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٢) ومسلم برقم (٢٥٣٣).
(٥) سورة الأنعام، الآية (١٢٤).

أسماؤه ﷺ:

من المعلوم أنه حين ولد النبي ﷺ سماه جده عبد المطلب: «محمداً»، وجاء في القرآن الكريم تسميته على لسان المسيح عليه السلام: «أحمد» وقد عرف قبل النبوة بـ «الأمين».

وجاء في الحديث المتفق عليه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)[(١)].

وعن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: (أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة)[(٢)].

وقال جبير بن مطعم رضي الله عنه: وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً[(٣)].

قال ابن القيم: «وكلها نعوت، ليست أعلاماً محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال»[(٤)].

ولما كان الأمر كذلك، فقد ذهب كثير من الناس يشتقون له الأسماء من كل صفة كريمة. وهم يظنون أنهم يحسنون بذلك صنعاً.

قال ابن دحية في تصنيف له مفرد في الأسماء النبوية: «قال بعضهم: أسماء النبي ﷺ عدد أسماء الله الحسنى، تسعة وتسعون اسماً. قال: ولو بحث عنها باحث لبلغت ثلاثمائة اسم»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٣٢) ومسلم برقم (٢٣٥٤) وزاد مسلم: والعاقب: الذي ليس بعده نبي.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٥٤).

(٤) زاد المعاد (١/ ٨٦).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٥٨) والمواهب اللدنية للقسطلاني (٢/ ١٤).

وقال القسطلاني: «ورأيت في أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي: قال بعض الصوفية: لله تعالى ألف، وللنبي ﷺ ألف اسم»(١).

وعد صاحب «المواهب اللدنية ما يزيد على الأربعمائة(٢) متبعاً أثر القاضي عياض في الشفا(٣).

ولما كانت بعض هذه الصفات «الأسماء» هي من أسماء الله الحسنى، اضطر القاضي عياض أن يعقد فصلاً يبين فيه أن الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته(٤).

قال الزرقاني في شرحه على المواهب: «نقل الغزالي ـ وأقره في الفتح ـ على أنه لا يجوز لنا أن نسميه ﷺ باسم لم يسمه به أبوه ولا سمي به نفسه ا هـ. أي لا يجوز أن نخترع له علماً، وإن دلّ على صفة كمال.. فلو جوزنا ما لم يرد به سماع لربما وصف بأوصاف تليق بالله دونه، على سبيل الغفلة. فيقع الواصف في محظور، وهو لا يشعر»(٥).

وهذا الذي نقله الزرقاني هو الصواب، إذ يجب الوقوف عند ما ورد به النص(٦).

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني (٢/ ١٤).

(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني (٢/ ١٥-٢١).

(٣) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٣١١-٣٣٦).

(٤) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٥) شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ١١٩).

(٦) فقد حدث المحظور الذي توقعه الزرقاني، إذ من الأسماء التي ذكرها صاحب المواهب وغيره: «الأحد» و «الأول» و «الباطن» و «الجبار» وغيرها. وهي من أسماء الله الحسنى التي لا تليق إلا به سبحانه وتعالى.
ومن العجيب ما نقله «فتح الباري» عن ابن دحية، أنه عدَّ «اللبنة» اسماً من أسمائه ﷺ أخذاً من حديث البخاري (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) [فتح الباري ٦/ ٥٥٨] والحديث إنما هو تمثيل وتقريب وتشبيه.



وأما كنيته ﷺ فهي ـ كما ورد في الصحيح ـ أبو القاسم[1].

المولد الكريم:

إن الحديث عن النسب والأسماء يجرنا إلى الحديث عن المولد الكريم.

ولن نتحدث عن المولد من حيث الزمن والتاريخ واليوم، فذلك أمر يرتبط بكتب السيرة، ولكنا سنتحدث عنه من الزاوية التي تتناولها كتب الشمائل. وهذا الموضوع بدوره ينقلنا إلى قضايا أخرى ارتبطت بالمولد. وهو ما سنتكلم عنه.

حملت به أمه ﷺ كما تحمل كل النساء، ومرت بها أشهر الحمل، كما تمر بكل النساء، ووضعته كما تضع كل حامل.

ومن المؤسف أن كتاب «الموالد» وكذا كتاب «الشمائل» قد أطلق بعضهم لخياله العنان في قصة المولد، فأتى بالغرائب والعجائب، وظنوا أنهم بذلك يرفعون من قدر النبي ﷺ، وذلك هو الوهم الباطل والسراب الخادع، فعظمته في مكانته وأخلاقه مستمدة من تكريم الله تعالى له، لا من خيال بُنِيَ على الوهم واختلاق الأساطير.

وإن الإنسان ليعجب مما سطرته بعض الكتب في هذا الموضوع.

ذهب بعضهم إلى أن أمه لم تجد ثقلاً في حمله، وذهب آخرون إلى أنها حملت كأثقل ما تحمل النساء، وجاء آخرون يسعون في التوفيق بين الأمرين المتعارضين، فأعملوا أذهانهم في حل تلك المعضلة[2].

وذهب بعضهم يتابع الحمل شهراً شهراً.. ويذكر الحوادث الكونية التي كانت تصاحب ذلك؟!.

وذهب بعضهم يذكر حركة الملائكة هابطة صاعدة تبشر آمنة..!!.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١١٥) ومسلم برقم (٢١٣٣).
(٢) انظر المواهب اللدنية (١/ ١٢٠-١٢١).





وفي ليلة الولادة حدثت أعاجيب وغرائب، منها دنو النجوم من الأرض، ونزول الملائكة، وامتلاء بيت آمنة نوراً، وتحولت آمنة شاعرة تقرض الشعر في هذه المناسبة وغيرها.

وفي هذه الليلة ـ كما ذكره كثير من الكتاب ـ ارتج إيوان كسرى وسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته، وخمدت نار فارس، وغيضت بحيرة طبرية[1].. وغير ذلك كثير[2].

وكل هذا من خيال الوضاعين، لا صلة له بالحقيقة، ولا بالواقع، ولو كان شيء من ذلك لجاء ذكره في الأحاديث الصحيحة عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

قضية «كونه ﷺ أول الخلق»:

وهذه قضية أخذت مكانها من كتب الشمائل والخصائص، يحسن بنا أن نشير إليها، فهي أول ما يقرؤه الإنسان في بعض هذه الكتب.

قال السيوطي: «باب خصوصية النبي ﷺ بكونه أول النبيين في الخلق، وتقدم نبوته، وأخذ الميثاق عليه».

ثم قال: «أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره وأبو نعيم في الدلائل، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ الآية[3] قال: (كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث)»[4].

---

(١) قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: هذا الحديث لا يصح ولا يجوز قوله (انظر: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، للقاري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة. ص ١٨).
(٢) وانظر في الموضوع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (١/٩٨-١٠١).
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٧).
(٤) الخصائص الكبرى للسيوطي، بتحقيق الدكتور هراس (١/٩).



وإلى مثل هذا ذهب القسطلاني.. وأضاف: «فهذا يدل على أنه حين صور آدم طيناً استخرج منه محمد ﷺ ونبىء وأخذ منه الميثاق، ثم أعيد إلى ظهر آدم، حتى يخرج وقت خروجه الذي قدر الله خروجه فيه، فهو أولهم خلقاً».

«لا يقال: يلزم خلق آدم قبله، لأن آدم كان حينئذٍ مواتاً لا روح فيه، ومحمد ﷺ كان حياً حين استخرج ونبىء وأخذ منه الميثاق، فهو أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً» اهـ[١].

وسبقهما إلى رواية الحديث المذكور الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة[٢].

ويعجب المرء لهؤلاء العلماء الكبار. رحمهم الله تعالى. كيف ذهبوا يبنون الأحكام ويصورون القضايا، قبل مناقشتهم لصحة الحديث المذكور، ولو فعلوا، لوفروا على أنفسهم الجهد، ووفروا على الأمة وقتها.

قال الدكتور محمد خليل هراس: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الدلائل والديلمي في الفردوس وفي سنده بقية، وهو متهم، وسعيد بن بشير، وقد ضعفه ابن معين وغيره، وقد حكم الصغاني وابن تيمية على هذا الحديث بالوضع[٣].

وقد رويت أحاديث أخرى في هذا الموضوع منكرة وموضوعة، فلا نطيل الوقوف عندها. وأما تقدم نبوته ﷺ في علم الله تعالى على خلق آدم، فهذا أمر لا مرية فيه.

هل كان آباؤه ﷺ أنبياء؟!.

ذكر ذلك أبو نعيم، استناداً على أثر عن ابن عباس في قوله تعالى:

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني (١/ ٦٢-٦٥).
(٢) دلائل النبوة للأصبهاني، طبع الهند (ص ١٢).
(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٩).

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء، حتى ولدته أمه[١].

وهذا الأثر غير صحيح، وسياق الآية الكريمة يرفضه، ولننظر إلى سياق الآيات:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾[٢].

والآيات الكريمة تدعو الرسول الكريم للتوكل عليه سبحانه المطلع على كل أحواله، في قيامه وصلاته منفرداً، وكذلك في صلاته في الجماعة. وهذا تطمين له ﷺ من الله تعالى.

والمعلوم من أخبار التاريخ الثابتة خلاف ما جاء به هذا الأثر، فآباؤه القريبين معروفة سيرتهم، ولم يقل أحد أنهم كانوا أنبياء.

بل ليس في بيئته وإلى عهد غير قصير من ادعى النبوة، وقد سجل البخاري في حديث أبي سفيان: أن هرقل سأل أبا سفيان فقال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قال أبو سفيان: لا[٣].

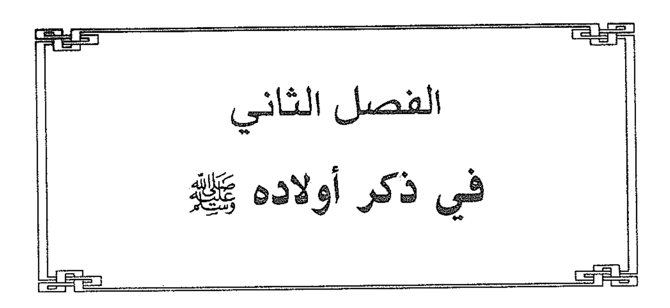
هل ولد ﷺ مختوناً مسروراً؟.

قال ابن القيم: روي في ذلك حديث لا يصح، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في «الموضوعات» وليس فيه حديث ثابت[٤].

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ص (٢٥).
(٢) سورة الشعراء، الآيات (٢١٤-٢٢٠).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٧).
(٤) زاد المعاد (١/ ٨١) ومعنى مسروراً: أي مقطوع السرة.





الفصل الثاني
في ذكر أولاده ﷺ

قال ابن كثير: لا خلاف أن جميع أولاده من خديجة بنت خويلد. سوى إبراهيم، فمن مارية بنت شمعون القبطية[(١)].

وقال ابن القيم: أولهم القاسم، ثم زينب، ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة، ثم ولد عبدالله ـ وفي زمن ولادته اختلاف ـ ثم ولد إبراهيم بالمدينة[(٢)].

ويحسن بنا أن نذكر كلمة موجزة عن كل منهم:

القاسم:

هو أول ولدٍ ولد له ﷺ قبل النبوة، وبه كان يكنى.

واختلف في المدة التي عاشها، وقيل إنه عاش سبعة عشر شهراً.

وهو أول من مات من ولده ﷺ.

عبدالله:

قيل مات صغيراً بمكة، وهل ولد بعد النبوة أو قبلها؟ فيه اختلاف، وصحح بعضهم أنه ولد بعد النبوة، ولذا لقب بالطيب والطاهر، وقيل إنهما ولدان آخران، وصحح ابن القيم كونهما لقبين لعبدالله[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٥/٣٠٦-٣٠٧).
(٢) زاد المعاد (١/١٠٣).
(٣) زاد المعاد (١/١٠٣).



زينب:

هي أكبر بناته ﷺ. قال ابن إسحاق: ولدت في سنة ثلاثين من مولد النبي ﷺ.

زوجها ﷺ من أبي العاص بن الربيع ـ ابن أخت السيدة خديجة رضي الله عنها ـ بناء على رغبة السيدة خديجة، التي كانت تعده بمنزلة ولدها، وكان من رجال مكة المعدودين: مالاً وأمانة وتجارة.

ولما أكرم الله رسوله ﷺ بالنبوة، آمنت خديجة وبناتها جميعاً، وبقي أبو العاص على شركه.

وكان ﷺ قد زوج السيدة رقية عتبة بن أبي لهب، والسيدة أم كلثوم عتيبة ابن أبي لهب. فلما بادى قريشاً بأمر الله تعالى قالوا: إنكم قد فرَّغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن.

فأما ولدا أبي لهب فاستجابا لهذا النداء، وفارقا زوجتيهما قبل الدخول، وزُوِّج عتبةُ بنت أبان بن سعيد بن العاص، مقابل فراقه بنت رسول الله ﷺ التي أكرمها الله بإخراجها من يده.

ومشوا إلى أبي العاص، فقالوا له: فارق صاحبتك، ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت. فقال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

وكان رسول الله ﷺ يثني عليه خيراً.

وعاشت السيدة زينب مع زوجها. وهي مسلمة، وهو مشرك. ولم تكن الآيات نزلت بتحريم ذلك.

وهاجر ﷺ وبقيت زينب مع زوجها في مكة، فلما كانت غزوة بدر، كان أبو العاص في جملة الأسرى.. وبعثت السيدة زينب في فداء زوجها بقلادة لها كانت خديجة قد أهدتها لها يوم زفافها فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها



رقة شديدة، وقال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها ما لها فافعلوا) ففعلوا[1].

وأطلق رسول الله ﷺ سراحه، بعد أن وعده بأن يخلي سبيل زينب لتهاجر إلى المدينة بعد أن فرق الإسلام بينهما. وأرسل معه زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وأمرهما أن ينتظرا السيدة زينب خارج مكة ببطن يأجج على الطريق إلى المدينة. لكي يكونا بصحبتها.

ووفى أبو العاص بوعده، فطلب من زوجته أن تتجهز للسفر إلى المدينة.. وطلب إلى أخيه كنانة بن الربيع أن يخرج بها إلى حيث زيد وصاحبه في انتظارها، ولعله فعل ذلك حتى لا يشهد وداعها، الأمر الذي ستكون ذكراه مؤلمة له.

وأخذ كنانة قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً، وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش. فخرجوا في طلبها، وكان أول من سبق هبار بن الأسود فروَّعها بالرمح وهي في هودجها... وبرك كنانة، ونثر كنانته ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً. فتراجع الناس عنه.

وجاء أبو سفيان في جلَّة من قريش فقال: أيها الرجل، كفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذلّ أصابنا، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثؤرة[2]. ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٩٢).
(٢) الثؤرة: طلب الثأر.



قد رددناها، فاخرج بها سراً وألحقها بأبيها. وفعل كنانة ما أشار به أبو سفيان[(١)].

ووصلت زينب إلى المدينة، وعلم الرسول ﷺ بما أصابها.

وما كان ﷺ ليسكت على ما أصاب ابنته ففي البخاري عن أبي هريرة قال: بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: (إن وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار) ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: (إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما)[(٢)].

وقد أوضحت الروايات الأخرى عند غير البخاري ومنها رواية ابن إسحاق ـ كما عند ابن هشام ـ أن الرجلين هما هبار وصاحبه.

ومرت الأيام، وأبو العاص في مكة، بعيداً عن زوجته، لم يفكر بالزواج من غيرها، ومن يقوم مقامها جمالاً وحسباً ونسباً؟!.

فلما كان العام السادس من الهجرة، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بمال له وأموال لرجال من قريش، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته.

فلما خرج رسول الله إلى صلاة الصبح، وكبر، وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلم ﷺ من الصلاة، أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦٥٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠١٦).

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: (أي بنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك، فإنك لا تحلين له).

وبعث ﷺ إلى رجال السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم، فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به). فردوه عليه.

وعاد أبو العاص بأمواله إلى مكة، فرد الأموال إلى أصحابها، ثم قال: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه، قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. ثم خرج حتى قدم المدينة.

ورد رسول الله ﷺ زينب عليه، على النكاح الأول لم يحدث شيئاً[١].

والتأم البيت الكريم مرة أخرى، ولكن هذا لم يدم طويلاً، فقد توفيت زينب في العام الثامن من الهجرة.

وولدت زينب علياً وأمامة.

فأما علي فقد مات بعد أمه في حياة أبيه، وقد ناهز الحلم، وكان ﷺ قد أخذه من بني غاضرة وكان مسترضعاً فيهم وأبوه مشرك بمكة. وكان رديف رسول الله ﷺ على ناقته يوم الفتح[٢].

وأما أمامة. فقد كانت صغيرة يوم ماتت أمها. وهي التي حملها النبي ﷺ في صلاة الصبح على عاتقه، وكان إذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها[٣].

---

(١) هذه الترجمة مصدرها سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥١-٦٥٩).
(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (٣/ ١٩٧).
(٣) متفق عليه (خ ٥١٦، م ٥٤٣).

وتزوجها علي رضي الله عنه بعد موت خالتها السيدة فاطمة رضي الله عنها، وتزوجت بعد استشهاده المغيرة بن نوفل الهاشمي، وماتت عنده، ولم تلد لعلي ولا للمغيرة.

وأما أبو العاص رضي الله عنه فقد مات في السنة الثانية عشرة بعد أربع سنين من وفاة زوجته.

وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً. ففي صحيح البخاري أن رسول ﷺ خطب فقال: (أما بعد، فقد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني . .)[1].

رقية:

ولدت رقية سنة ثلاث وثلاثين من مولده ﷺ، وقد تزوجها عثمان بن عفان بمكة، بعد أن فارقها عتبة بن أبي لهب قبل الدخول بها.

وهاجرت مع زوجها الهجرتين، إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وكانت ذات جمال رائع.

وقد مرضت قبل خروج النبي ﷺ إلى بدر، فخلَّف النبي ﷺ عثمان في المدينة من أجلها وقال له: (إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه)[2] وتوفيت في مرضها هذا، وجاء زيد بن حارثة بشيراً بالنصر ببدر، فوجدهم قد سووا قبرها.

وولدت له ابنه عبدالله وبه كان يكنى، وبلغ ست سنين ثم مات، ثم اكتنى بابنه عمرو.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٢٩). وذكر ابن حجر في شرحه تاريخ وفاة أبي العاص.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٩٨).

أم كلثوم:

لا يعرف لأم كلثوم اسم، وإنما عرفت بكنيتها.

وقد زوجها رسول الله ﷺ من عثمان بعد وفاة أختها رقية، وكان ذلك سنة ثلاث من الهجرة.

واستمرت عند عثمان حتى توفاها الله سنة تسع من الهجرة. وصلى عليها رسول الله ﷺ، وجلس على القبر وعيناه تذرفان ـ كما في البخاري ـ وقال: (هل فيكم أحد لم يقارف الليلة، فقال أبو طلحة: أنا، فقال: انزل قبرها فنزل)[١].

ولقب عثمان بذي النورين لزواجه من ابنتي رسول الله ﷺ.

ولم تلد أم كلثوم لعثمان رضي الله عنهما.

فاطمة:

لم يتفق على سنة ولادتها، فقال ابن الجوزي: ولدت قبل النبوة بخمس سنين، وقال ابن عبد البر: ولدت سنة احدى وأربعين من مولد النبي ﷺ[٢].

وقد زوجها النبي ﷺ من علي رضي الله عنه، وذلك في السنة الثانية من الهجرة[٣].

وكانت أحب أهله إليه ﷺ، وكان يغضب لغضبها، ويرضى لرضاها.

فقد أخرج الشيخان من حديث المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل. فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: (أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٥).
(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني (٢/ ٦٤).
(٣) انظر تفصيل أمر الزواج في كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ط ٢ ص (٢٢٥).

وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد) فترك علي الخطبة.

وفي رواية لهما: (إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها)(١).

وفاطمة رضي الله عنها هي (سيدة نساء هذه الأمة) كما أخبرها بذلك ﷺ فقد أخرج الشيخان من حديث عائشة قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً، لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحَّب وقال: (مرحبا بابنتي)، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاء شديداً، فلما رأى حزنها، سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك رسول الله ﷺ بالسرِّ من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عمَّ سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سرَّه، فلما توفي قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة (وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك) قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية، قال: (يا فاطمة، ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة)(٢) وفي رواية للبخاري (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ٣٧٢٩، ٥٢٣٠، م ٢٤٤٩).

(٢) متفق عليه (خ ٦٢٨٥، ٦٢٨٦، م ٢٤٥٠).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٦٢٣، ٣٦٢٤).

وتوفيت رضي الله عنها بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر.

وولدت: حسناً وحسيناً، ومحسناً فمات محسن صغيراً، وأم كلثوم وزينب.

ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة، فانتشر نسله الشريف من جهة السبطين: الحسن والحسين فقط. ويقال للمنسوب للحسن: حَسَني، وللمنسوب للحسين: حُسَيْني.

وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت فاطمة فولدت له زيداً ورقية، ولم يعقبا ثم تزوجت بعده بعون بن جعفر، ثم بعد وفاته بأخيه محمد بن جعفر، ثم مات عنها، فتزوجت بأخيهما عبدالله بن جعفر ثم ماتت عنده، ولم تلد لواحد من الثلاثة سوى للثاني ابنة صغيرة فليس لها عقب.

وتزوج عبدالله بن جعفر أختها زينب بنت فاطمة. فولدت له عدة أولاد(١).

إبراهيم:

ولد إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وأمه مارية القبطية.

أخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي، إبراهيم) ثم دفعه إلى أم سيف، امرأة قين يقال له أبو سيف(٢).

وقد كان ﷺ ينطلق إلى عوالي المدينة حيث كان بيت ظئر إبراهيم فيزوره ويقبله ثم يرجع.

أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان

---

(١) المواهب اللدنية (٢/ ٦٦-٦٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٥). والقين: الحداد.

ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليدخن ـ وكان ظئره قيناً ـ فيأخذه فيقبله، ثم يرجع[١].

وفي رواية البخاري: فقبله وشمه[٢].

ولم تطل حياة إبراهيم، فقد توفي وهو رضيع فقال ﷺ: (إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة)[٣].

وتصور لنا رواية البخاري اللحظات الأخيرة من حياة إبراهيم، حيث قال أنس: ثم دخلنا عليه ـ أي إبراهيم ـ بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة) ثم أتبعها بأخرى. فقال ﷺ: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[٤].

وقد كسفت الشمس يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال ﷺ: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله)[٥].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٦).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٠٣).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٦).
(٤) أخرجه البخاري برقم (١٣٠٣).
(٥) متفق عليه (خ ١٠٤٣، م ٩١٥).



الفصل الثالث

النبي ﷺ الأب الكريم

الأبوة الحانية:

من خلال العرض السابق لترجمة أولاده ﷺ تطلُّ علينا معالم الأبوة الفاضلة في شخصية النبي الكريم ﷺ.

هذه الأبوة التي تحمل في ثناياها كل معاني الرحمة والعطف والحنان، والرعاية والحب. تطل علينا من خلال واقع عملي، تعجز الكلمات عن احتواء معانيه، وبيان مراميه. فتظل رواية الوقائع هي المادة التي يستطيع الكاتب أن يضعها بين يدي القارئ، ويترك له حرية التحليق بفكره وعقله علَّه يدرك بعض ما تعنيه أو ترمي إليه.

ولعل أول مراحل التعبير عن سعادة الأب هي فرحه بقدوم مولوده، وإذا كانت العواطف ليس لها مقاييس حتى نحدد مقدار حرارتها، فإن بعض التصرفات المادية قد تكون مؤشراً على درجة تلك العاطفة.

قال ابن القيم وهو يتحدث عن إبراهيم وولادته: وبشره ـ أي النبي ﷺ ـ به أبو رافع مولاه، فوهب له عبداً(١).

كانت مكافأة البشارة عبداً، والعبد يومئذٍ قيمة كبيرة، فيها بعض التعبير عن سروره ﷺ.

وهل كان هذا المسلك منه ﷺ في حق إبراهيم خاصة؟ ما نعتقد ذلك وإنما لم يذكر شيء عن مسلكه ﷺ بشأن أولاده السابقين. لأن ولادتهم

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٠٤).



كانت بمكة، وقبل النبوة، ومن كانت ولادته بعدها كعبدالله، فإن ظروف مكة ما كانت تسمح بنقل مثل هذه المشاعر فقد كان الصحابة في ظروف صعبة، مما لم يتح لهم أن ينقلوا لنا تصرفاته ﷺ يومئذٍ.

بل إننا نكاد نجزم بأن فرحه بأولاده الآخرين ربما كان أكثر من ذلك، فأمهم هي خديجة رضي الله عنها أحب زوجاته إليه ﷺ، بينما أم إبراهيم هي سريته مارية.

وقد كان ﷺ شغوفاً بهم في صغرهم فها هو ـ كما رأينا ـ يذهب إلى العوالي ـ والعوالي على بعد ثلاثة أميال من المدينة ـ ليزور ابنه إبراهيم فيقبله ويشمه ثم يعود.

وينقل لنا أبو هريرة رضي الله عنه موقفاً من هذه المواقف فيقول: خرج النبي ﷺ في طائفة النهار، لا يكلمني ولا أكلمه، حتى أتى سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال: (أثَمَّ لُكَعُ، أثَمَّ لُكَعَ) فحبسته شيئاً، فظننت أنها تلبسه سخاباً، أو تغسله، فجاء يشتد حتى عانقه وقبله وقال: (اللهم أحبَّه وأحبَّ من يحبه)(١).

وهكذا يذهب ﷺ إلى بيت فاطمة ليس له قصد سوى تقبيل الحسن ومعانقته.

وقد كان هذا مسلكه ﷺ في مجالسه الخاصة والعامة، فقد قبّل يوماً الحسن ابن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لا يرحم لا يرحم)(٢).

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ٢١٢٢، م ٢٤٢١). والمراد بلكع هنا: الصغير. والسخاب: قلادة من القرنفل ونحوه.

(٢) متفق عليه (خ ٥٩٩٧، م ٢٣١٨).

(٣) متفق عليه (خ ٥٩٩٨، م ٢٣١٧).

إن حب الأولاد وتقبيلهم مؤشر على وجود الرحمة في القلوب.

والطفل يحب المداعبة. وهي ضرورية لاستكمال بنائه النفسي والجسمي.. وهذا البراء ينقل لنا صورة من صور الكمال الإنساني فيقول: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه[١].

ودخل الحسن المسجد والنبي ﷺ يصلي وقد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، قد أطلت سجودك. قال: (إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله)[٢].

تلك صور من صور التعامل مع الأولاد سجلتها السنة المطهرة لتكون السبيل الذي يسير المسلمون فيه متتبعين آثار الخطى الكريمة.

وكان ﷺ يكرم بناته. وكان إذا دخلت عليه ابنته فاطمة يقوم لها ويقبلها، ويجلسها عن يمينه، وربما بسط لها ثوبه.

وكان يحزن لحزنهن، فعن أسامة بن زيد قال: أرسلتْ ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قبض فائتنا. فأرسل يقرىء السلام ويقول: (إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه: سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٣].

كما كان يرحم المريض منهم ويهتم لمرضه، وقد رأينا كيف خلَّف عثمان عن غزوة بدر ليكون عند رقية في مرضها.

---

(١) متفق عليه (خ ٣٧٤٩، م ٢٤٢٢).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٩٤)، وكذا النسائي برقم (١١٤٠).
(٣) متفق عليه (خ ١٢٨٤، م ٩٢٣).



ومع كل هذا الحب. وهذا العطف، فإنها ما كانت تأخذه العواطف في تنفيذ الأولويات، وقد رأينا كيف لم يلبِّ طلب فاطمة رضي الله عنها يوم جاءت تطلب خادماً من السبي بتشجيع من علي رضي الله عنه فقال ﷺ: (والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم..)(١).

وحتى الصغار لا تهاون معهم في تطبيق أوامر الله. فهذا الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يلعبان بتمر الصدقة، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ: (كخ كخ)... فأخرجها من فيه، ثم قال: (أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة)(٢).

إنها تربية الانضباط مع أوامر الشرع..

لا فرق بين ذكر وأنثى:

قامت الحياة الجاهلية على تقديم الذكر على الأنثى، والفرح بالمولود إذا كان ذكراً وبالحزن والأسى إذا كان أنثى، وقد سجل القرآن هذا السلوك الذي ساد فيهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٣).

وجاء الإسلام ليصحح المسار، ويعتني بالأنثى عنايته بالذكر، وليقول إن المولود هبة من الله تعالى، فينبغي للمسلم أن يفرح بهذه الهبة ناظراً إلى مهديها. فإنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾(٤) ومن لم يكن كذلك فليراجع حساب إيمانه.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ص (٢٢٦).
(٢) متفق عليه (خ ١٤٨٥، ١٤٩١، م ١٠٦٩).
(٣) سورة النحل، الآيتان (٥٨-٥٩).
(٤) سورة الشورى، الآية (٤٩).



ولم يكبر أولاد النبي ﷺ من الذكور، حتى نقارن بين سلوكه إزاء الذكور وسلوكه إزاء الإناث، ولكنا رأينا في مسلكه ﷺ تجاه بناته من الاحترام والتوقير والحب ما لا مزيد عليه، فهو يقوم لهن ويستقبلهن، ويفرح لفرحهن ويحزن لحزنهن، الأمر الذي يجعلنا على يقين من أنه لو كان كبر أولاده الذكور لم يكن لهم أكثر من ذلك.

ولئن كان أولاد ابنته فاطمة يدخلون المسجد فيعتلون ظهره، فيطيل السجود لأجل ذلك، فلقد رآه المسلمون جميعاً وهو يؤمهم حاملاً ابنة بنته زينب، أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[1].

وتبين لنا عائشة رضي الله عنها مكانة أمامة هذه عند رسول الله ﷺ فتقول: أهدي لرسول الله ﷺ قلادة من جزع ملمعة بالذهب، ونساؤه مجتمعات في بيت كلهن، وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع جارية تلعب في جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله ﷺ: (كيف ترين هذه) فنظرنا إليها، فقلنا: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط ولا أعجب، فقال: (أرددنها إليَّ) فلما أخذها قال: (والله لأضعنَّها في رقبة أحب أهل البيت إلي). قالت عائشة: فأظلمت علي الأرض بيني وبينه، خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا أصابهن مثل الذي أصابني، ووجمنا جميعاً سكوت، فأقبل بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص فسري عنا[2].

---

(١) متفق عليه (خ ٥١٦، م ٥٤٣).

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٤) وقال الهيثمي: رواه الطبراني واللفظ له، وأحمد باختصار وأبو يعلى، وإسناد أحمد وأبي يعلى حسن.
ولفظ أحمد: أن رسول الله ﷺ أهديت له هدية، فيها قلادة من جزع، فقال (لأدفعنها إلى أحب أهلي إلي) فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا النبي ﷺ أمامة بنت زينب، فعلقها في عنقها. (الفتح الرباني ٢٢/ ١١٢). والجزع: خرز يماني.

وهكذا يأخذ أولاد بناته مكانتهم من نفس رسول الله ﷺ ذكوراً وإناثاً ويشملهم جميعاً بعطفه وحبه وحنانه.

اختيار الزوج المناسب للبنت:

أخرج النسائي عن بريدة قال: «خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رسول الله ﷺ: (إنها صغيرة) فخطبها علي فزوجها منه»(١).

وسياق هذا الحديث والأحاديث الأخرى في الموضوع تؤكد أن علياً خطبها إثر خطبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً، فلم يكن هناك فاصل زمني.

فقوله ﷺ: (إنها صغيرة) لا يعني أنها ليست أهلاً للزواج، وإنما هي صغيرة باعتبار فارق السن بينها وبين أبي بكر، وبينها وبين عمر رضي الله عنهما.

ولما تقدم علي، ولم يكن قد زاد عمرها شيئاً يذكر، وافق على خطبتها له، ذلك لما بينهما من تقارب في السنّ.

وفي هذه القضية من هديه ما فيها، فتلك مصلحة من مصالح البنت ينبغي على الأب مراعاتها، والسعي لتحقيقها.

ومن العجيب حقاً، أن كثيراً من الناس يدللون لزواج الطاعن في السن بالصغيرة بفعله ﷺ حين تزوج عائشة، وينسون فعله حين زوج فاطمة.

وهذا فعله، وهذا فعله، فلمَ يذكرون دائماً فعلاً واحداً وينسون الآخر تماماً وكأنه لا وجود له؟.

إن كثيراً من ملابسات زواجه ﷺ بعائشة، تكاد تجعل هذا الزواج خصوصية من خصوصياته(٢).

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٣٢٢١).

(٢) من هذه الأمور، مجيء جبريل بصورتها للنبي ﷺ وقوله: «هذه زوجتك» ومنها الخطبة المبكرة قبل ثلاث سنين من الزواج، ومنها نزول الوحي في بيتها دون غيرها. مما سنذكره في الفصل القادم.

وإذا كان الأمر كذلك، فالفعل الذي لا تحيط به المخصصات مقدم على ما كان كذلك.

وهكذا يسن ﷺ للآباء جميعاً أمر الاهتمام بشؤون بناتهن واختيار الأصلح مراعياً في ذلك الجانب الدنيوي والأخروي جميعاً.

رعاية البنات بعد الزواج:

ليس معنى أن يزوج الرجل ابنته، أن تنقطع الصلة بينها وبينه بعد ذلك، ويتركها لمصيرها الذي آلت إليه، فيجهل كل شيء عنها.

فرعايتها بعد الزواج ضرورية كما هي قبله، ولقد رأينا رسول الله ﷺ كثيراً ما يزور بناته. وهذه الزيارات تطمئنه على أوضاعهن.

والذي نتوقف عنده في هذا الصدد، هو تصريحه ﷺ أن ما يؤذي بنته يؤذيه ولم يكن بقي يومئذٍ غير فاطمة رضي الله عنها.

فعن المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل، فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: (أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد) فترك علي الخطبة.

وفي رواية: (إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي ابن أبي طالب، فلا أذن، ثم لا أذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني).

وفي رواية: (وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً..)[1].

---

(١) متفق عليه (خ ٣٧٢٩، ٥٢٣٠، ٣١١٠، م ٢٤٤٩).



وهكذا نجده ﷺ يستاء لما أحزن ابنته، ولا يجعل الأمر بينه وبين علي، ولكنه يعلنه على المنبر ليعرف الناس كلهم ذلك.

إنه تعليم للجميع لمعنى الرعاية الأبوية، وأن من واجب الأب أن يسعى لما فيه صلاح أبنائه، كباراً وصغاراً.

وما ثناؤه ﷺ على أبي العاص، إلا لما علمه من حسن الرعاية منه لابنته، وكيف أنه لم يفكر بالزواج على الرغم من بعده عن زوجته حين أرسلها إلى النبي ﷺ في المدينة، وبقي هو في مكة[1].

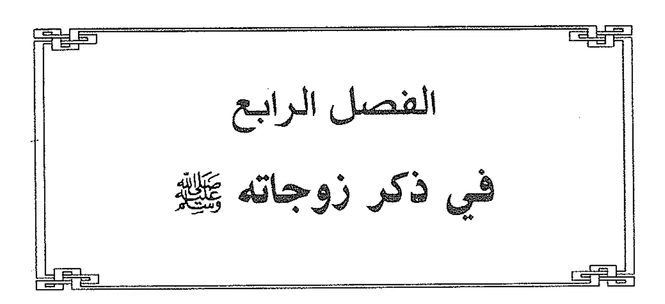
إنه من واجب كل أب أن يتأسى بفعل رسول الله ﷺ من رعايته بناته وتفقد أحوالهن، والإحسان إليهن.

والملاحظة التي نحب أن نسجلها في ختام هذا البحث: أن جميع بنات الرسول ﷺ لم يتزوج عليهن أزواجهن، وربما كان ذلك من التكريم لهن، واحتراماً لرغبة في نفس رسول الله ﷺ كما سبق إيضاحه في قصة خطوبة علي رضي الله عنه.

---

(١) قال ابن حجر في شرح (حدثني فصدقني) ـ أي أبو العاص ـ: «لعله كان شرط على نفسه أن لا يتزوج على زينب، وكذلك علي، فإن لم يكن كذلك فهو محمول على أن علياً نسي ذلك الشرط، فلذلك أقدم على الخطبة..» فتح الباري (٧/ ٨٦).
والذي يبدو أن صدقه بوفائه بوعده بإرسال زينب، وربما عبر بالصدق عن حسن المعاملة والاستقامة فيها، والله أعلم.





الفصل الرابع
في ذكر زوجاته ﷺ

أمهات المؤمنين:

قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾[1].

قال ابن كثير: أي في الحرمة والاحترام، والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.

قال صاحب المواهب: سواء من مات عنها أو ماتت عنه وهي تحته.

ونقل عن البغوي قوله: كن أمهات المؤمنين دون النساء. روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها[2].

وفضلت زوجاته ﷺ على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعفان، قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[3].

ولا يحل سؤالهن إلا من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾[4].

وأفضلهن خديجة وعائشة رضي الله عنهما.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٦).
(٢) المواهب اللدنية (٢/ ٧٣) أي هنَّ أمهات الرجال دون النساء.
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان (٣٠-٣١).
(٤) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

ولا خلاف أنه ﷺ توفي عن تسع وهن: عائشة. وحفصة، وأم حبيبة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وميمونة، وسودة، وجويرية. وصفية.

وماتت عنده ﷺ اثنتان: خديجة، وزينب أم المساكين.

وكانت له سريتان: مارية القبطية، وريحانة القرظية.

وبعد هذه المقدمة الموجزة ننتقل إلى ذكر تراجمهن بحسب الترتيب الزمني لزواجهن رضي الله عنهن.

خديجة بنت خويلد:

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي. من الذؤابة في قريش نسباً، وبيتاً، وشرفاً، يلتقي نسبها بنسب النبي ﷺ في الجد الخامس، قصي بن كلاب.

قال ابن هشام: كانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً(١).

وقد سبق لها أن تزوجت مرتين قبل زواجها من الرسول ﷺ.

تزوجت عتيق بن عابد بن عبدالله بن مخزوم، فولدت له عبدالله، وجارية اسمها هند، أسلمت وصحبت(٢)، ومات عتيق.

ثم تزوجت أبا هالة بن النباش بن زرارة التميمي، ومات عنها أيضاً وقد ولدت له: هنداً وهالة وهما ذكران، وكلاهما أسلم وصحب النبي ﷺ.

وتقدم لخطبتها كثير من أشراف قريش، وكلهم كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، لشرفها وجمالها ومالها، وقد أعرضت عن ذلك وانصرفت إلى تنمية أموالها بالتجارة، فقد كانت تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه..

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٨٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٤)، وشرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٢٠).

وسمعت بمحمد بن عبدالله ﷺ وما اتصف به من أمانة وصدق.. فعرضت عليه أن يخرج بأموالها إلى الشام.. وتم ذلك، وكان ذلك سبب تعرفها عليه ﷺ ثم زواجها منه برغبة منها.

كان عمره ﷺ يومئذٍ خمساً وعشرين سنة، وكانت هي في الخامسة والثلاثين[1] وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها حتى ماتت رضي الله عنها.

وكان أولاده جميعا منها إلا إبراهيم، كما ذكرت ذلك في الفصل السابق.

وقد أكرمها الله تعالى فكانت أول من آمن به حينما أكرمه الله تعالى بالنبوة وكانت لها مواقف مشهودة بعد ذلك في نصرة الدعوة، والوقوف إلى جانبه ﷺ.

وظل ﷺ يذكرها بعد ذلك ويكرم كل من يلوذ بها، حتى أثار هذا المسلك غيرة عائشة رضي الله عنها فقالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن. قال: فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول: (إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)[2].

وفي موقف آخر من مواقف الغيرة قالت عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: (اللهم هالة) قالت: فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها[3].

---

(١) هذا قول ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٩٥) وهو الأقرب إلى الصواب، الذي يتناسب مع ما أنجبت للنبي ﷺ من أولاد. وذهبت بقية كتب السيرة إلى أنها كانت في الأربعين.

(٢) متفق عليه (خ ٣٨١٦، ٣٨١٨، م ٢٤٣٥) والقصب: اللؤلؤ المجوف.

(٣) متفق عليه (خ ٣٨٢١، م ٢٤٣٧).



هذه المواقف من الغيرة من امرأة بعد موتها تبين مكانتها عنده ﷺ، وحسن الوفاء منه ﷺ.

وقد نقل علي رضي الله عنه قوله ﷺ في بيان مكانتها: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)[1].

وعن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[2].

ماتت خديجة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، ودفنت في الحجون، وهي ابنة خمس وستين، ولم يكن يومئذٍ يصلى على الجنازة، وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة أو ثلاثين، والله أعلم.

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة وزيرة صدق وكان يسكن إليها، وماتت هي وأبو طالب في عام واحد. قيل فسماه عام الحزن[3].

واقتصاره ﷺ على امرأة واحدة في ريعان شبابه، وبقاؤه معها وحدها مدة خمس وعشرين سنة، وهي تكبره بخمس عشرة سنة، يخرس كل الألسنة، ويكم الأفواه التي تحاول أن تصفه ﷺ بما هو بريء منه من كونه غلبت عليه الشهوات. متذرعين بتعدد زوجاته بعد ذلك.

وإن الدراسة الواعية لتعدد زوجاته لتبرز وتظهر ما كان وراء ذلك من حِكَم وتشريعات يدركها كل دارس منصف.

---

(١) متفق عليه (خ ٣٤٣٢، م ٢٤٣٠). أي كل منهما، خير النساء في زمنها.
(٢) متفق عليه (خ ٣٨٢٠، م ٢٤٣٢) وقوله: (فيه إدام أو طعام أو شراب) شك من الراوي.
(٣) شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٢٣).



سودة بنت زمعة:

تزوج رسول الله سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بعد موت خديجة وكان ذلك بمكة.

وكانت سودة تحت ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ـ أخو سهيل بن عمرو ـ وكانا قد أسلما قديماً، وهاجرا إلى الحبشة الهجرة الثانية. فلما قدما مكة مع من قدم إليها من مهاجري الحبشة مات زوجها.

فلما أسنت ـ بعد هجرتها إلى المدينة ـ خافت أن يطلقها رسول الله ﷺ وهي راغبة في البقاء في عداد زوجاته، فجعلت يومها لعائشة.

والحقيقة أن هذا كان مجرد شعور منها وخوف، ولم يكن لذلك ما يبرره.

واختلف في تاريخ وفاتها، وجزم الذهبي بأنها ماتت في آخر خلافة عمر.

وروت عنه ﷺ خمسة أحاديث، في البخاري منها حديث واحد(١).

عائشة الصديقة:

عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ولدت في الإسلام وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين(٢)، وأمها أم رومان أسلمت قديماً، وهاجرت وتوفيت سنة ست من الهجرة.

زوجها أبوها من النبي ﷺ في السنة العاشرة من النبوة، ولها ست سنين وكان الدخول بها في شهر شوال من السنة الأولى من الهجرة. بعد سبعة أشهر من مقدمه المدينة ﷺ.

أخرج الشيخان عنها: أن النبي تزوجها وهي بنت ست سنين، وأدخلت عليه وهي بنت تسع سنين(٣).

---

(١) شرح الزرقاني (٣/ ٢٢٩).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٩٠٥).
(٣) متفق عليه (خ ٥١٣٣، م ١٤٢٢).

وتصف لنا ـ رضي الله عنها ـ يوم أدخلت على النبي ﷺ فتقول: تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن خزرج، فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمة، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج حتى سكن بعض نَفَسي، ثم أخذتْ شيئاً من ماء فمسحتْ به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين[١].

والإسراع في العقد في وقت لم تكن عائشة أهلاً للزواج فيه، يفسره ما أخرجه الشيخان عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: (رأيتك في المنام، يجيء بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي: هذه امرأتك، فكشفتُ عن وجهكِ الثوبَ فإذا هي أنت، فقلت: إن يك هذا من عند الله يمضه).

وفي رواية للبخاري: (أريتك في المنام مرتين) وفي رواية لمسلم: (أريتك في المنام ثلاث ليال..)[٢].

هذه الرؤيا المتكررة ـ ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء نوع من الوحي ـ تبين لنا الدافع في التبكير بالعقد، فقد كان هذا الزواج بأمر من الله تعالى.

وعائشة هي البكر الوحيدة التي تزوجها ﷺ وقد راعى صغر سنها، وقد وصفت هي ذلك فقالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه، فيسربهن إلي فيلعبن معي[٣].

---

(١) متفق عليه (خ ٣٨٩٤، م ١٤٢٢) ومعنى جميمة: الشعر النازل إلى الأذنين.
(٢) متفق عليه (خ ٣٨٩٥، ٥١٢٥، م ٢٤٣٨) والسرقة: القطعة.
(٣) متفق عليه (خ ٦١٣٠، م ٢٤٤٠) ومعنى يتقمعن: أي يتغيبن حياء منه وهيبة.

وفي رواية أبي دواد قالت: كنت ألعب بالبنات وأنا عند رسول الله ﷺ فكان يسرب إلي صواحبي يلاعبنني.

ونلاحظ من هذين النصين أن الرسول ﷺ حرص كل الحرص على أن يبقى لعائشة وضعها الذي كانت تألفه قبل الزواج من اللقاء بصواحبها واللعب ببناتها اللاتي صنعتهن من الصوف.

وقد استمر هذا إلى وقت متأخر نسبياً، ففي حديث أبي داود أنه ﷺ بعد قدومه من غزوة تبوك أو خيبر.. كشف ناحية الستر على بنات لعائشة لعب، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي، قالت: ورأى فيها فرساً مربوطاً له جناحان فقال: ما هذا؟ قلت: فرس، قال: فرس له جناحان؟ قلت: ألم تسمع أنه كان لسليمان خيل لها أجنحة؟ فضحك[1]..

وقد كانت عائشة أحب الناس إليه ﷺ، وكان يصرح بذلك إذا سئل، وهذا ما حدث لعمرو بن العاص عندما قال: قلت أي الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: (عائشة) فقلت: من الرجال؟ فقال: (أبوها)[2].

وعمرو إنما كان يسأل عن الرجال ليعرف مكانته عنده ﷺ ولكن سؤاله كان عاماً، فجاء الجواب الواضح الصريح.

ولقد بات هذا الحب لعائشة معروفاً من قبل الصحابة، فإذا كان عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ، انتظر حتى إذا كان في بيت عائشة بعث هديته إليه.

قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، أو حيث ما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلي

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٣٢).
(٢) متفق عليه (٣٦٦٢، م ٢٣٨٤).

ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: (يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها)[١].

وقوله ﷺ هذا يدل دلالة واضحة على تخصيص الله تعالى لها بهذه المزية، كما يدل على أن الرسول ﷺ كان يراعي هذا الأمر الذي هو من عنده سبحانه وتعالى. دون مساس بالعدل الذي أقامه بينهن رضي الله عنهن.

هذا الزواج الذي كان بأمر نقله الوحي، وهذا التخصيص من نزول الوحي، أمكن معرفة حكمته بعد وفاته ﷺ حيث ظهرت المكانة العلمية لعائشة رضي الله عنها فكانت أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها. كما قال ابن القيم رحمه الله[٢].

كانت عائشة رضي الله عنها على ذكاء كبير، وقد أتاح لها ملاصقة حجرتها للمسجد أن تكون على صلة دائمة بخطب الرسول ﷺ وأحاديثه وأحكامه، تحفظها، وتسأل عما غاب عنها، كما كانت على معرفة بأسباب نزول الآيات، ومناسبات ورود الأحاديث الأمر الذي يسر لها ملكة فقهية قل نظيرها.

ثم هي ـ باستثناء سودة ـ أطول نسائه صحبة له ﷺ. إذ تزوج بهن بعدها في فترات متفاوتة.

وإن نظرة يسيرة على إحصائية الأحاديث التي روتها السيدة عائشة وما رواه بقية أزواجه ﷺ لتبين الدور الذي هيأها الله له.

فقد بلغ عدد أحاديثها التي روتها (٢٢١٠) أحاديث، تليها في ذلك أم سلمة وعدد أحاديثها (٣٧٨) حديثاً، وميمونة (٧٦) حديثاً، وأم حبيبة (٦٥)

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٧٥).

(٢) زاد المعاد (١/١٠٦).



حديثاً، وحفصة (٦٠) حديثاً، وكل من جويرية وسودة (٥) أحاديث، وزينب بنت جحش (٩) أحاديث، وصفية (١٠) أحاديث[١].

ولو جمعنا أحاديث أمهات المؤمنين جميعاً لم تبلغ ثلث ما روته عائشة، يضاف إلى ذلك فتاواها في شؤون المرأة وغير ذلك.

وقد جمعت إلى ذلك معرفة بالشعر والأنساب والطب. حتى كان عروة بن الزبير يتملكه العجب من إحاطة السيدة بكل هذه العلوم، فيقول لها متعجباً: إني لأتفكر في أمرك فأعجب، أجدك من أفقه الناس، فقلت: ما يمنعها؟! زوجة رسول الله وابنة أبي بكر، وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها، أبوها علامة قريش. ولكن إنما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب، فمن أين؟.

وتجيب السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول: يا عرية ـ تصغير عروة ـ إن رسول الله ﷺ كثر من أسقامه، فكان أطباء العرب والعجم ينعتون له فتعلمت ذلك[٢].

وهكذا بقيت السيدة مرجعاً في العلم والفتوى قرابة نصف قرن لا يشكل أمر إلا ويكون عندها من العلم ما يحل ذلك الإشكال.

قال أبو موسى الأشعري: ما أشكل علينا ـ أصحاب رسول الله ﷺ ـ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً[٣].

وقال مسروق بن الأجدع: رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض[٤].

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة. للدكتور أكرم العمري (٢/ ٦٤٩).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الفتح الرباني ٢٢/ ١٢٤).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٨٣).
(٤) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد. قال: رواه الطبراني وإسناده حسن (٩/ ٢٤٢).



وكانت قادرة على الإجابة على أسئلة لم يكن غيرها قادراً على الإجابة عليها، وذلك بسبب قربها منه ﷺ. فعن الأسود قال: ذكروا عند عائشة، أن علياً ـ رضي الله عنه ـ كان وصياً، فقالت: متى أوصى إليه، وقد كنت مسندته إلى صدري فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصي إليه؟[1].

وهكذا فهي تقف على أرض ثابتة في إجابتها، فقد مرض رسول الله ﷺ في بيتها ومات بين يديها، فمتى كانت هذه الوصية؟[2].

توفيت رضي الله عنها في رمضان سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه.

حفصة بنت عمر:

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ولدت قبل البعثة بخمس سنين، وأمها زينب بنت مظعون.

أسلمت حفصة وهاجرت مع زوجها الصحابي الجليل خُنَيس بن حذافة السهمي، الذي شارك في معركة بدر ومات بعدها متأثراً من جراحات أصابته فيها.

فلما تأيمت عرض عمر رضي الله عنه ابنته على عثمان. ثم على أبي بكر.. فلم يجبه واحد منهما.

ثم تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة، وكانت رضي الله عنها صوامة قوامة.

وتوفيت سنة خمس وأربعين من الهجرة في المدينة.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٧٤١، م ١٦٣٦).
(٢) وقد أكد ذلك ابن عباس بأنه ﷺ لم يكتب ولم يوص في الحديث المتفق عليه برقم (خ ٥٦٦٩، م ١٦٣٧).





زينب أم المساكين:

زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية. وكانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لاطعامها إياهم.

وكانت زوجة لعبدالله بن جحش - ابن عمة النبي ﷺ - الذي قتل عنها يوم أحد.

وتزوجها ﷺ بعد انقضاء عدتها، ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، وتوفيت عنده ﷺ.

أم سلمة:

هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي. وقد تزوجت قبل رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد ابن عمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وكانت هي وزوجها من أول من هاجر إلى الحبشة. وولدت له بها زينب. ثم ولدت له بعد ذلك: سلمة وعمر ودرة.

كما كانت هي وزوجها ممن هاجر إلى المدينة، وشارك أبو سلمة في معركة بدر وكذلك في معركة أحد، وأصيب بجرح فيها ثم برىء منه، ثم انتقض بعد مشاركته في إحدى السرايا، وتوفي في جمادي الآخرة سنة أربع[١] رضي الله عنه.

ولما انتهت عدتها أرسل رسول الله ﷺ يخطبها. فذكرت أنها امرأة شديدة الغيرة. وأنها امرأة مصبية[٢]، وأنه ليس أحد من أوليائها شاهد فيزوجها.

فأتاها رسول الله ﷺ فقال: أما ما ذكرت من غيرتك. فإني أدعو الله أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكره ذلك[٣].

---

(١) شرح الزرقاني (٣/٢٣٩).
(٢) أي أن لها أولاد.
(٣) أخرجه النسائي برقم (٣٢٥٤).



وتم الزواج، وكانت أم سلمة من أجمل النساء، وكانت امرأة عاقلة فقيهة.

ومن مواقفها المشهودة، ما أشارت به على النبي ﷺ يوم الحديبية. فبعد أن تم الصلح. قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا) قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، أخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[١].

وكانت آخر أمهات المؤمنين موتاً، وقد اختلف في تاريخ وفاتها على أقوال بين سنة تسع وخمسين وسنة ثلاث وستين من الهجرة، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة رضي الله عنها[٢].

زينب بنت جحش:

زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، طلبها رسول الله ﷺ لتكون زوجة لمولاه زيد بن حارثة، فترفعت عليه لشرف نسبها. وكان ﷺ قد رغب في إلغاء هذه الفوارق في المجتمع الإسلامي. ولما رفضت ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٣] فقالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ. وتم الزواج وكانت زينب امرأة فيها حدة، فكان زيد يشكو ذلك إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٤١).
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٦).

ثم طلق زيد زينب، وبعد انتهاء عدتها أرسل ﷺ في خطبتها، ولكن الآيات نزلت قائلة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾(١) فقام ﷺ فدخل عليها بلا إذن ولا عقد ولا مهر.

وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول: إن الله أنكحني في السماء(٢).

وكان زواجها من رسول الله ﷺ في السنة الخامسة من الهجرة. وفي صبيحة يوم زفافها نزل الأمر بالحجاب.

وهي أول من مات من أزواجه بعده ﷺ، وماتت بالمدينة سنة عشرين.

عن عائشة رضي الله عنها: أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أينا أسرع بك لحوقاً؟ قال: (أطولكن يداً) فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يداً، فعلمنا بعد: إنما كانت طول يدها بالصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به.

وفي رواية مسلم: فكانت أطولنا يداً زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق(٣).

وقد وصفتها عائشة رضي الله عنها فقالت: وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرَّب به إلى الله تعالى. ما عدا سورة من حدٍّ كانت فيها، تسرع منها الفيئة(٤).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٤٢١).

(٣) متفق عليه (خ ١٤٢٠، م ٢٤٥٢).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٤٤٢) والسورة: سرعة الغضب، والفيئة: الرجوع.



وهكذا كان في زواجها من زيد إبطال للفوارق الاجتماعية، وفي زواج رسول الله ﷺ منها بعد ذلك قضاء على قضية التبني وما يتبعها من آثار[(١)] رضي الله عنها.

جويرية بنت الحارث المصطلقية:

انتهت غزوة بني المصطلق، التي وقعت سنة ست من الهجرة، ووزعت غنائمها وسباياها على المسلمين، وكانت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت ابن قيس الأنصاري. فكاتبته على نفسها، وأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك. فوقعت في سهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، وجئتك أستعينك على كتابتي.

قال ﷺ: (فهل لك في خير من ذلك).

قالت: وما هو يا رسول الله؟.

قال: (أقضي عنك كتابتك وأتزوجك).

قالت: قد فعلت.

وتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، فأرسلوا ما في أيديهم من السبي فأعتقوهم. وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق[(٢)].

وتصف عائشة جمالها فتقول: وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. قالت: فوالله ما

---

(١) انظر تفصيل هذا الزواج وما أثير حوله في كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ط ٢ ص (٣٠٣-٣١١).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٣١) وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٥).





هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها. وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت[1].

توفيت سنة خمسين من الهجرة رضي الله عنها.

أم حبيبة بنت أبي سفيان:

من المسلمين الأوائل. هاجرت هي وزوجها عبيدالله بن جحش إلى الحبشة الهجرة الثانية. ولكن زوجها تنصر وارتد ومات في الحبشة. وبقيت هي مع المسلمين هناك ثابتة على إسلامها.

وفي العام السادس من الهجرة أرسل الرسول ﷺ إلى النجاشي في طلب زواجها. وهي بأرض الحبشة، فزوجه إياها وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وكان وليها في العقد خالد بن سعيد بن العاص.

توفيت سنة أربع وأربعين من الهجرة رضي الله عنها.

صفية بنت حيي:

افتتح المسلمون خيبر سنة سبع من الهجرة. وكان بين السبي صفية بنت حيي بن أخطب. وجاء دحية الكلبي فقال: يا نبي الله. أعطني جارية من السبي قال: (اذهب فخذ جارية) فأخذ صفية، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك. قال: (ادعوه بها) فجاء بها. فقال: (خذ جارية من السبي غيرها) قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها[2].

قال أنس: وأقام النبي بين خيبر والمدينة ثلاثاً، يبني بصفية، فدعوت المسلمين إلى وليمته، فما كان فيها من خبز ولا لحم، أمر بالأنطاع، فألقي

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٣١) وعند ابن هشام (٢/ ٢٩٤).

(٢) متفق عليه (خ ٣٧١، م ١٣٦٥ م).



فيها التمر والأقط والسمن. فكانت وليمته. فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين، أو مما ملكت يمينه؟ فقالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطّى لها خلفه، ومد الحجاب بينها وبين الناس[1].

ويذكر أنس رضي الله عنه أنه قبل دخول المدينة. كان هو وأبو طلحة مع النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ صفية مردفها على راحلته، فلما كانوا ببعض الطريق عثرت الناقة، فصرع النبي ﷺ والمرأة، وإن أبا طلحة اقتحم عن بعيره فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله جعلني الله فداك، هل أصابك شيء؟ قال: (لا، ولكن عليك بالمرأة) فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه وقصد قصدها، فألقى ثوبه عليها، فقامت المرأة، فشد لهما على راحلتهما فركبا[2].

وكانت صفية تحت كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل يوم خيبر.

عن زيد بن أسلم: أن نبي الله في وجعه الذي توفي فيه، قالت صفية بنت حيي، والله يا نبي الله، لوددت أن الذي بك بي، فغمزها أزواجه، فأبصرهن فقال: (مضمضن) قلن: من أي شيء؟ قال: (من تغامزكن بها والله إنها لصادقة)[3].

توفيت في رمضان سنة خمسين للهجرة رضي الله عنها.

ميمونة بنت الحارث الهلالية:

تزوجها ﷺ في عمرة القضاء[4] سنة سبع بعد غزوة خيبر، وهي آخر من تزوج بها ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٨٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠٨٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣٥) قال محققه: أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات. لكنه مرسل.
(٤) أخرجه البخاري برقم (٤٢٥٩).

وكانت أختها أم الفضل لبابة الكبرى تحت العباس بن عبد المطلب، وأختها لأمها أسماء بنت عميس تحت جعفر، وسلمى بنت عميس تحت حمزة. وكانت جعلت أمرها إلى العباس، فأنكحها النبي ﷺ(١).

وبنى بها رسول الله ﷺ بسرف بعد خروجه من مكة، ولم تسمح له يومئذٍ قريش أن يقيم بمكة حتى يبني بها. وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى الذي مات عنها.

وتوفيت ميمونة بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه. سنة إحدى وخمسين للهجرة رضي الله عنها.

السراري:

وكان له ﷺ سريتان:

مارية القبطية بنت شمعون. أهداها له المقوقس صاحب مصر والإسكندرية، وهي أم ولده إبراهيم.

وريحانة بنت شمعون من بني قريظة. وقد ماتت قبل وفاته ﷺ، مرجعه من حجة الوداع، ودفنت بالبقيع.

ويذكر بعضهم سرية أخرى وهبتها له زينب بنت جحش، ورابعة أصابها من بعض السبي.

صور من حياة أمهات المؤمنين:

إن امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، فتلك كرامة وأي كرامة، وشرف وأي شرف. ثم كان تكريم الله تعالى لهن بأن جعلهن أمهات المؤمنين.

ومع ذلك ظلت نوازع الفطرة آخذة مأخذها من نفوسهن بشأن الغيرة. ككل النساء في هذا الأمر.

---

(١) المواهب اللدنية (٢/٨٩).



ويحسن بنا في هذه الفقرة أن نعرض بعض المشاهد من هذا الجانب من حياتهن رضي الله عنهن.

أخرج البخاري عن أنس قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام. فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت. فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: (غارت أمكم) ثم حبس الخادم حتى أُتيَ بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها[1].

اتفق الشراح على أن التي كان النبي ﷺ في بيتها هي عائشة، وأن التي أرسلت الصحفة هي زينب بنت جحش. كما ورد في روايات أخرى.

وواضح من سياق الحديث أن الرسول ﷺ كان عنده بعض أصحابه، وكان أنس واحداً منهم، ولهذا خاطبهم الرسول ﷺ بقوله: (غارت أمكم).

ومما يلفت النظر في سلوكه ﷺ أنه لم يحرج تجاه أصحابه في هذا، فهو سلوك فطري.

وأمر آخر: أنه وجد الغيرة عذراً لا تلام كاسرة الصحفة من أجله. وإن ألزمها أن تدفع بدلاً عنها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناءً فيه طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته. فقلت يا رسول الله ما كفارته؟ قال: (إناء كإناء وطعام كطعام)[2].

وهكذا تخرجها الغيرة عن ضبط نفسها، ثم تفيء إلى الصواب. فتسأل عن المخرج..

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٢٥)، وهناك حادثة مشابهة بين أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما أخرجها النسائي برقم (٣٩٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي (د ٣٥٦٨، ن ٣٩٦٧).





وفي صحيح البخاري تنقل لنا عائشة رضي الله عنها صورة دقيقة عن زوجات الرسول ﷺ فتقول: إن نساء رسول الله ﷺ كنَّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ(١).

وهذا يقتضي بدوره أن تناصر الواحدة منهن أفراد حزبها.. عند إثارة المشكلات وإلا فما فائدة هذا التحزب؟!.

ويحسن أن نذكر صورة تبين أثراً من آثار هذا التحزب، ففي الحديث المتفق عليه، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة: أنَّ أيَّتَنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير. أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: (بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له)(٢).

على أن هذه الحزبية ليست عقداً لازماً، فإذا اقتضت المصلحة الخروج عليه فلا حرج في ذلك.. وكما قال الشاعر:

وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

والمؤامرة هذه المرة تحاك ضد حفصة، وبما أن حفصة كانت طرفاً في الحادثة السابقة فينبغي أن يعتني بالإخراج حتى لا تفشل الخطة..

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء، ويحب العسل، وكان إذا صلى العصر أجاز على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة، فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٨١).
(٢) متفق عليه (خ ٥٢٦٧، م ١٤٧٤).



فقلت: أما والله لنحتالن له، فذكرتُ ذلك لسودة، وقلتُ لها: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك، فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغافير[1]؟ فإنه سيقول: لا، فقولي له: ما هذه الريح ـ وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن توجد منه الريح ـ فإنه سيقول: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي له: جرست نحله العرفط[2]، وسأقول مثل ذلك، وقوليه أنت يا صفية.

فلما دخل على سودة، قلت: تقول سودة ـ والذي لا إله إلا هو، لقد كدت أن أباديه بالذي قلت لي وإنه لعلى الباب، فرقاً منك ـ فلما دنا رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: (لا) قلت: فما هذه الريح؟ قال: (سقتني حفصة شربة عسل) قلت: جرست نحله العرفط.

فلما دخل عليَّ قلت له مثل ذلك، ودخل على صفية فقالت له مثل ذلك.

فلما دخل على حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: (لا حاجة لي به).

قالت: تقول سودة: سبحان الله، لقد حرمناه، قالت: قلت لها: اسكتي[3].

وهكذا كانت حفصة كما قيل: بالكأس الذي سقيت أنت شارب.

ويبدو من خلال الحديث قوة شخصية السيدة عائشة وهيمنتها على زميلاتها.

على أن الأمور لا تسير دائماً على وتيرة واحدة، والأيام دول.

وكما تقص علينا عائشة رضي الله عنها أخبار انتصاراتها، تقص علينا أيضاً قصة فشلها بعض الأحيان فتقول:

---

(١) صمغ حلو ذو رائحة كريهة ينضحه شجر اسمه العرفط.

(٢) جرست: أي رعت. والمعنى أن النحل الذي أنتج هذا العسل كان قد وقف على شجر العرفط.

(٣) متفق عليه (خ ٦٩٧٢، م ١٤٧٤).

إن النبي ﷺ، كان إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ، إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة ـ وعليه حفصة ـ فسلم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة، فلما نزلوا جعلتْ رجليها بين الإذخر وتقول: يا ربِّ سلط علي عقرباً أو حية تلدغني. ولا أستطيع أن أقول شيئاً(١).

تلك بعض الوقائع التي تسجل لنا جانباً من حياتهن، وسواء أكان الباعث عليها الغيرة أم المزاح فإن صورة واقعيتها لا تختلف.

وهذا ما يوضح حقيقة ينبغي ألاّ تغيب عن الفكر، وهي أنهن كنَّ يتعاملن معه من خلال بشريته ﷺ لا من خلال نبوته، فتارة يحتالون له، وتارة يحتالون عليه، وهو بسلوكه معهن يرسم لنا الصورة البشرية كاملة، لتكون هذه الصورة معلماً للأزواج في تعاملهم مع أزواجهم، ويوضح هذا ويجليه ما نتناوله في الفصل القادم.

وقبل أن نختم هذه الكلمة، لا بد من الإشارة إلى الوجه الآخر من التعامل بينهن ـ رضي الله عنهن ـ وهو تعامل التقدير والاحترام، وذكر الفضل لأصحابه، وقد مر معنا ـ عندما تحدثنا عن زينب بنت جحش ـ قول عائشة في الثناء عليها، وبينهما ما بينهما.

وتتحدث عائشة عن سودة فتقول: ما رأيت امرأة أحبَّ لي أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة، من امرأة فيها حدة(٢).

ولما كانت حادثة الإفك، سأل رسول الله ﷺ، زينب بنت جحش عن أمر عائشة فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٢١١، م ٢٤٤٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٦٣) والمسلاخ هو الجلد، والمعنى: أن أكون أنا هي.



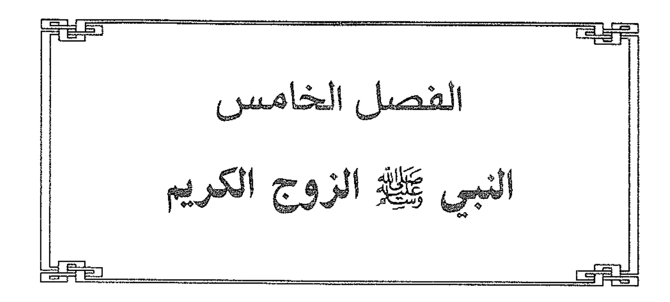
قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع[1].

إنها صور وضيئة مشرقة. رضي الله عنهن.

(١) متفق عليه (خ ٤١٤١، م ٢٧٧٠).







الفصل الخامس

النبي ﷺ الزوج الكريم

خيركم خيركم لأهله:

يلخص لنا عمر رضي الله عنه وضع المرأة قبل الإسلام بكلمات قليلة، فيها البلاغة والإيجاز فيقول: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم»[١].

وكلمة عمر هذه كافية في إعطاء تصور عن وضع المرأة، وكيف كانت على هامش الحياة،، إذ ليس من مهمة البحث هنا التوسع في عرض هذا الجانب.

ونزلت آيات القرآن الكريم لتفرض لهن، وتبين ما لهن..

وكانت سيرته ﷺ البيان العملي في إعطاء الصورة الحقة التي يريدها الإسلام من الرجل تجاههن.

ثم كان البيان القولي الذي يلخص سيرته العملية ﷺ لمن لم يتح له الوقوف عليها، فقال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[٢].

ويضع ﷺ الميزان الحق الذي تقاس به فضيلة الرجل وخيريته. وهو حسن معاشرته لأهله ومصاحبته إياهم. وبمقدار ما يرتفع هذا المستوى من الحسن بمقدار ما يرتفع عنصر الخير فيه.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩١٣، م ١٤٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٨٩٢) والدارمي وابن حبان وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال محقق زاد المعاد: وهو كما قال. زاد المعاد (١/ ١٥٢).



والأهل هنا: الزوجة[١].

والحديث هنا وإن كان بصيغة الخبر، لكنه في حقيقة معناه توجيه كريم وحث للمسلم على الوصول إلى هذا المستوى من الخير، بالإحسان إلى زوجته، وحسن معاملتها. الأمر الذي يحقق بدوره معنى الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٢].

ونحن في هذا الفصل نذكر بعض الصور التي تبين جوانب من حياته ﷺ مع أزواجه وفي بيوته، لتكون معالم واضحة لمن أراد التأسي به ﷺ.

وإذا كانت معظم هذه الصور من رواية عائشة رضي الله عنها أو مما يخصها، فذلك لأنها أكثر نساء الرسول ﷺ رواية، فنقلت لنا تلك الوقائع ولم يفعل غيرها من الزوجات ما فعلت.

العدل:

قال ابن القيم: وكان ـ ﷺ ـ يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة. وأما المحبة فكان يقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)[٣].

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا[٤].

---

(١) يؤكد هذا التخصيص كل كتب الحديث التي أخرجته. فقد وضعه الترمذي تحت عنوان (فضل أزواج النبي ﷺ) والدارمي تحت عنوان (حسن معاشرة النساء) وابن حبان في (باب عشرة النساء) وابن ماجه في (حسن معاشرة النساء).

(٢) سورة الروم، الآية (٢١).

(٣) زاد المعاد (١/ ١٥١) والحديث أخرجه أصحاب السنن وغيرهم. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢١٣٥).

ولما كان في مرضه استأذنهن أن يمرض في بيت السيدة عائشة فأذنَّ له.

وكان ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه[1].

وكانت الهدية إذا جاءته وزع عليهن بالتساوي. فقد أخرج الإمام أحمد عن أنس: أن أم سليم ـ أمه ـ بعثته إلى رسول الله ﷺ بقناع[2] عليه رطب فجعل يقبض قبضة فيبعث بها إلى بعض أزواجه، ويقبض القبضة فيبعث بها إلى بعض أزواجه.. ثم جلس فأكل بقيته، أكل رجل يعلم أنه يشتهيه[3].

وهكذا قدم زوجاته على نفسه في التوزيع، ولم يبق له إلا القليل الذي لو أكله المرء لانتهى منه وما زال في نفسه رغبة إليه.

كما سوى بينهن فكان لكل منهن قبضة.

وإذا كنا في صدد الحديث عن العدل، فلا بد أن يستوقفنا حديث البخاري الذي فيه مناشدة أم سلمة وحزبها الرسول ﷺ العدل في عائشة.

قالت عائشة: إن نساء رسول الله ﷺ كنَّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخرها، حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة، بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة.

---

(١) متفق عليه (خ ٤١٤١، م ٢٧٧٠).

(٢) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه.

(٣) الفتح الرباني للبنا (١٤٨/٢٢) وقال في تخريجه: صحيح ورجاله رجال الصحيحين، وهو من ثلاثيات الإمام أحمد، ولم أقف عليه لغيره.



فكلم حزب أم سلمة، أم سلمة، فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية، فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه.

فكلمته أم سلمة بما قلن لها، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: فكلميه، قالت: فكلمته حين دار إليها أيضاً، فلم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها فكلمته، فقال لها: (لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة). قالت: فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك اللهَ العدلَ في بنت أبي بكر، فكلمته فقال: (يا بنية ألا تحبين ما أحب؟) قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع.

فأرسلن زينب بنت جحش، فأتته فأغلظت، وقالت: إن نساءك ينشدنك اللهَ العدلَ في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تكلم؟ قال: فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها.

قالت: فنظر النبي ﷺ إلى عائشة وقال: (إنها ابنة أبي بكر)(١).

وإذا أمعنّا النظر في الحديث تبين لناأن الباعث الحقيقي لأم سلمة وحزبها لم يكن قضية الهدايا، بل هو غبطتهن عائشة على منزلتها عند الرسول ﷺ.

يدلنا على ذلك جوابه ﷺ لأم سلمة، ومن بعدها لابنته رضي الله عنها. فقد بين لأم سلمة مكانتها من خلال نزول الوحي عليه وهو معها في لحافها أو ثوبها.. الأمر الذي تميزت به عليهن.

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٨١).





وكان جوابه ﷺ لابنته فيه الإيحاء بأن أمر الحب ليس بيده، حتى يتحكم فيه، وهو الأمر الذي مر قوله فيه ﷺ في أول هذه الفقرة.

ثم جاءت زينب وخرجت عن حدود المهمة التي جاءت من أجلها، فسبت عائشة، وعائشة لا يد لها في الأمر الذي جاءت من أجله.

وإذا عدنا إلى أمر الهدايا، فهي ليست من فعله حتى يطالب بالتسوية فيه، وأما طلبهن إعلان ذلك للناس، فذلك أمر يحول دونه كرم الرسول ﷺ وعفته، إذ «ليس من كمال الأخلاق أن يتعرض الرجل إلى الناس بمثل ذلك، لما فيه من التعرض لطلب الهدية» كما قال ابن حجر[(١)].

الحب:

أخرج الشيخان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة). فقلت: من الرجال؟ فقال: (أبوها)[(٢)]..

وهكذا يصرح ﷺ بحبه، حتى انتشر ذلك بين الصحابة.

قال ابن القيم: وكان ـ ﷺ ـ إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرقت عَرْقاً ـ وهو العظم الذي عليه لحم ـ أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكىء في حجرها[(٣)].

إنها صورة الحب في كمالها الإنساني، ترسمها أفعاله وتصرفاته ﷺ، أحببنا أن نسوقها مختصرة لأولئك الذين باتوا يرون في ذكر شيء من ذلك عيباً ومنقصة.

---

(١) فتح الباري (٥/٢٠٨).

(٢) متفق عليه (خ ٣٦٦٢، م ٢٣٨٤).

(٣) زاد المعاد (١/١٥٢) وانظر حديث مسلم ذي الرقم (٣٠٠) الذي نص على الشرب والتعرق.





وفعله ﷺ هو الكمال والجمال والخير والصواب بشهادته سبحانه وتعالى له بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(١) فمن رأى غير ذلك فليراجع حساب إيمانه(٢).

وإذا كنا نتحدث عن حبه ﷺ لعائشة، فلا يعني ذلك أنه لم يكن يحب بقية زوجاته، ولكنهن لم يكن لهن الجرأة الأدبية التي كانت تمتع بها عائشة، فلم ينقلن لنا تصرفه معهن كما فعلت.. (إنها ابنة أبي بكر) كما قال ﷺ.

صور من الحياة اليومية:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ ما من يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، امرأة امرأة، فيدنو ويلمس من غير مسيس، حتى يفضي إلى التي هو يومها، فيبيت عندها(٣).

وقد يحصل أن يجتمعن في بيت التي يكون مبيته عندها، فإذا جاء وقت النوم انصرفن إلى حجرهن. وقد تحصل بعض المشادات بينهن خلال ذلك. ولنستمع إلى أنس رضي الله عنه، يقص علينا حديثه في ذلك:

قال أنس: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان إذا قسم بينهن، لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع، فكن يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب، فمد يده إليها، فقالت: هذه زينب، فكفَّ النبي ﷺ يده، فتقاولتا حتى استخبتا(٤)، وأقيمت الصلاة، فمر أبو بكر على ذلك، فسمع أصواتهما، فقال: اخرج يا رسول الله إلى الصلاة، واحث في

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٢١).
(٢) وصل الأمر ببعضهم أنه رأى في اسم زوجته عورة، فلا ينبغي لأحد أن يعرفه.
(٣) أخرجه أحمد. الفتح الرباني (١٦/٢٣٨) وقال أخرجه أبو داود والحاكم، وصححه الحاكم وأقره الذهبي.
أقول: ورقمه عند أبي داود (٢١٣٥).
(٤) استخبتا: من السخب، وهو اختلاط الأصوات وارتفاعها.





أفواههن التراب. فخرج النبي ﷺ، فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، أتاها أبو بكر، فقال لها قولاً شديداً، وقال: أتصنعين هذا[1]؟.

وقد ترتفع أصواتهن على الرسول ﷺ وقد تهجره إحداهن..

قال عمر رضي الله عنه: صخبت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهنَّ لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني ذلك وقلت لها: وقد خاب من فعل ذلك منهن، ثم جمعت علي ثيابي، فنزلت فدخلت على حفصة، فقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكن النبي ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي؟ لا تستكثري النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك[2]..

ولقد بات ﷺ يعرف غضب الواحدة منهن من رضاها. فقد قال لعائشة: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى) قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: (أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنت غضبى، قلتِ: لا وربِّ إبراهيم) قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك[3].

وعن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناولها ليلطمها، وقال: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟! فجعل النبي ﷺ يحجزه. وخرج أبو بكر مغضباً. فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: (كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟). قال:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٦٢).
(٢) متفق عليه (خ ٥١٩١، م ١٤٧٩).
(٣) متفق عليه (خ ٥٢٢٨، م ٢٤٣٩).



فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي ﷺ: (قد فعلنا قد فعلنا)(١).

تلك صور تفتح الأعين على كريم أخلاقه ﷺ وحسن معاشرته أزواجه، وصبره عليهن، وتلك هي الرجولة الحقة في أسمى صورها.

حسن معاشرته ﷺ أزواجه:

نعرض في هذه الفقرة جانباً آخر من طريقته ﷺ في معاملة أهله.

أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)(٢).

وقصة هذا الحديث ـ كما روتها عائشة تفصيلاً ـ أن إحدى عشرة امرأة تعاهدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً. ثم وصفت كل واحدة منهن سلوك زوجها في بيته ومعاملته إياها، فكان من هؤلاء الأزواج: الجيد في سلوكه، وكان منهم المتوسط، وكان منهم غير ذلك... وقد مثل أبو زرع في هذا الحديث قمة الحسن في المعاملة لزوجته..

وهذا التشبيه من الرسول ﷺ لنفسه بأبي زرع هو تشبيه الأعلى بالأدنى، أو هو تشبيه تمثيلي، فأبو زرع كان قمة بالنسبة للمجتمع الذي كان فيه. ورسول الله ﷺ هو القمة بالنسبة للمجتمع المسلم الذي يمثل أرقى المجتمعات.

لم يكن هذا بالنسبة لعائشة رضي الله عنها، بل لجميع زوجاته، وإنما ورد ذكر اسمها فيه لأنها كانت المخاطبة.

فهذا أنس رضي الله عنه ينقل لنا صورته ﷺ وهو يساعد صفية على

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود. وهو عنده برقم (٤٩٩٩).
(٢) متفق عليه (خ ٥١٨٩، م ٢٤٤٨).



ركوب الراحلة فيقول: ثم يجلس ﷺ عند بعيره، فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[١]..

وحين وقع ﷺ عن الراحلة ووقعت معه صفية رضي الله عنها، وكان أبو طلحة قريباً منهما قال: يا نبي الله ـ جعلني الله فداك ـ هل أصابك من شيء؟ قال: (لا، ولكن عليك بالمرأة) فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه فقصد قصدها فألقى ثوبه عليها فقامت المرأة[٢]..

أرأيت كيف كان اهتمامه ﷺ بها أكثر من اهتمامه بنفسه. فوجه أبا طلحة للعناية بها[٣].

ويعتكف ﷺ في العشر الأواخر من رمضان، فتزوره صفية في اعتكافه، وتتحدث عنده ساعة، ثم تقوم لترجع إلى بيتها، فيقوم معها حتى يوصلها إليه[٤].

ويزداد اهتمامه ﷺ بمن تمرض منهن، ففي حديث الإفك تقول عائشة: ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي[٥]..

وفي حجة الوداع رغبت عائشة رضي الله عنها أن تأتي بالعمرة بعد الحج فأرسلها ﷺ مع أخيها عبد الرحمن تلبية لرغبتها.. يقول جابر: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه[٦].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٣).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠٨٦).
(٣) وانظر هنا سرعة بديهة أبي طلحة رضي الله عنه وحسن تصرفه، كيف ألقى ثوبه على وجهه لا يبصر المرأة ثم قصد تجاهها فألقى الثوب عليها.
(٤) متفق عليه (خ ٢٠٣٥، م ٢١٧٥).
(٥) متفق عليه (خ ٤١٤١، م ٢٧٧٠).
(٦) أخرجه مسلم برقم (١٢١٣).



وتصف عائشة رضي الله عنها جانباً من سلوكه ﷺ فتقول: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله(١)..

وإذا ذهبنا نسترسل في نقل هذه المكارم لطال بنا المقام وخرجنا عن الحدود المقررة لهذه الفقرة ولكنا نختمها بحديث مسلم الآتي:

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ، قلنا: بلى، قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجَع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدتُ. فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً.

فجعلت درعي في رأسي، واختمرت وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره. حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات. ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت.

فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: (مالك يا عائش؟ حشيارابية!!)(٢) قالت: قلت: لا شيء. قال (لتخبريني أو ليخبرنِّي اللطيف الخبير) قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته.

قال: (فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟) قلت: نعم، فلهدني(٣) في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: (أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟) قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم. قال: (فإن جبريل أتاني حين

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٨).
(٢) حشيارابية: أي مرتفعة البطن.
(٣) أي دفعني.

رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبته، فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم).

قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: (قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)[1].

وتستوقفنا تلك الفقرة التي تبين حرص الرسول ﷺ على اختيار الوضع الأحسن بشأن مغادرته الحجرة. فقد ظن أنها نائمة، وخشي إن أيقظها وأعلمها وجهته وسبب خروجه أن تستوحش، كما كره إيقاظها حرصاً على تمام راحتها، فآثر أن يخرج بأناة حتى لا يوقظها.. فأخذ رداءه رويداً.. وانتعل رويداً وفتح الباب رويداً.. وخرج رويداً.. وأغلقه رويداً.

فأي سلوك هذا..

إن قلنا هو اللطف.. فتلك صفته ﷺ التي لا يدانيه فيها أحد.

وإن قلنا هو الرحمة.. فهو القائل: (الراحمون يرحمهم الرحمن)[2].

وإن قلنا هو الحب.. فتلك عاطفة السمو العليا.

إننا أمام ذلك كله في سلوكه ﷺ مع أزواجه.. وصدق إذ يقول: (وأنا خيركم لأهلي)[3].

في مهنة أهله:

أخرج البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٧٤).

(٢) أخرجه أحمد وغيره.

(٣) سبق تخريجه. وفي الحديث عند الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخيارهم خيارهم لنسائهم) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله ـ تعني: خدمة أهله[1] ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة[2].

«كان يكون في مهنة أهله» كلمة قالتها عائشة رضي الله عنها، فلخصت فيها معالم حياته البيتية ﷺ بكل أبعادها، وتركت للمخاطب أن يستكمل معالم هذه الصورة من خلال معرفته بالبيت ولوازمه.

على أنه وردت روايات أخرى عند غير البخاري تضرب بعض الأمثلة على هذه الخدمة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يخصف[3] نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته»[4].

وسئلت؛ ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[5].

تلك صورة رفيعة وضيئة تنقل لنا كيف كان ﷺ في بيته، يقوم بخدمة نفسه بنفسه طالما هو قادر على ذلك. فلا يطلب من غيره فعل شيء وهو قادر على أن يفعله بنفسه، وهو الذي بايع مرة نفراً من الصحابة، وكان في جملة نصوص البيعة قوله ﷺ: (ولا تسألوا الناس شيئاً). قال راوي الحديث: «فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه»[6].

---

(١) هذا التفسير ـ كما في فتح الباري ـ من تفسير آدم بن إياس شيخ البخاري.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٧٦).
(٣) يخصف نعله: يخرزها.
(٤) أخرجه أحمد، والترمذي في الشمائل، وابن سعد، وهو حديث صحيح. ورجاله ثقات وصححه ابن حبان(وانظر الفتح الرباني للبنا ج ٢٢ / ص٢٣).
(٥) أخرجه الإمام أحمد، الفتح الرباني (٢٢/ ٢٤)، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٧٠).
(٦) أخرجه مسلم برقم (١٠٤٣).



ولا شك أنه ﷺ ـ لو أراد ـ لوجد من يخيط أو يرقع له ثوبه، ويفعل له الأمور الأخرى من نسائه.

وهذا المسلك الكريم منه ﷺ في بيوته. يوضح أنه لم يكن يرى أن من واجب زوجاته الخدمة، بل ذلك شيء يتبرعن به من تلقاء أنفسهن.

إنه ﷺ بخدمته نفسه يؤكد ـ وقبل كل شيء ـ: أن المرأة ليست خادمة، كما أنها ليست بمعنى الخادمة.

ولم يكن هذا المعنى استنتاجاً من فعله ﷺ، بل إن أقواله ﷺ لتؤكد ذلك، فقد وردت أحاديث كثيرة تبين حقوق الزوج على زوجته، لا نجد فيها أي اشارة إلى هذا المعنى، أو ما يمكن استنتاج ذلك منه.

وقد قرر هذا المعنى ثلاثة من أئمة المذاهب هم: مالك وأبو حنيفة والشافعي فقالوا: بعدم وجوب خدمة المرأة لزوجها(١).

وذهب طائفة أخرى من الفقهاء إلى وجوب الخدمة في بيت الزوج، بناء على العرف السائد في المجتمع وقد أيد ابن القيم هذا الاجتهاد وذهب إليه. ومما احتج به:

خدمة السيدة فاطمة في بيت علي رضي الله عنهما.

وخدمة أسماء للزبير فقد قالت: كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله(٢).

---

(١) فقه السنة، لسيد سابق (٢/ ١٨٤)، وزاد المعاد، لابن القيم (٥/ ١٨٨).

(٢) زاد المعاد (٥/ ١٨٧).

يعد ابن القيم واحداً من الذين تبنوا رأي وجوب خدمة المرأة في بيتها. ومن الغريب أنه بدأ حديثه عن هذا الموضوع بالشكل الآتي.

«قال ابن حبيب في (الواضحة): حكم النبي ﷺ بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين زوجته فاطمة رضي الله عنها حين اشتكيا إليه الخدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت وحكم على علي بالخدمة الظاهرة. ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين والطبخ والفرش وكنس البيت واستقاء الماء، وعمل البيت كله» «وفي الصحيحين، أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما =



وقرر أصحاب المذهب الأول: أن ذلك كان تبرعاً منهما، وهو منهما من باب التطوع ومكارم الأخلاق.

وإذا أدخلنا هذه المسألة في ميدان أصول الفقه. فكل ما فيها أن الرسول ﷺ أقر خدمة فاطمة وأسماء. ومعلوم أن إقراره ﷺ يفيد الجواز ولا يفيد الوجوب. وهذا يعني: أنه يجوز للمرأة أن تخدم زوجها ولا يجب عليها.

=تلقى في يديها من الرحى وتسأله خادماً فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته. قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: مكانكما، فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: ألا أدلكما على ما هو خير مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، وأحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم. قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين» انتهى كلام ابن القيم.

أقول: وهو منقول بكامله هكذا عن كتاب «أقضية رسول الله ﷺ» لمؤلفه محمد بن فرج المالكي. ص (٣٣٩) وقد حققه الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي.

وابن حبيب محدث قرطبي مالكي توفي سنة (٢٣٨هـ).

والذي يبدو: أن ابن حبيب الذي نقل عنه ابن فرج، ثم نقل عنهما ابن القيم، قد عدَّ حديث الصحيحين هذا دليلاً على مقالته. وتابعه في ذلك ابن القيم.

وقد وردت القصة عند البخاري في خمسة مواطن وكذا ذكرها مسلم، وليس في أي من هذه الروايات ذكر خلاف وقع بين علي وفاطمة رضي الله عنهما، حتى يكون بعد ذلك قضاء أو حكم. (خ ٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٦٣١٨/ م ٢٧١٧).

ونقل ابن حجر عند شرح الحديث عن ابن بطال قوله: إن بعض الشيوخ قال: لا نعلم في شيء من الآثار أن النبي ﷺ قضى على فاطمة بالخدمة الباطنة، وإنما جرى الأمر بينهم على ما تعارفوه من حسن العشرة وجميل الأخلاق. وأما أن تجبر المرأة على شيء من الخدمة فلا أصل له. بل الإجماع منعقد على أن على الزوج مؤنة الزوجة كلها. (فتح الباري ٩/٥٠٧).

وقد أطلت في هذا التعليق، لبيان بطلان قول ابن حبيب في أن القضية كانت قضاء من رسول الله ﷺ بين علي وفاطمة رضي الله عنهما، ذلك أن بعضهم تناقل هذا القول دون النظر في دليله أو مستنده. ولا دليل ولا مستند.

والذي يجب أن نذكره مما استفدناه وفهمناه من سلوكه ﷺ بعيداً عن المناقشات الفقهية ما يلي:

١ ـ ليست المرأة في بيتها خادمة أو شبه خادمة.

٢ ـ وقد جرت العادة أن تفعل ذلك تطوعاً ومحبة، وإذا كان الأمر كذلك فلا يحسن بالزوج أن يلقي بالعبء كله عليها، بل عليه أن يشارك في أعمال بيته كما كان رسول الله ﷺ يفعل.

٣ ـ إن عدم اتفاق الفقهاء على وجوب خدمة المرأة في بيت زوجها، وذهاب معظمهم إلى الرأي الأول الذي يقرر عدم الوجوب يفيدنا في أمر نفسي مهم ينبغي أن يستقر في خلد الزوج، وهو علمه بأن امرأته تقوم بهذه الخدمة متطوعة وهذا بدوره يتطلب منه أمرين:

أ ـ شكرها على ما تقوم به، والكلمة الطيبة دائماً صدقة.

ب ـ عدم التأفف أو الغضب إذا قصرت في يوم من الأيام.. لعذر ما، ذلك لأنها متبرعة، والمتبرع لا يطالب عندما يقصر بما تبرع به.

وخلاصة القول في هذه القضية: أن من أراد التأسي بالنبي الكريم في هذا الميدان، فعليه أن يقوم بأمرين.

الأول: أن يخدم نفسه بنفسه كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

والثاني: أن يكون في مهنة أهله. عندما يكون في بيته، كما كان سيد البشر صلى الله عليه وسلم يفعل.

مشاركة أمهات المؤمنين بأمر بيوتهن:

قال عمر رضي الله عنه: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم، قال: فبينا أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولما هاهنا، فيما تكلُّفك في أمر أريده؟ فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن

تراجع أنت؟ وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام عمر فأخذ رداءه مكانه، حتى دخل على حفصة فقال لها: يا بنية، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله، إنا لنراجعه..»(١).

لم تكن المرأة ـ في نظر القوم ـ تستشار في أمر، بل ينكر عليها أن تبدي رأيها، فضلاً عن أن يكون لها وجهة نظر تدافع عنها أو تراجع الرجل بشأنها.

تلك هي الصورة التي تأخذ أبعادها في ذهن القارئ، وهو يمعن النظر في قول عمر رضي الله عنه.

ولكن سيرة الرسول ﷺ كانت أمراً آخر، فهو يستمع لزوجاته، ويسمعن منه، وقد تتفق وجهات النظر وقد تختلف، وقد يغضب من إحداهن يوماً، وقد تغضب إحداهن يوماً وهكذا هي الحياة في واقعها الصحيح. فللمرأة رأيها وهي أهل لأن تناقش وتدلي بدلوها، وبخاصة فيما يكون في دائرتها من شؤون بيتها.

وقد رأينا في الصفحات السابقة ما يوضح مسلكه ﷺ واحترامه لآرائهن، حتى قال لعائشة رضي الله عنها: (إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليَّ غضبى). كما سبق.

بل إنه ﷺ لا ينكر على عائشة رضي الله عنها محاولة تدخلها في كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بشؤون بيتها.

قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: كنا يوماً في المسجد جلوساً ونفر من المهاجرين والأنصار، فأرسلنا رجلاً إلى عائشة ليستأذن، فدخلنا عليها، قالت:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩١٣) وهو عند مسلم بلفظ قريب.



«دخل علي سائل مرة، وعندي رسول الله ﷺ، فأمرت له بشيء، ثم دعوت به فنظرت إليه، فقال رسول الله ﷺ: (أما تريدين أن لا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك)؟ قلت: نعم، قال: (مهلاً يا عائشة لا تحصي، فيحصي الله عز وجل عليك)[1].

إنه ﷺ لم ينكر عليها معرفتها كل ما يجري في بيتها، وإنما وجهها إلى عدم إحصاء ما تنفق في سبيل الله تعالى.

بل إنه ﷺ يقرر هذا الاهتمام بأمر البيت ويجعله من مسؤوليات المرأة. كما جاء في حديث بيان المسؤوليات والذي منه قوله ﷺ: (.. والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم)[2].

ومن الرعاية أن تبدي رأيها في زواج بناتها، وتشارك في اختيار الأصلح لهن، وذلك أدعى إلى الألفة بين البنات وأزواجهن إذا كان ذلك برضاء الأمهات وموافقتهن[3].

تلك هي جولة سريعة تبين فاعلية المرأة ومشاركتها في أمور بيتها وهو ميدانها الأول، والتي بصلاحها يصلح هذا الميدان.

وقد أثنى ﷺ على نساء قريش بصفتين، لو لم يكن للمرأة إلا المشاركة بهما لكفاها ذلك أداء لمهمتها، فقال: (خير نساء - ركبن الإبل - صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)[4].

مشاركة أمهات المؤمنين في الأمور العامة:

كان رسول الله ﷺ أعظم رجل فاعل في التاريخ، وكانت الأحداث

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٢٥٤٨).

(٢) متفق عليه (خ ٧١٣٨، م ١٨٢٩).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٩٥). قوله ﷺ: (آمروا النساء في بناتهن) وقال الألباني: ضعيف.

(٤) متفق عليه (خ ٥٠٨٢، م ٢٥٢٧).



عظيمها وصغيرها ترجع إليه ليعطي رأيه فيها، وكانت بيوت أزواجه قريباً من المسجد، مما جعلهن قريباً من مسرح العمليات ـ إن صح التعبير ـ فكنَّ على علم بالأمور أول فأول.

وينقل لنا الإمام مسلم صورة من اهتمامهن ومشاركتهن، فها هي أم سلمة رضي الله عنها في بيتها، تقول: «بينما الجارية تمشطني، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: (أيها الناس) فقلت للجارية: استأخري عني، قالت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء. فقلت، إني من الناس..»(١).

وهكذا تسرع رضي الله عنها لتشارك، وهي لا تعلم ما الذي سوف تسمعه، ولكنها سمعته ﷺ يقول: (أيها الناس) وهي رضي الله عنها من الناس. وهذا هو الفقه.

وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه، فمن خرج سهمها انطلقت معه في سفره، وربما أخرج معه أكثر من واحدة بعض الأحيان، الأمر الذي جعلهن على صلة مستمرة بالواقع العام، في حال المقام وفي السفر، في السلم وفي الحرب.

وقد كانت هذه المشاركات فاعلة في كثير من الأحيان، ولنذكر بعض الأمثلة على ذلك:

● كانت خديجة رضي الله عنها سنداً للرسول ﷺ منذ اليوم الأول الذي نزل عليه الوحي فيه، فكانت تقف إلى جانبه وتؤيده، وكان مركزها الاجتماعي في مكة يساعدها على ذلك، فكانت في هذا الجانب لا تقل عن عمه أبي طالب، وقد شاركته دخول الشعب وبذلت من أموالها الكثير في سبيل التخفيف عن المسلمين في ذلك الحصار الاقتصادي.

وقد شعر ﷺ بذلك الفراغ الذي تركته بعد موتها ـ هي وعمه أبو طالب ـ حتى سمي ذلك العام عام الحزن.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٩٥).

● وينقل لنا أنس رضي الله عنه مشاهد مما حدث يوم أحد ومن ذلك . . «ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما المشمرتان، أرى خدم[(١)] سوقهما، تنقزان[(٢)] القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان، فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم . . »[(٣)].

● وقد سبق في ترجمة أم سلمة رضي الله عنها، ذكر مشورتها على النبي ﷺ حينما أمر أصحابه بالحلق والتحلل، فلم يفعلوا، وكان ما أشارت به فيه الخير، الذي رد الصحابة إلى صوابهم فسارعوا إلى تنفيذ الأمر.

● وفي حجة الوداع يدخل ﷺ على عائشة رضي الله عنها وهو غضبان ليذكر لها تردد الناس فيما أمرهم به.

قالت عائشة رضي الله عنها: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس، فدخل عليَّ وهو غضبان، فقلت: من أغضبك، يا رسول الله!؟ أدخله الله النار، قال: (أو ما شعرتِ أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون[(٤)]؟ ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي معي حتى أشتريه، ثم أحل كما حلوا)[(٥)].

إنه ﷺ أصابه همّ عظيم بسبب عدم مبادرة أصحابه لتنفيذ ما أمرهم به، فلم يجد إلا أن يدخل على عائشة يخفف من همه بذكر ما حدث.

تلك نماذج تبين مشاركة أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في الأمور العامة وفي مجالاتها المتعددة.

---

(١) خدم: جمع خدمه، وهي الخلخال.
(٢) تنقزان: تسرعان المشي كالهرولة، والنقز: الوثب.
(٣) متفق عليه (خ ٤٠٦٤، م ١٨١١).
(٤) أمر رسول الله ﷺ كل من لم يسق معه الهدي: أن يطوف ويسعى ويتحلل من احرامه ويجعلها عمرة، وهو ما يعرف بالتمتع، وكان شيئاً جديداً بالنسبة لهم فتباطؤوا قليلاً بالامتثال.
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج برقم (١٣٠).



ولكن . . ساعة وساعة:

هكذا قال رسول الله ﷺ لحنظلة، عندما شكى إليه ملاعبته للأزواج والأولاد وعدم مداومته على الذكر . . (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)[1].

واللهو والمرح والمزاح أمر ضروري في الحياة، فهو كالملح للطعام، شيء ضروري، القليل منه يؤدي الغرض، فإذا كثر أفسد الطعام.

وهكذا لم تخل حياته ﷺ من ذلك سواء أكان بين أهله أم بين أصحابه. ولنذكر بعض الأمثلة مما يخص أهله:

● فعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجليَّ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: (هذه بتلك السبقة)[2] وقوله ﷺ: (هذه بتلك) إنما هو من باب تطييب خاطرها حين سبقها.

● وعن عائشة قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: (دعهما) فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: (تشتهين تنظرين)؟ فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول (دونكم يا بني أرفده) حتى إذا مللت قال: (حسبك)؟ قلت: نعم. قال: (فاذهبي)[3].

● كان رسول الله ﷺ في سفر، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال، وكان أنجشة يحدو بالنساء ـ وأنجشة غلام للنبي ﷺ حسن الصوت ـ وفي

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٦٨) وابن ماجه برقم (١٩٧٩) وأحمد (٦/ ٣٩) وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٤٩، ٩٥٠) ومسلم برقم (٨٩٢).



النساء بعض أزواج النبي ﷺ وأم سليم، فاشتد بهن في السوق، فقال له النبي ﷺ: (ويحك يا أنجشة، رويدك سوقك بالقوارير)[1].

وهذه كلمة في غاية الدقة والحسن، حيث شبه النساء بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف التحمل.

نكتفي بهذه النماذج التي تبين هذا الجانب مع حياته ﷺ مع أمهات المؤمنين.

صبره ﷺ عليهن:

كان ﷺ واسع الصدر، فاحتمل من زوجاته الكثير، وقد كانت الغيرة بينهن تشغل حياتهن، وقد مرت بنا بعض هذه الصور.

وهن بشر من البشر، وكنَّ يتعاملن معه زوجاً بشراً، وربما وصلت مضايقتهن له بعض الأحيان حداً يتجاوز الحدود، وهو ما حصل يوم آلى منهن[2].

ولا شك بأن صبره عليهن ـ اضافة إلى مسؤولياته التي لا حصر لها ـ يعد من عظمة سلوكه ﷺ.

وكان ﷺ يتحمل ذلك طالما هو في حدود التعامل ضمن الأسرة، فإذا خرج عن هذا الإطار، فإنه ﷺ لا يسكت على باطل.

ولنقف أمام بعض الأمثلة على ذلك.

- قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خباء، فيصلي الصبح، ثم يدخله، فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباء فأذنت لها، فضربت خباء، فلما رأته زينب

---

(١) أخرج البخاري ومسلم حديث أنجشة (خ ٦١٤٩، م ٢٣٢٣) وذكر أمر البراء الطيالسي. وانظر فتح الباري، عند شرح الحديث.

(٢) انظر بيان ذلك في «من معين السيرة» للمؤلف ص (٤٦٥).

بنت جحش ضربت خباء آخر، فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية، فقال: (ما هذا)؟ فأخبر، فقال النبي ﷺ: (آلبر تردن بهن)؟ فترك الاعتكاف ذلك الشهر. هذه رواية الشيخين(١).

وفي رواية أبي داود قالت: أراد النبي ﷺ مرة أن يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، قالت: فأمر ببنائه فضرب، فلما رأيت ذلك أمرت ببنائي فضرب، قالت: وأمر غيري من أزواج النبي ﷺ ببنائه فضرب، فلما صلى الفجر نظر إلى الأبنية فقال: (ما هذه؟ آلبر تردن)؟ قالت: فأمر ببنائه فقوض، وأمر أزواجه بأبنيتهن فقوضت..(٢).

إن العبادة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى، ولا يكون الباعث عليها الغيرة، ولذلك كان استفهامه ﷺ استفهام إنكار (آلبر تردن)؟ إن هذا الميدان لا ينبغي أن تدخله اعتبارات أخرى تذهب به عن ميدان الإخلاص.

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)(٣).

وهذا ميدان آخر لا ينبغي أن يكون مسرحاً للغيرة، وذلك لما فيه من الاستهزاء والسخرية، في أمر لا كسب فيه للإنسان إذ هو من خلق الله عز وجل.

● وأخرج الإمام أحمد من حديث صفية: أن رسول الله ﷺ حج بنسائه.. فلما كانوا في الطريق برك جمل صفية بنت حيي. فقال رسول الله ﷺ لزينب بنت جحش: (يا زينب، أفقري(٤) أختك صفية جملاً) وكانت من أكثرهن

---

(١) متفق عليه (خ ٢٠٣٣، م ١١٧٢).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٤٦٤).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٧٥).
(٤) أفقري: أي أعيريها جملاً.

ظهراً، فقالت: أنا أفقر يهوديتك؟ فغضب النبي ﷺ حين سمع ذلك منها، فهجرها فلم يكلمها حتى قدم مكة، وأيام منى في سفره، حتى رجع إلى المدينة، والمحرم وصفر، فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه، فلما كان شهر ربيع الأول، دخل عليها[١]..

وهذا من الإثم العظيم، أن يوصف الإنسان بالكفر بعد إسلامه، ولذلك استحقت زينب عقوبة الهجر. فقد قال ﷺ: (لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك)[٢].

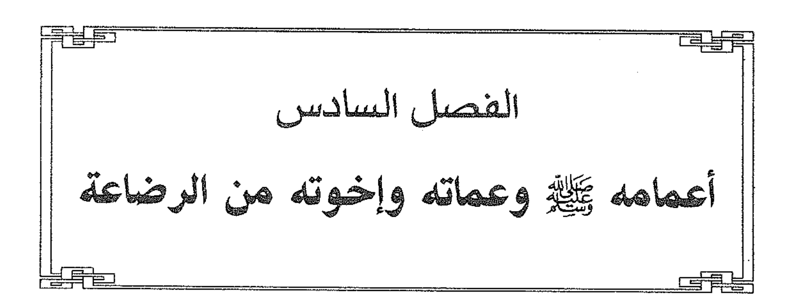
تلك نماذج من السلوك الذي لم يسكت عليه ﷺ ولم يسعه صبره، لأنه يخرج عن الإطار المسموح للغيرة أن تلجه، فكان من تصرفه ما رأينا، لكل موقف ما يتناسب معه من اللوم أو البيان، أو العقوبة.

هذه مشاهد من حياة الرسول ﷺ في بيوته ومع زوجاته أمهات المؤمنين تبين لنا مسلكه إزاء كل موقف من المواقف. نلمح من خلالها كيف كان خير الناس لأهله كما قال ﷺ.

---

(١) الفتح الرباني للبنا (٢٢/ ١٤٣-١٤٤) وقال البنا: سنده جيد.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٤٥).





الفصل السادس

أعمامه ﷺ وعماته وإخوته من الرضاعة

الأعمام:

هم بنو عبد المطلب، والمتفق عليهم: تسعة والعاشر والده ﷺ عبدالله. حمزة، والعباس، أبو طالب واسمه عبد مناف، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والزبير، وضرار، والمقوم، والمغيرة، والغيداق واسمه مصعب، والحارث.

وزاد بعضهم: عبد الكعبة، وقيل هو المقوم.

وزاد بعضهم: جحلاً، وقيل هو المغيرة.

وزاد بعضهم: قثماً.

ولم يسلم منهم إلا حمزة والعباس رضي الله عنهما.

أما حمزة ـ أسد الله وأسد رسوله، سيد الشهداء ـ فقد كان إسلامه في العام السادس من البعثة، قبل إسلام عمر رضي الله عنه بثلاثة أيام.

وقد هاجر إلى المدينة، وشارك في غزوة بدر، كما شارك بعدها في غزوة أحد، وقد استشهد فيها، قتله وحشي بحربة سددها إليه عن بعد.

وقد مثل به، ووقف عليه ﷺ فقال: لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ لي من هذا.

ودفن هو وابن أخته عبدالله بن جحش في قبر واحد[1].

---

(١) انظر في قصة إسلامه واستشهاده كتاب (من معين السيرة) ص (٦٦، ٢٣٥، ٢٣٩).



وأما العباس: فقد تأخر إسلامه، وكانت له مواقف إلى جانب النبي ﷺ فقد حضر يوم العقبة، حين عقدﷺ البيعة على الأنصار، وتكلم يومئذٍ.

وقد أخرج مكرهاً يوم بدر، حيث كان في صف المشركين، وأسره المسلمون يومئذٍ، ثم فادى نفسه ورجع إلى مكة.

وقد أعلن إسلامه قبل فتح مكة، وخرج مهاجراً إلى المدينة، فالتقى بالنبي ﷺ في الجحفة، فأرسل بأهله إلى المدينة، ورجع مع النبي ﷺ ليشارك في فتح مكة، وقد ختمت الهجرة بالعباس حيث لا هجرة بعد الفتح.

توفي العباس رضي الله عنه في خلافة عثمان رضي الله عنه، قبل مقتله بسنتين بالمدينة.

العمات:

وأما عماته ﷺ بنات عبد المطلب، فجملتهن ست: صفية أم الزبير بن العوام، وعاتكة، وبرَّة، وأروى، وأميمة، والبيضاء وهي أم حكيم.

وقد اختلف في إسلام عاتكة وأروى.

ولا خلاف في إسلام صفية. وقد هاجرت، وقتلت رجلاً من اليهود يوم الخندق.. وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين. ودفنت بالبقيع. رضي الله عنها.

إخوته من الرضاعة:

وأما إخوته من الرضاعة فمنهم: حمزة ـ عمه ﷺ ـ وأبو سلمة بن عبد الأسد أرضعتهم ثويبة جارية أبي لهب.

قال البلاذري: أرضعته ﷺ أياماً قلائل، قبل أن تأخذه حليمة، وأرضعت قبله حمزة، وبعده أبا سلمة(١).

---

(١) حاشية الزرقاني على المواهب (٣/ ٢٩٣).



وقد قال ﷺ في بنت حمزة: (لا تحل لي هي ابنة أخي من الرضاعة)(١).

وقال في حق ابنة أم سلمة: (إنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة)(٢).

ومنهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. أرضعته ورسول الله ﷺ حليمة السعدية مع أولادها: عبدالله، وآسية وجدامة وتعرف بالشيماء(٣).

حاضنته ﷺ:

وكانت حاضنته ﷺ أم أيمن، بركة بنت ثعلبة بن حصن، غلبت عليها كنيتها، وكنيت باسم ابنها أيمن ابن عبيد، وهي أم أسامة بن زيد، تزوجها زيد بعد عبيد بن زيد بن الحارث الخزرجي زوجها السابق.

أسلمت قديماً وهاجرت الهجرتين: إلى أرض الحبشة وإلى المدينة(٤).

وكان ﷺ يزورها، وكانت تدل عليه. فقد أخرج مسلم عن أنس قال: انطلق رسول الله ﷺ إلى أم أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب قال: فلا أدري أصادفته صائماً، أو لم يرده، فجعلت تصخب عليه، وتذمَّر عليه(٥).

وكانت أم أنس أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً، فأعطاهن النبي ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد، فلما انصرف ﷺ من خيبر أمر أن يرد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم، فجاء أنس يطلب ذلك من أم أيمن،. قال أنس: فجاءت

(١) متفق عليه (خ ٢٦٤٥، م ١٤٤٧).
(٢) متفق عليه (خ ٥٣٧٢، م ١٤٤٩).
(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني. تحقيق المؤلف (٢/ ١١٦).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١١٧).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٣).



أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلا والذي لا إله إلا هو، لا يعطيكهم وقد أعطانيها، والنبي ﷺ يقول: (لك كذا) وتقول: كلا والله، حتى أعطاها عشرة أمثاله[1].

ولهذه الدالة التي كانت لها على رسول الله ﷺ كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يزورانها بعد وفاته ﷺ[2].

ويلخص لنا ابن شهاب ـ كما في مسلم ـ ترجمة أم أيمن فيقول:

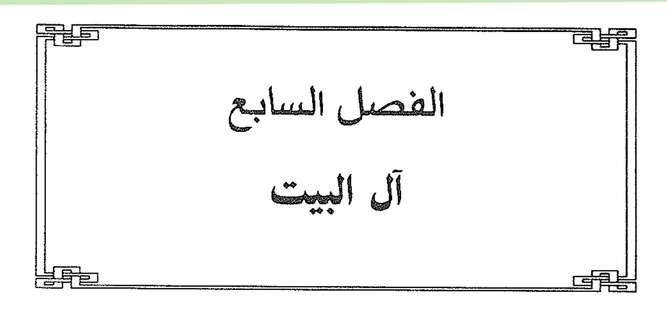
وكان من شأن أم أيمن ـ أم أسامة بن زيد ـ أنها كانت وصيفة لعبدالله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه، حتى كبر رسول الله ﷺ فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر، رضي الله عنها[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٣٠، ٤١٢٠) وبعضه عند مسلم برقم (١٧٧١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٥٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٧٧١).







الفصل السابع

آل البيت

التعريف بآل البيت:

قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[1].

لا خلاف بأن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت لأنهن سبب نزول الآية.

وهل الآية قاصرة على نسائه ﷺ أم هي عامة، يدخل فيها معهن غيرهن؟.

ذهب عكرمة إلى أنها خاصة في نسائه ﷺ وسبقه إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنه.

والقول الأصح ـ وهو ما ذهب إليه عامة العلماء ـ أنها يدخل فيها غير نساء النبي ﷺ بدلالة الأحاديث الكثيرة الواردة في ذلك نذكر منها:

أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٣٢، ٣٣).



فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وأخرج مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص قال: ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: (اللهم هؤلاء أهلي)[2].

وبناء على هذين الحديثين وغيرهما كثير[3] فإن علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً رضي اللهم عنهم داخلون في الآية بنص قول رسول الله ﷺ.

وهناك أحاديث أخرى توسع دائرة مفهوم (آل البيت) وردت بشأن الصدقة.

ففي حديث البخاري عن أبي هريرة: أن الرسول ﷺ أخرج تمرة من تمر الصدقة من فم الحسن أو الحسين وقال: (أما علمت أن آل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة)[4].

وبناء على هذا الحديث فكل من منع من أكل الصدقة من قرابة النبي ﷺ يدخلون تحت هذا المصطلح.

وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم. ففي حديث غدير خم الذي يرويه مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، بماء يدعى خما، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: (أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٢٤)، والمرحل: الموشى المنقوش عليه صور رحال الإبل.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٤)، والآية من سورة آل عمران، رقم (٦١).
(٣) وهناك أحاديث كثيرة في هذا الصدد، انظرها في تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة.
(٤) أخرجه البخاري برقم (١٤٨٥).

والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: (وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي).

فقال حصين بن سبرة لزيد وهو يسمع منه هذا الحديث: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[1].

ومما هو معلوم أن الذين حرموا الصدقة عوضوا عنها الخمس، وهم بنو هاشم وبنو المطلب.

فعن جبير بن مطعم قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول لله ﷺ: (إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد)[2].

وفي حديث مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: اجتمع ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، والعباس بن عبد المطلب، فقالا: والله لو بعثنا هذين الغلامين ـ قالا: لي وللفضل بن العباس ـ إلى رسول الله ﷺ فكلماه، فأمَّرهما على هذه الصدقات، فأديا ما يؤدي الناس، وأصابا مما يصيب الناس، قال: فبينما هما في ذلك جاء علي بن أبي طالب، فوقف عليهما، فذكرا له ذلك. فقال علي بن أبي طالب: لا تفعلا. فوالله ما هو بفاعل. فانتحاه ربيعة بن الحارث فقال: والله ما تصنع هذا إلا نفاسة منك علينا، فوالله لقد نلت صهر رسول الله ﷺ فما نفسناه عليك.

قال علي: أرسلوهما، فانطلقا، واضطجع علي.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٨).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٤٠).

قال: فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سبقناه إلى الحجرة، فقمنا عندها، حتى جاء فأخذ بآذاننا، ثم قال: (أخرجا ما تصرران) ثم دخل ودخلنا عليه، وهو يومئذٍ عند زينب بنت جحش.

قال: فتواكلنا الكلام، ثم تكلم أحدنا فقال: يا رسول الله، أنت أبر الناس وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاح، فجئنا لتؤمِّرنا على بعض هذه الصدقات، فنؤدي إليك كما يؤدي الناس، ونصيب كما يصيبون.

قال: فسكت طويلاً، حتى أردنا أن نكلمه. قال: وجعلت زينب تلمع علينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه. قال: ثم قال: (إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس. ادعوَا لي محمية ـ وكان على الخمس ـ ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب) قال: فجاءاه، فقال لمحمية: (أنكح هذا الغلام ابنتك) للفضل بن عباس، فأنكحه، وقال لنوفل بن الحارث: (أنكح هذا الغلام ابنتك) لي. فأنكحني، وقال لمحمية: (أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا)(١).

نخلص من هذا إلى أن مصطلح (آل البيت) يدخل فيه أزواج النبي ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم.

وأن مصطلح (آل محمد) يدخل فيه من لا تحل لهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب وهم ذوو القربى الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾(٢) قال ابن كثير في تفسيره: وقول جمهور العلماء: إنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

وصيته ﷺ بآل البيت:

وردت عنه ﷺ أحاديث كثيرة يذكِّر فيها أمته ويوصيها بآل بيته خيراً، منها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٧٢).
(٢) سورة الأنفال، الآية (٤١).

ما سبق ذكره قبل قليل من حديث مسلم قوله ﷺ: (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي).

ومنها ما سبق ذكره عند الحديث عن أولاده ﷺ.

ومنها ما أخرجه أحمد عن زيد بن ثابت مرفوعاً:

(إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي وأنهما لا يفترقا حتى يردوا على الحوض)[١].

وفي البخاري عن ابن عمر عن أبي بكر قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته[٢] وقال أبو بكر أيضاً: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي[٣].

وما قول أبي بكر إلا التأكيد لما فهمه من رسول الله ﷺ في هذا الشأن، والبيان العملي لما ينبغي أن يكون عليه سلوك المؤمن من حب آل البيت رضي الله عنهم.

هل خصَّهم النبي ﷺ بعلم؟

جاء رسول الله ﷺ مبلغاً شريعة الله تعالى للناس كافة، فلم يخص أحداً بشيء لم يبلغه للناس[٤]، ولكن بعض الناس من جيل التابعين ظن ذلك فقام علي رضي الله عنه يبين ذلك في أكثر من موطن.

ففي الحديث المتفق عليه عن علي رضي الله عنه قال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة. قال: فأخرجها، فإذا فيها أشياء من

---

(١) الفتح الرباني (٢٢/ ١٠٤) وقال البنا: إسناده جيد.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٧١٣).

(٣) متفق عليه (خ ٤٢٤٠، م ١٧٥٩).

(٤) أما ما خص به ﷺ حذيفة بن اليمان من الإسرار إليه بأسماء المنافقين. فذلك أمر لا يتوقف عليه تشريع، وقد مضى بمضي أصحابه.



الجراحات وأسنان الإبل. قال: وفيها (المدينة حرام ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل. ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل. وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل)[١].

وفي البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء، من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر[٢].

بل إنْ هذا السؤال كان يثير غضب علي رضي الله عنه، وذلك لجهل السائل بأمر يتعارض مع عموميات الشريعة وما جاء به ﷺ. فقد قال أبو الطفيل: كنت عند علي بن أبي طالب، فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يسرُّ إلي شيئاً يكتمه الناس[٣].

هل أوصى ﷺ لأحد؟

مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ لم يقل في حياته ما يستفاد منه أنه أوصى أو عهدَ لعلي أو غيره من آل بيته وقرابته بالخلافة من بعده.

يؤكد هذا القول تأكيداً جازماً الحوار الذي جرى بين العباس وعلي رضي الله عنهما أثناء مرضه ﷺ.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٧٥٥، م ١٣٧٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٠٤٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨).



ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت ـ والله ـ بعد ثلاث عبد العصا[(١)]، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألنا رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ[(٢)].

هذا الحوار يسجل لنا الحقائق الآتية:

١ ـ الزمن الذي جرى فيه، وهو إبان المرض الذي توفي فيه رسول الله ﷺ.

٢ ـ أنه ﷺ قبل هذا الحوار ـ أي طول حياته ـ لم يقل شيئاً يستفاد منه تصريحاً أو تلميحاً أن الخلافة لعلي، إذ لو كان شيء من هذا، لذكره علي للعباس رضي الله عنهما، ولو كان هناك شيء يعلمه العباس لما تعرض لعلي يطلب منه ما طلب.

٣ ـ ويستفاد أيضاً أنه ﷺ لو ذكر شيئاً يتعلق بهذا الشأن بعد حوار العباس مع علي لانتشر وتناقله الناس، وبخاصة أن النفوس متطلعة لما يقوله ﷺ في الساعات الأخيرة من حياته.

ولو أسدلنا الستار على حوار العباس لوجدنا من النصوص ما يؤكد غير ما رغب به رضي الله عنه.

---

(١) هو كناية عمن يصير تابعاً لغيره. أي أنت بعد ثلاثة أيام تصير مأموراً عليك.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٧).

فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حضر رسول الله ﷺ ـ وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب ـ قال النبي ﷺ: (هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده) فقال عمر: إن النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم يقول: قربوا يكتب لكم النبي ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (قوموا)(١).

وفي رواية، فقال: (دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه) وأوصاهم بثلاث قال: (اخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم) ونسي ابن عيينة ـ راوي الحديث ـ الثالثة(٢).

وهذا الحديث يؤكد أن الكتاب لم يكتب، سواء أكان يتعلق بشأن الخلافة، أم بغيرها.

بل هناك ما يؤكد أنه ﷺ كان عزم على كتابة عهد، ثم ترك الكتابة من تلقاء نفسه، دون أن يثنيه عن عزمه أحد.

فعن القاسم بن محمد قال: قالت عائشة: وارأساه، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك) فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك، لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك، فقال النبي ﷺ: (بل أنا وارأساه، لقد هممت ـ أو أردت ـ أن أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد، أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون. ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون)(٣).

تلك فقرة كان لا بدّ منها ونحن نتحدث عن آل البيت رضي الله عنهم.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٦٦٩، م ١٦٣٧).
(٢) متفق عليه (خ ٤٤٣١، م ١٦٣٧).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٦٦٦).



كلمة أخيرة:

ذكر القسطلاني في مواهبه: أن المأمون أراد أن يجعل الخلافة في بني فاطمة، فاتخذ لهم شعاراً وألبسهم ثياباً خضراً، ثم انثنى عزمه عن ذلك، فبقي ذلك اللباس شعاراً لهم، ولكنهم اختصروا ذلك إلى قطعة خضراء توضع على عمائمهم. ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن.

ثم قال: قال في حوادث سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من (أنباء الغمر بأنباء العمر) ـ لابن حجر ـ: وفيها أمر السلطان الأشرف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما.

والأشرف هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون[1].

أقول: وهذا التميز في اللباس، أمر ما كان ينبغي لهم أن يوافقوا عليه، لمخالفته للقواعد العامة في الإسلام، فما كان ﷺ متميزاً على أصحابه في شيء، حتى إن القادم إلى مجلسه ليسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ وما كان علي وأبناؤه ـ وهم الملتزمون بسنته ﷺ ـ يتميزون على الناس في شيء إلا كثرة الأعمال الصالحة.

نعم: لقد خصهم الله تعالى بمزية، وهي حرمانهم من مال الصدقة، وذلك تكريماً لهم لأنها أوساخ الناس، كما قال ﷺ.

وهذا يعني دفعهم إلى العمل والعطاء حتى يكونوا إيجابيين في الحياة، يدهم العليا، إذ اليد العليا خير من اليد السفلى كما قال ﷺ.

وبهذا يكون تميزهم بأعمالهم الخيرة الممتدة حولهم في الحياة الدنيا، وكذلك أعمالهم في العبادة التي تنعكس آثارها على أجسامهم ووجوههم، وبهذا يكونون قدوة للناس ويظلون في مكان الريادة الذي هو مكانهم.

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني (٣/ ٣٧٤).



وبهذا لن يكونوا بحاجة إلى لباس أو طراز يميزهم كما قال الشاعر:

جعلوا لأبناء الرسول علامة إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر[١]

تحذير:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢] قال:

(يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً.

يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً.

ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً.

ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[٣].

وفي رواية:

(يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

---

(١) الشاعر هو الأديب أبو عبدالله بن جابر الأندلسي. وانظر المرجع السابق.
(٢) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).
(٣) متفق عليه (خ ٢٧٥٣، م ٢٠٦).

يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها)[1].

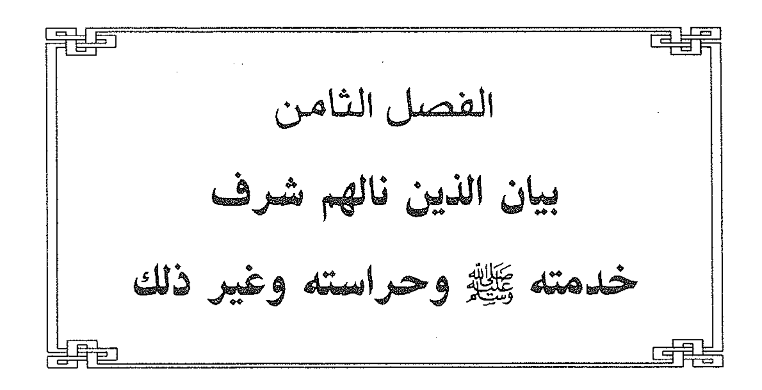
وفي رواية:

(يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً..)[2].

وقال ﷺ: (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤).
(٢) أخرجه الترمذي (٣١٨٥).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).



الفصل الثامن

بيان الذين نالهم شرف خدمته ﷺ وحراسته وغير ذلك

بعد أن تحدثنا عن أبنائه ﷺ وزوجاته وأعمامه، ناسب أن نتحدث عن خدمه ومن كان على شاكلتهم، ممن هم قريبو الصلة به ﷺ.

وحينما نتحدث في هذا الفصل عمن نالهم شرف خدمته أو حراسته أو غير ذلك فينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن تلك الصورة القائمة في بيوت الحكام والأمراء ومن كان على شاكلتهم، أولئك الذين جعلوا من الحراس والخدم وسيلة للفصل بينهم وبين الناس من جانب، وللترفع عليهم من جانب آخر.

وكلما كثر الحرس وكثر الخدم، كلما كان ذلك دليلاً على أبهة صاحب ذلك ورفعة مكانته.

كلا!! إننا ونحن نتحدث عن رسول الله ﷺ أمام صورة أخرى بعيدة كل البعد عما استقر في أذهان الناس. إنها صورة فريدة. يفخر فيها الخادم بخدمته والحارس بحراسته.

إننا أمام خدم وحرس.. لا يتناولون مقابل عملهم شيئاً من بيت مال المسلمين، ولا يثقلون خزينة الدولة بالأعباء.

إنهم متبرعون متطوعون، لم يكلفهم أحد بذلك، بل اختار كل منهم العمل الذي أحب أن يشارك فيه محبة واحتراماً وتقديراً ابتغاء وجه الله تعالى ورجاء دعوة صالحة من النبي الكريم ﷺ وأملاً في القرب منه والسعادة بالجلوس إليه.



صورة وضيئة، العلاقة فيها الحب، والأجر فيها الثواب في الآخرة، والسعادة الروحية في الحياة الدنيا.

وفي ظل هذا المعنى نتحدث بشكل مجمل عن بعض من نالهم هذا الشرف رضي الله عنهم.

الذين نالهم شرف الخدمة:

● فمنهم: أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي. جاءت به أمه إلى النبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة، وقدمت ابنها ليكون خادماً له.

قال أنس: جاءت بي أمي ـ أم أنس ـ إلى رسول الله ﷺ، وقد أزرتني بنصف خمارها، وردتني بنصفه، فقالت: يا رسول الله، هذا أنيس، ابني، أتيتك به يخدمك، فادع الله له. فقال: (اللهم أكثر ماله وولده)[١].

وقد خدم النبي ﷺ عشر سنين، وأسلم وهو صغير، وصلى إلى القبلتين وشهد بدراً، ولكنه لم يذكر في البدريين لأنه لم يكن في سن من يقاتل[٢].

رحل إلى دمشق بعد وفاة الرسول ﷺ، ومنها إلى البصرة. وتوفي فيها سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وهو آخر من مات من الصحابة في البصرة.

● ومنهم: عبدالله بن مسعود الهذلي، وكان صاحب الوسادة والسواك والنعلين، والطهور. وكان يلي ذلك من النبي ﷺ.

أحد أئمة الصحابة، هاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعدها.

توفي بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة رضي الله عنه.

● ومنهم: عقبة بن عامر الجهني، وكان صاحب بغلته يقود به في الأسفار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٨١).
(٢) شرح الزرقاني على المواهب (٣/٢٩٦).





● ومنهم: أسلع بن شريك، صاحب راحلته.

● ومنهم: أيمن ابن أم أيمن، وكان صاحب مطهرته، استشهد يوم حنين.

● ومنهم: بلال بن رباح مؤذنه ﷺ.

وقد حظي كثير غيرهم - رضي الله عن الجميع - ببعض خدمته ﷺ.

حرسه ﷺ:

لم يكن للنبي ﷺ حرس، يقومون بحراسته بشكل دائم، وإنما هي مواقف معينة اقتضت ذلك، وكان الصحابة رضي الله عنهم، هم الذين يقدرون هذه المواقف فينبعثون من تلقاء أنفسهم بالقيام بهذه المهمة، دون أن يكلفوا بها.

● فمنهم أبو بكر الصديق وسعد بن معاذ - رضي الله عنهما - كانا في حراسته يوم بدر وهو في العريش.

● ومنهم محمد بن مسلمة حرسه يوم أحد.

● ومنهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حرسه ليلة بعد الهجرة. ففي الحديث المتفق عليه قالت عائشة: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: (ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة) قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة سلاح. فقال: (من هذا) قال: سعد بن أبي وقاص. فقال له رسول الله ﷺ: (ما جاء بك؟) قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ. ثم نام[(١)].

● ومنهم الزبير بن العوام، حرسه يوم الخندق.

● ومنهم المغيرة بن شعبة، الذي وقف على رأس النبي ﷺ بالسيف يوم الحديبية.

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم (خ ٧٢٣١، م ٢٤١٠).





● ومنهم قيس بن سعد بن عبادة، الذي كان من رسول الله ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير(١).

مواليه ﷺ:

وهم الأرقاء الذين أعتقهم النبي ﷺ فأصبح ولاؤهم له.

قال الإمام النووي: اعلم أن هؤلاء الموالي لم يكونوا موجودين في وقت واحد للنبي ﷺ، بل كان كل شخص منهم في وقت(٢).

والذي نحب أن نلفت إليه النظر، أن الرسول ﷺ قلما كان يحتفظ بالأرقاء بل كان يسارع إلى إعتاقهم، بل ربما اشترى الرقيق ليخلصه من الرق ثم يعتقه.

وهكذا أصبح هؤلاء يخدمون الرسول ﷺ ولا يبتعدون عنه على الرغم من الحرية التي أصبحوا فيها بعد عتق رسول الله ﷺ لهم.

ونذكر منهم بياناً لما قلنا، على سبيل المثال.

● زيد بن حارثة وهبته خديجة للرسول ﷺ فأعتقه.

● أبو رافع وهبه العباس رضي الله عنه للنبي ﷺ فأعتقه.

● ثوبان من مذحج أصابه سبي في الجاهلية، فاشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه، وخيره بين أن يرجع إلى قومه، وبين أن يبقى في المدينة، فأقام على ولائه لرسول الله ﷺ لم يفارقه حضراً ولا سفراً.

● ضمرة بن أبي ضمرة، أصابه سبي في الجاهلية، فاشتراه ﷺ وأعتقه.

● أبو مويهبة، من مولدي مزينة، اشتراه ﷺ فأعتقه.

وذهب بعضهم يعد من مواليه ﷺ من ليس منهم ونذكر على سبيل المثال من ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٥٥).

(٢) شرح المواهب اللدنية للزرقاني (٣/ ٣٠٥).



● سلمان الفارسي: وقصته معروفة خلاصتها أنه كان في طريقه إلى المدينة مع تجار من قبيلة كلب، فاعتدوا عليه وباعوه من يهودي في يالمدينة، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ورأى ما فيه سلمان، طلب منه أن يكاتب سيده، وقد فعل، فقام الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بمساعدته في أداء هذه المكاتبة.

● سفينة، وكان مولى لأم سلمة، فأعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ، فقبل ذلك وقال: لو لم تشترطي علي ما فارقته.

● أبو بكرة، وهو الذي تدلى مع جماعة من الأرقاء من سور الطائف يوم حصارها، فأعتقهم رسول الله ﷺ وأطلق عليهم اسم «عتقاء الله»[1].

والذي نريد قوله في هذا الموضوع، أن الأرقاء الذين آلت حالهم إلى رسول الله ﷺ قد وصلوا إليه عن أحد طريقين:

- إما الشراء وكان ﷺ يشتري ليعتق، لا ليحتفظ بهم.

- وإما عن طريق الهبة التي يتقدم بها أصحابه إليه، وكانوا أيضاً يعتقون.

وليس بين أيدينا ما يدل على أنه ﷺ احتفظ بالأرقاء ولو فترة وجيزة، فلم يذكر أنه كان لهم مكان يقطنون فيه قريباً من النبي ﷺ ومن واجب مالك العبد أن يؤمن له السكن.

كما لا نجد أي نص يدل على أنه ﷺ فعل يوماً ما يفعله مالكو الرقيق، من مخارجتهم واتفاقه معهم على خرج معلوم يؤدونه. وتكون لهم الحرية في سكنهم وعيشهم.

أما ما كان من الرقيق الذي يتبع الخمس ويكلف برعي إبل الصدقة وما شابه ذلك، فلم يكن هذا لرسول الله ﷺ، وإنما مآله للصدقة أو الخمس.

---

(١) انظر في هذا الموضوع: البداية والنهاية لابن كثير (٥/ ٣١١-٣٢٥)، وزاد المعاد (١/ ١١٤-١١٦).



كتابه ﷺ :

كان ﷺ كلما نزلت آيات من القرآن الكريم أمر بكتابتها، وقد كان هذا مع بدء نزول الوحي، فقد كان المسلمون الأوائل يتداولون هذه الصحف سراً.

ولما انتقل إلى المدينة، كان بحاجة إلى كتابة العقود والعهود، وكتابة الرسائل إلى الملوك والأمراء، وغير ذلك...

وقد كان يقوم بهذه المهمة عدد من الصحابة رضي الله عنهم، منهم:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وعبدالله بن الأرقم، وثابت بن قيس، وحنظلة بن الربيع، والمغيرة بن شعبة، وعبدالله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص.

وأخصهم بهذا الشأن وألزمهم له: زيد بن ثابت رضي الله عنهم جميعاً[١].

مؤذنوه ﷺ :

أذن له ﷺ أربعة: اثنان في المدينة، وواحد في مكة، وواحد في قباء وهم:

● بلال بن رباح. وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ. ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء.

ولما فتح المسلمون بيت المقدس وقدم إليها عمر رضي الله عنه. طلب من بلال أن يؤذن بهذه المناسبة ففعل.

قال أسلم ـ مولى عمر ـ: فلم أر باكياً أكثر من يومئذٍ[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٥/٣٣٩) وما بعدها، وزاد المعاد (١/١١٧).
(٢) المواهب اللدنية (٢/ ١٦٠).

وتوفي بلال رضي الله عنه في دمشق سنة ثماني عشرة[1].

- عمرو بن أم مكتوم القرشي، هاجر إلى المدينة قبل النبي ﷺ.
- وأذن بمكة أبو محذورة، واسمه أوس بن مغيرة الجمحي. وقد تولى هذه المهمة في فتح مكة، وقد ألقى عليه النبي ﷺ الأذان وعلمه إياه.

فكان المؤذن في مكة حتى مات وتوارث عقبه ذلك من بعده[2].

- وأذن له ﷺ بقباء سعد القرظ، مولى عمار بن ياسر.

الخطباء والشعراء:

كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ شهد أحداً وما بعدها من المشاهد وقتل يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر[3].

وأمّا شعراؤه ﷺ الذين كانوا يذبون عن الإسلام فهم:

كعب بن مالك.

وعبدالله بن رواحة.

وحسان بن ثابت.

وكان أشدهم في ذلك حسان. فقد أخرج مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: (اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل). فأرسل إلى ابن رواحة فقال: (اهجهم) فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم. فقال رسول الله ﷺ: (لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يلخص

---

(١) فتح الباري (٧/ ٩٩).
(٢) شرح الزرقاني على المواهب (٣/ ٣٧١).
(٣) أسد الغابة (١/ ٢٧٥).

لك نسبي). فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: (إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله).

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (هجاهم حسان فشفى واشتفى)[١].

حداته ﷺ:

وهم الذين كانوا يحدون بين يديه ﷺ في السفر.

- منهم عبدالله بن رواحة، وهو الذي كان يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ في عمرة القضاء عند دخوله مكة.
- ومنهم: عامر بن الأكوع، وكان الحادي في غزوة خيبر واستشهد فيها[٢].
- ومنهم: سلمة بن الأكوع وكان الحادي في العودة من خيبر[٣].
- ومنهم: أنجشة، قال أنس: كان للنبي ﷺ حاد يقال له أنجشة، وكان حسن الصوت، فقال له النبي ﷺ: (رويدك يا أنجشة، لا تكسر القوارير)[٤] يعني ضعفة النساء.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٠).
(٢) متفق عليه (خ ٤١٩٦، م ١٨٠٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٠٢).
(٤) متفق عليه (خ ٦٢١١، م ٢٣٢٣).







المقصد الثاني

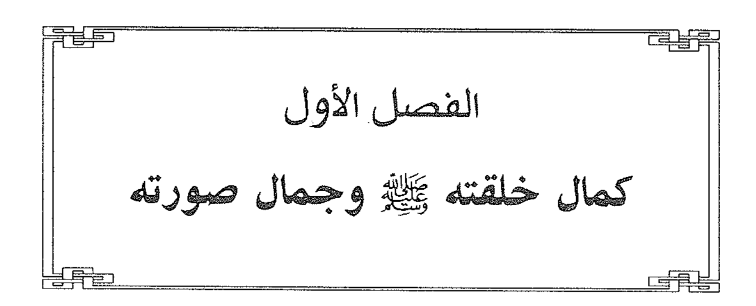
صِفَةُ النَّبيِّ ﷺ وهَيْئَتُهُ











الفصل الأول

كمال خلقته ﷺ وجمال صورته

جرت عادة كتَّاب الشمائل أن يبدؤوا حديثهم بذكر أوصاف جسم الرسول ﷺ ومحاولة رسم صورته من خلال هذه الأوصاف.

ونحب أن لا نخرج على ما جروا عليه. وإن كنا سنضيق مساحة هذا الجانب من البحث، ونكتفي بالقدر الذي لا بد منه، ومن خلال الأحاديث الصحيحة.

قلَّة الواصفين له ﷺ:

كثير هم رواة الحديث من صحابة رسول الله ﷺ، ولكنا عندما نقف أمام هذا الموضوع يتبين لنا قلة الذين شاركوا فيه. ونستطيع إرجاع ذلك إلى عدة أسباب:

منها: انصرافهم إلى نقل قوله وفعله ﷺ فيما يرتبط به حكم شرعي. وليس شيء من ذلك متعلق بوصفه ﷺ. فلم يعيروا هذا الجانب اهتمامهم، ومالهم يفعلون ذلك والرسول ﷺ بينهم. ويستطيع كل منهم أن ينظر إليه.

ولذلك لا نجد وصفه أمراً مقصوداً لهم بل هو يأتي عرضاً ضمن حديثهم، ولم نجد حديثاً صحيحاً استوفى هذا الغرض بكامله. رواه صحابي واحد، بل هي أحاديث كثيرة فيها الكلمة والكلمتان..

ومنها: الهيبة التي كان يتمتع بها ﷺ في نفوس أصحابه، فهم قريبون منه جداً، من حيث المكان، ولكن فاصل الهيبة يحجزهم عنه، الأمر الذي كان يحول دون القيام بمهمة الوصف كما ينبغي أن تكون.





ويسجل لنا هذه الحقيقة عمرو بن العاص رضي الله عنه، إذ يقول: «وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ. ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه، ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه»(١).

وذلك هو واقع كل صحابي، رضي الله عنهم.

ومنها: صعوبة الوصف، فإنه لم يكن للكلمة، مهما بلغ قائلها، أن تكون قادرة على وصف جسم الإنسان إلا وصفاً مجملاً، لما بين الأجسام من تفاوت، ولنضرب مثلاً لذلك: فهناك الطويل، والقصير، والمتوسط، هذا في جانب وصف الطول، ولكن الطويل نفسه فئات، والقصير كذلك، والمتوسط كذلك.

ولنقس على ذلك بياض اللون، وكحل العينين، واستدارة الوجه.. فكل ذلك ليس له مقاييس دقيقة في الوصف.

ولقصور الكلمة عن أداء هذا الجانب حقه، لجأ بعض الصحابة إلى وصف الصورة بالصورة، فعندما أراد أبو جحيفة أن يصف رسول الله ﷺ - وقد سئل عن ذلك - قال: «رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي يشبهه»(٢).

وذلك أبلغ في الوصف لمن كان في جيل التابعين وأحب أن يتعرف على صورته ﷺ.

ظهور الحاجة إلى وصفه ﷺ:

لم يكن هناك من حاجة إلى بيان صفة رسول الله ﷺ في جيل الصحابة، إذ كان ﷺ بينهم، ولقد كانت حجة الوداع التي أعلن عنها ﷺ مسبقاً، ليتيح

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٢١).

(٢) متفق عليه (خ ٣٥٤٣، ٣٥٤٤، م ٢٣٤٣).



للناس المشاركة فيها، كانت فرصة لكل من لم ير الرسول ﷺ من المسلمين من قبل أن يراه في تلك المناسبة التي ودع فيها المسلمين.

ثم توفي ﷺ وجاء جيل التابعين، وقد عاشوا في جو كل ما فيه يربطهم برسول الله ﷺ: الصلاة، الصوم، آداب الأكل والشرب، ودخول المسجد.. وكل شيء في الحياة، من عبادة أو عادة..

فتطلعت نفوس هذا الجيل للتعرف على رسول الله ﷺ جسماً، وقد تعرفوا عليه «أسوة» وأخلاقاً وسلوكاً.

فلم يكن من سبيل إلى ذلك، إلا أن يطلب التابعون ممن أدركوهم من الصحابة ـ وهم الذين رأوا الرسول ﷺ وعاشوا معه ـ أن ينقلوا لهم معالم تلك الصورة الكريمة، فكانت تتوارد عليهم الأسئلة في ذلك. كما حدث لأبي جحيفة رضي الله عنه.

وما الدافع إلى ذلك إلا الحب الذي استقر في النفوس على تتابع الأجيال، وقد عرف ﷺ ذلك من أمته، ومدى تشوقهم إلى رؤيته ﷺ فقال: (وليأتين على أحدكم زمان، لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله)[(١)].

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: (من أشد أمتي لي حباً، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله)[(٢)].

وقد قام الصحابة رضي الله عنهم، بهذا الوصف مجملاً تارة، وتفصيلاً في بعض الجزئيات تارة أخرى.

ومع ذلك تظل المقولة المتداولة صادقة: «فما راء كمن سمعا».

وقد ظل إكرام الله لبعض خلقه مستمراً مع تتابع الأجيال، في إتاحة

---

(١) متفق عليه (خ ٣٥٨٩، م ٣٤٦٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٣٢).

الفرصة لهم في رؤيته ﷺ في المنام، وتلك رؤية حقة كما ورد، ذلك عنه ﷺ، إذ قال: (من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتخيل بي)(١).

ما ورد في الصحيح من صفته ﷺ:

نقتصر في هذه الفقرة على نقل الأحاديث التي وردت في بيان وصفه ﷺ في الصحيحين، إذ ما ورد في غيرهما لا يخرج عما ورد فيهما، وفي مقدمة ذلك ما أورده الترمذي في شمائله، فالصحيح منه هو في الصحيحين بلفظه أو بمعناه.

● عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه».

وفي رواية: «كان ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير».

وفي رواية: «ما رأيت من ذي لمة(٢)، أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ، شعره يضرب منكبيه».

وفي رواية، سئل البراء: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: «لا، بل مثل القمر»(٣).

● عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق(٤)، وليس بالآدم(٥)، وليس بالجعد القطط(٦) ولا بالسبط».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٥٢).
(٢) اللمة: هي الشعر يلمّ أو يضرب المنكبين.
(٣) حديث البراء متفق عليه (خ ٣٥٤٩، ٣٥٥١، ٣٥٥٢، م ٢٣٣٧).
(٤) الأمهق: هو الكريه البياض كلون الجص.
(٥) الآدم: الأسمر الشديد السمرة.
(٦) القطط: الشديد الجعودة.

وفي رواية: كان ضخم اليدين والقدمين، حسن الوجه، لم أر بعده ولا قبله مثله. وكان بسط الكفين»[١].

● عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: «كان ﷺ أبيض مليحاً مقصَّداً»[٢].

وفي رواية: «كان أبيض، مليح الوجه»[٣].

● عن شعبة، عن سماك بن حرب قال: سمعت جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ ضليع الفم، أشكل العين، مهنوس العقبين».

قال: قلت لسماك: ما ضليع الفم؟ قال: عظيم الفم.

قال: قلت: ما أشكل العين؟ قال: طويل شق العين.

قال: قلت: ما مهنوس العقب؟ قال: قليل لحم العقب[٤].

● عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ قد شمط[٥] مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا أدهن لم يتبين، وإذا شعث رأسه تبين، وكان كثير شعر اللحية» فقال رجل: وجهه مثل السيف؟ قال: «لا، بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده»[٦].

● عن أنس رضي الله عنه، قال: «ما مسست حريراً، ولا ديباجاً ألين من كفِّ النبي ﷺ، ولا شممت ريحاً قط، أو عرفاً[٧] قط أطيب من ريح أو عرف النبي صلى الله عليه وسلم».

---

(١) متفق عليه (خ ٥٩٠٠، ٥٩٠٧، م ٢٣٤٧).
(٢) مقصداً: هو الذي ليس بجسيم ولا نحيف، ولا طويل ولا قصير.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٤٠).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣٩).
(٥) شمط: الأشمط: الذي يخالط سواده بياض.
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٣٤٤).
(٧) العرف: الرائحة.



وفي رواية: «كان ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ[1]، إذا مشى تكفأ»[2] [3].

● عن جابر بن سمرة ـ وقد مسح ﷺ خده بيده وهو صغير ـ قال: «فوجدت ليده برداً أو ريحاً، كأنما أخرجها من جؤنة[4] عطار»[5].

جمال صورته ﷺ:

تلتقي جميع الروايات على تأكيد كمال خلقته ﷺ وجمال صورته.

وتؤكد جميعها أمرين: الاعتدال والتوسط، والتناسق بين أعضاء جسمه ﷺ.

وذلك واضح فيما سبق من الروايات.

فهو ﷺ من حيث الطول، وسط، فلا هو بالطويل البائن ولا هو بالقصير.

وهو من حيث اللون وسط في بياض لونه، فلا هو بالأمهق ولا هو بالآدم بل هو «أزهر» اللون.

وأما شعره ﷺ فهو وسط، فلا هو بالجعد ولا بالسبط.

ولا يكون جمال إلا إذا وجد التناسق بين أعضاء الجسم، وهو ما تؤكده كل الروايات التي جاءت في وصفه.

أما ما يذكر من بعد ما بين المنكبين. ومن ضخامة اليدين والقدمين، وما

---

(١) كأن عرقه اللؤلؤ: أي في الصفاء والبياض.

(٢) تكفأ: هذا وصف لمشيته ﷺ كما وردت في الرواية الثانية «كأنما ينحط من صبب».

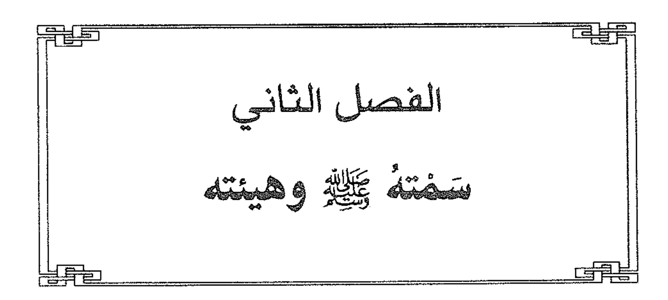
(٣) متفق عليه (خ ٣٥٦١، م ٢٣٣٠) والرواية الثانية عند مسلم فقط.

(٤) جؤنة عطار: هي الوعاء الذي فيه متاع العطار.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٩).



أشبه ذلك فهو ليس إشارة إلى خلل في الجسم وإنما هو بيان للتناسق الذي جاءت به الروايات الأخرى. فهو وسط في جسمه من حيث الطول، ومن حيث النحافة والسمن، فكأن هذه الروايات تؤكد امتلاء الجسم وحيويته دون أن يصل إلى درجة السمنة.



الفصل الثاني

سَمْتهُ ﷺ وهيئته

تمهيد:

إن وصف الجسم وأعضائه ليس كافياً في إعطاء الصورة القريبة من الواقع، ذلك أن الملاحة والجمال إنما يظهران عندما يقوم التكامل والتناسق بين أعضاء الجسم ومهماتها وعملها.

ولذلك لما أرادت عائشة رضي الله عنها وصف مشية فاطمة رضي الله عنها قالت: «فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١).

فالذين يعرفون مشيته ﷺ يستطيعون بعد هذا الوصف تخيل مشية فاطمة رضي الله عنها، في دلِّها وحيوتها.

ولذا فإننا في هذا الفصل نستكمل هذا الجانب من بيان سمْته وهيئته ﷺ من خلال الأمور الآتية:

الهيبة:

الهيبة: لها معنيان في اللغة: الإجلال، والمخافة.

وهي بالمعنى الأول، عندما يكون مبعثها الحب والتقدير والاحترام.

وهي بالمعنى الثاني، عندما يكون مبعثها الخوف، من جراء هالة مصطنعة يحيط بعض الظلمة أنفسهم بها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦).

ولقد كان ﷺ مهيباً بالمعنى الأول الذي وصفه به عمرو بن العاص رضي الله عنه، كما مر في الفصل السابق.

وقد جاء أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعنى.

● فقد أمر رسول الله ﷺ النساء يوماً بالصدقة، فجاءت زينب امرأة عبدالله بن مسعود تسأله: هل يجزىء عنها أن تتصدق على زوجها؟ ووقفت بباب رسول الله وطلبت من بلال أن يكفيها هذه المهمة، وقالت: «وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة..»(١).

● وهذا أبو مسعود البدري يضرب غلاماً له بالسوط، قال: فسمعت صوتاً من خلفي: (اعلم أبا مسعود، لَلَّهُ أقدر عليك، منك عليه) فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني وهو يقول: (اعلم أبا مسعود..) فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فسقط من يدي السوط، من هيبته، وقلت: هو حر لوجه الله، فقال: (أما لو لم تفعل للفحتك النار)(٢).

● وفي حديث «ذو اليدين» بشأن السهو في الصلاة أن رسول الله ﷺ صلى الظهر أو العصر، فسلم عن ركعتين، وخرج فقام على خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها، وخرج الناس فقالوا: قصرت الصلاة، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه... ثم كلمه ذو اليدين(٣).

وهكذا كان أقرب الناس إليه ـ أبو بكر وعمر ـ أعظمهم هيبة له.

على أن هذه الهيبة، الناتجة عن الحب والتقدير والاحترام، لم تكن مانعة الناس من الحديث معه والقرب منه، وبخاصة أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

---

(١) أخرجه الشيخان (خ ١٤٦٦، م ١٠٠٠).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٦٥٩).
(٣) متفق عليه (خ ٤٨٢، م ٥٧٣).



ويحدثنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن ذلك فيقول: «استأذن عمر على رسول الله ﷺ ـ وعنده نساء من قريش، يكلمنه، ويستكثرنه، عالية أصواتهن[١] ـ فلما استأذن عمر، قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، قال: (عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب) فقال عمر: فأنت يا رسول الله، كنت أحق أن يهبن، ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ[٢] من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٣].

وواضح من قولهن: «أنت أفظ وأغلظ» أن هيبتهن لعمر فيها بعض المعنى الثاني للهيبة بينهما تظل هيبته ﷺ في دائرة المعنى الأول.

صفة مشيه ﷺ:

كانت مشية رسول الله ﷺ مشية رجل مليء حيوية ونشاطاً، ولذلك كانت أقرب إلى السرعة منها إلا الاعتدال، كما وصفه الواصفون.

ففي صحيح مسلم عن أنس قال: «كان ﷺ إذا مشى تكفَّأ»[٤].

وعند أبي داود عن لقيط بن صبرة، أنه أتى عائشة يطلب النبي ﷺ فلم يجده، فلم ينشب أن جاء رسول الله ﷺ يتقلع، يتكفأ[٥].

وعند الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما انحطَّ من صبب»[٦].

---

(١) هؤلاء النساء، هن أزواجه ﷺ القرشيات، ومعنى يستكثرنه: يطلبن أكثر مما يعطينهن.
(٢) (أفظ وأغلظ): أفعل التفضيل هنا على غير بابه، فما كان ﷺ فظاً ولا غليظاً.
(٣) متفق عليه (خ ٣٢٩٤، م ٢٣٩٦).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣٠).
(٥) أخرجه أبو داود برقم (١٤٣).
(٦) أخرجه الترمذي برقم (٣٦٣٧).

وعن أبي الطفيل قال: «كان ﷺ إذا مشى كأنما يهوي من صبوب»[1].

وهذه النصوص وغيرها تسجل لنا الأمور الآتية.

١ - القوة والنشاط وشيء من السرعة، وهذا معنى «كأنما انحط من صبب» فالذي يهبط من أعلى إلى أسفل هذه صفته.

٢ - والتقلع، يعني القوة في المشي، والارتفاع من الأرض.

٣ - أنه يرفع قدمه عن الأرض ثم يضعها، ولا يمسح قدميه على الأرض مسحاً. وهذا ما فسرت به كلمة يتكفأ.

وهذه المشية وسط بين مشيتين، فلا هي مشية التماوت، ولا هي مشية من يمشي بانزعاج واضطراب. ولا هي مشية التكبر والتعالي.

إنها المشية التي وصف القرآن بها عباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2].

قال سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «إنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خد، ولا تخلع أو ترهل، فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر، والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة، فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة، وليس معنى ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان، كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح..»[3].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير الآية الكريمة: أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٦٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٦٣).

(٣) في ظلال القرآن في تفسيره الآية الكريمة.

مَرَحًا﴾(١) الآية، فأما هؤلاء، فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال: ما بالك، أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة...» انتهى.

ويعدد الإمام ابن القيم عشرة أنواع للمشي، ثم يقول: «وأعدل هذه المشيات مشية الهَوْن والتكفؤ»(٢) يعني مشية رسول الله ﷺ

صفة جلوسه ﷺ واتكائه...

لم يكن ﷺ متميزاً على أصحابه، فهو واحد منهم، في جلوسه واتكائه.. ولهذا كان يدخل الداخل عليهم فلا يعرفه من بينهم حتى يسأل عنه. وهذا ما حدث لضمام بن ثعلبة، عندما دخل المسجد فقال: أيكم محمد؟ فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء(٣).

وكان يجلس على الأرض، وعلى الحصير، والبساط.

وربما كان في المسجد فاستلقى واضعاً إحدى رجليه على الأخرى(٤).

وربما اتكأ على الوسادة(٥) وقد تكون الوسادة على يساره فيتكىء عليها(٦).

فقد كانت حركاته عفواً لا تصنع فيها، بعيدة عن التكلف.

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٣٧) وسورة لقمان، الآية (١٨).
(٢) زاد المعاد (١/١٦٩).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣).
(٤) متفق عليه (خ ٤٧٥، م ٢١٠٠).
(٥) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٧١) وهو عند أبي داود أيضاً.
(٦) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٧٠).

وكان ﷺ إذا أراد النوم اضطجع على شقة الأيمن، وربما وضع يده تحت خده[1].

عرقه ﷺ وطيب رائحته:

عرف ﷺ بطيب رائحته، حتى أنه لو سلك طريقاً، لعرف أنه سلكه من آثار الرائحة التي تبقى في ذلك الطريق.

قال أنس رضي الله عنه: «ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحاً قط أو عرفاً قط أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ».

وفي رواية: «ولا شممت مسكة أو عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله صل الله عليه وسلم»[2].

وعن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ مسح خده، قال: «فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار»[3].

وكانت أم سليم تجمع عرق النبي ﷺ ـ وكان ﷺ كثير العرق ـ فتجعله في الطيب والقوارير، فقال النبي ﷺ: (يا أم سليم، ما هذا)؟ قالت: عرقك أدوفُ[4] به طيبي.. نرجو بركته لصبياننا، قال: (أصبت).

وفي رواية: نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب[5].

تلك حاله ﷺ من طيب الرائحة وإن لم يمسَّ طيباً.

القوة والنشاط:

أنى أجلتَ بصرك في السيرة النبوية، استوقفتك صفات القوة والنشاط التي كان يتمتع بها رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٧، ٦٣١٤).
(٢) متفق عليه (خ ١٩٧٣، ٣٥٦١، م ٢٣٣٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٩).
(٤) أي أخلط.
(٥) متفق عليه (خ ٦٢٨١، م ٢٣٣١، ٢٣٣٢).

قوة في الجسم.

وقوة في الإرادة.

وقوة في الصبر على تحمل المشاق.

وقوة على مواصلة الصوم.

وقوة على الوقوف طويلاً بين يدي الله تعالى في الصلاة.

وقوة على مواجهة الأمور الصعبة..

إنها القوة في شتى ميادين الحياة، مادية ومعنوية.

ولقد كانت هذه القوة موفورة متجددة، حتى مع تقدمه في السن ﷺ، وليس باستطاعتنا أن نضرب الأمثلة على ذلك من كل الميادين، لما في ذلك من الإطالة. ولكنا نكتفي ببعضها:

● فهاهم المسلمون يحفرون الخندق في غداة باردة.. وتعرض لهم كدية شديدة، عجزت سواعدهم ومعاولهم عن النيل منها، وجاؤوا إلى النبي ﷺ يعرضون عليه الأمر، فقال لهم: (أنا نازل) إليها، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ـ فقد لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون الطعام ـ فأخذ المعول فضرب به الكدية فتفتت[1].

● وتذكر معي ذهابه إلى الطائف منفرداً بعد موت عمه وزوجته وهو يفتش عمن يحميه حتى يبلغ دين الله تعالى.. وما تحمل في ذلك مادياً ونفسياً.

● وفي حادثة تخيير نسائه ﷺ، زاره عمر في مشربة له مرتفعة، يرتقي إليها بجذع جعل كالسلَّم.. يقول عمر رضي الله عنه: ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسُّه بيده[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤١٠١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٧٩).

وإذا تذكرنا أن حادثة التخيير كانت في السنة التاسعة، أي في أواخر حياته ﷺ، علمنا استمرار هذا النشاط معه ﷺ حتى آخر حياته.

فقد نزل الرسول ﷺ من المشربة إلى الجذع ثم إلى الأرض، وكأنه يمشي على الأرض، بينما اضطر عمر ـ مع ما بينهما من فارق السن ـ أن يتشبث ويمسك بالجذع خوفاً من الوقوع على الأرض.

إنها مشاهد.. ومشاهد تبين ما كان عليه ﷺ من قوة ونشاط.

وما له لا يكون كذلك وهو القائل:

(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز.

وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)[1].

إنه الحث على طلب القوة..

وبيان أسبابها: من الحرص.. والاستعانة بالله.. وعدم تسرب العجز إلى النفس. وكذلك عدم التحسر على الماضي، وضياع الوقت في ذلك.

إنها البلاغة النبوية، كلمات قليلة، استوفت الموضوع بكل أبعاده المادية والمعنوية فلنتأمل..

وإذا كان ﷺ قوياً، ويطلب القوة ويحث عليها، فذلك لا يعني الاستهانة بالضعفاء. فقد قال في حديثه: (وفي كل خير).

وقد رأى سعد بن أبي وقاص ـ في بعض المواقف ـ أنه له فضلاً على من دونه، فقال له النبي ﷺ: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)[2].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٩٦).

إن القوة في المسلم والمؤمن لا ينبغي أن تؤدي به إلى الغرور أو التعالي على غيره، فيقع في ميدان التكبر وتلك قاصمة الظهر.

إنه التوازن في المنهج الإسلامي، فلا فائدة في النمو في جانب، إذا كان على حساب الضمور في جانب، ولذا جاء قوله ﷺ: (وفي كل خير).

صفة ضحكه ﷺ وسروره:

كان ﷺ يعرف السرور في وجهه.

وقد تحدث الصحابة رضي الله عنهم، عن ذلك ونقلوا لنا صورة سروره ومن ذلك:

● ما جاء في قصة كعب بن مالك حين تاب الله عليه إثر تخلفه عن غزوة تبوك، قال كعب: «فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ - وهو يبرق وجهه من السرور - (أبشر بخير يوم مر عليك..) قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»[(١)].

● وفي نزول براءة عائشة رضي الله عنها، قالت: «وأنزل على رسول الله ﷺ من ساعته، فرفع عنه، وإني لأتبين السرور في وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول: (أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك)[(٢)].

● وينقل لنا أنس رضي الله عنه آخر نظرة لرسول الله ﷺ: قال: كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلى أصحابه وهم في الصلاة، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك[(٣)].

وأما ضحكه ﷺ فكان يتناسب مع ما ألقى الله عليه من المهابة.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٤١٨، م ٢٧٦٩).

(٢) أخرج هذه الرواية البغوي في كتاب الأنوار في شمائل النبي المختار برقم (٢٩٥) والحديث في الصحيحين (خ ٤١٤١، م ٢٧٧٠) بلفظ: «فسري عنه وهو يضحك».

(٣) متفق عليه (خ ٦٨٠، م ٤١٩).

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت النبي ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً، حتى أرى لهواته[1]، إنما كان يتبسم»[2].

ومعنى هذا أنه ﷺ ما كان يقبل على الضحك بكليته.

ويصف جابر بن سمرة مجلسه ﷺ في أصحابه، فيقول: «وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم»[3].

وقد تبدو نواجذه في ضحكه بعض الأحيان. كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة الذي وقع على أهله في رمضان: «فأعطاه ﷺ تمراً، وقال: (تصدق بها) قال: على أفقر مني؟ والله ما بين لابتيها[4] أهل بيت أفقر منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه»[5].

وبدو النواجذ، لا ينافي الحديث الأول، لأن ظهور النواجذ ـ وهي الأسنان التي في مقدم الفم أو الأنياب ـ لا يستلزم ظهور اللهاة[6].

قال ابن القيم: «وكان جلّ ضحكه ﷺ التبسم، بل كله تبسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه، وكان يضحك مما يضحك منه، وهو مما يتعجب من مثله، ويُستغرب وقوعه ويستندر»[7].

ومما ينبغي أن يشار إليه: أن ضحكه ﷺ لم يكن قهقهة في يوم من الأيام[8].

---

(١) لهواته: جمع لهاة، وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم.
(٢) متفق عليه (خ ٦٠٩٢، م ٨٩٩).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٢).
(٤) لابتيها: أي المدينة، والمقصود الحرتان.
(٥) متفق عليه (خ ١٩٣٦، م ١١١١).
(٦) فتح الباري (٨/ ٥٧٨).
(٧) زاد المعاد (١/ ١٨٢).
(٨) قال ابن حجر: قال أهل اللغة: التبسم مبادئ الضحك، والضحك: انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوت وكان بحيث يسمع من بعد فهو القهقهة، وإلا فهو الضحك (فتح الباري ١٠/ ٥٠٤).

والضحك والبكاء خاصية في هذا الإنسان، وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما. ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي، والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء(١).

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾(٢) أي أنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء.

وهذه الدواعي ليست دائماً متوفرة، وكثير من الناس يضحك وربما لغير داع، وقد نهى ﷺ أن يكثر الإنسان الضحك لمناسبة ولغير مناسبة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكثروا الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب)(٣).

طلاقة وجهه ﷺ:

كان النبي ﷺ يستقبل الناس بوجه طلق، وصدر رحب، حتى ليخيل إلى كل صحابي أنه أقرب الناس إليه، وأنه أحب الناس إليه، فقد وسع ببشره الناس جميعاً.

ويسجل لنا جرير بن عبدالله رضي الله عنه، هذا الجانب من أدبه ﷺ فيقول: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»(٤).

وجرير هنا يتحدث عن ملاحظته الشخصية فيما يتعلق به.

---

(١) في ظلال القرآن في تفسير الآية ٤٣ من سورة النجم.

(٢) سورة النجم، الآية (٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٠٥) وابن ماجه برقم (٤١٩٣، ٤٢١٧).

(٤) متفق عليه (خ ٣٠٣٥، م ٢٤٧٥).





ولكن عبدالله بن الحارث بن جزء، يسجل ذلك كظاهرة عامة في مسلكه ﷺ فيقول: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»[1].

وهو ما عرفه الصحابة جميعاً منه ﷺ خلال لقاءاتهم به. فكان ذلك توجيهاً لهم، ولمن بعدهم، في دعوتهم للتأسي به.

ولم يكتف بحضهم على ذلك بفعله، بل كثيراً ما وجههم إلى ذلك بقوله.

فهذا أبو ذر رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله ﷺ: (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)[2].

وهكذا لم تعد طلاقة الوجه مجرد أدب اجتماعي، بل أضحت ضمن أعمال الخير التي ينال المسلم جزاءها ثواباً مدخراً عند الله تعالى.

وقد تأكد هذا بما رواه جابر بن عبدالله حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق)[3].

وبما رواه أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة)[4].

وعندما يعتاد المسلم هذا المسلك الكريم،وتصبح طلاقة وجهه سمة دائمة، فإن ذلك ينعكس على نفسه، فيشعر بالسعادة والراحة النفسية، فيكون أكثر المستفيدين من هذا السلوك الخير، وتلك نتيجة مؤكدة لما جعل الله من ارتباط وشيج بين الصورة الظاهرة للجسم والصورة الباطنة له.

صفة بكائه ﷺ وحزنه:

قال ابن القيم: «وأما بكاؤه ﷺ فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٩١) والترمذي برقم (٣٧٢١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٦).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (١٩٧٠).
(٤) أخرجه الترمذي برقم (١٩٥٦).



ورفع صوت ـ كما لم يكن ضحكه قهقهة ـ ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا . . . »[١].

والبكاء أنواع، منها:

- بكاء الخشية والخوف.
- بكاء المحبة والشوق.
- بكاء عند سماع القرآن.
- بكاء الخور والضعف.
- بكاء الحزن. وغير ذلك[٢]. وفقرتنا هذه ستكون قاصرة على النوع الأخير.

وقد كان ﷺ يبكي ـ كما تقتضي ذلك الفطرة الإنسانية ـ عند موت قريب أو عزيز، وقد سجلت كتب السنة كثيراً من هذه المشاهد، نذكر بعضها.

● قال أنس: «لقد رأيته ـ أي إبراهيم ـ وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: (تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله! يا إبراهيم، إنا بك لمحزونون)[٣].

● وقال أنس: «شهدنا بنتاً لرسول الله ﷺ، قال: ورسول الله ﷺ جالس على القبر، قال: فرأيت عينيه تدمعان»[٤].

●وعن أسامة بن زيد: أن ابنة النبي أرسلت إليه أن ابناً لها قبض.. فذهب في رجال من أصحابه، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقعقع،

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٨٣).
(٢) انظر أنواع البكاء في زاد المعاد (١/ ١٨٣-١٨٥).
(٣) متفق عليه (خ ١٣٠٣، م ٢٣١٥) واللفظ لمسلم.
(٤) أخرجه البخاري برقم (١٢٨٥).

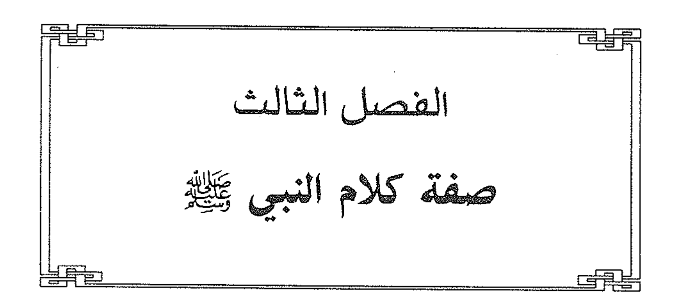
كأنها شنّ[1]، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[2].

● وعن أنس أن النبي ﷺ نعى زيداً وأصحابه فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فأصيب..) وقال: وإن عينيه لتذرفان[3].

● وقد يكون الحزن كبيراً، ويظل أثره في النفس وجداً كما حدث أنس عن سرية القراء التي أصيبت قال: «فما رأيت النبي ﷺ وجد على شيء ما وجد عليهم..»[4].

---

(١) الشنّ: القربة البالية.
(٢) متفق عليه (خ ١٢٨٤، م ٩٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٦٣).
(٤) متفق عليه (خ ٦٣٩٤، م ٦٧٧).



الفصل الثالث

صفة كلام النبي ﷺ

ربما كان الكلام واحداً من أبرز الصفات التي تستكمل بها معالم شخصية الإنسان، ولذا كان علينا ـ ونحن نتحدث عن سمت النبي ﷺ وهيئته ـ أن نقف عند هذا الموضوع، فنلقي بعض الضوء على جانب منه، إذ هو موضوع واسع ما يستطيع كاتب أن يوفيه حقه.

مهمة البيان للناس:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وهكذا يتبين من الآية الكريمة أن إحدى المهمات الكبرى الملقاة على عاتقه ﷺ هي البيان والإيضاح.

والبيان أنواع: قد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل، كما يكون بالإقرار.

ومما لا ريب فيه أن البيان بالقول يأتي في مقدمة هذه الأنواع.

والقول قد يكون حديثاً في مجلس، وقد يكون موعظة في مناسبة، وقد يكون خطبة..

وكل ذلك استعمله ﷺ في تنفيذ هذه المهمة الموكلة إليه.

صفة كلامه ﷺ:

كان ﷺ يتكلم بكلام مفصَّل مبين، يستطيع سامعه أن يعي ويفهم عنه ما يقول.

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي كان يحدث حديثاً لو عدَّه العادُ لأحصاه»[1].

وتوضح ذلك فتقول: «ما كان يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بَيْنَهُ فصلٌ، يفهمه كل من سمعه»[2].

ويقول أنس رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه..»[3].

وإذا أضفنا إلى طريقة كلامه ﷺ هذه، بلاغته وفصاحته. فلا شك بأن هذا البيان سيؤدي المهمة المطلوبة منه أحسن أداء.

مواعظه ﷺ:

وكان ﷺ يعظ أصحابه، ولا يكثر عليهم في ذلك.

قال ابن مسعود: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[4].

وقد كانت مواعظه مؤثرة تأخذ بالقلوب، وتحيي النفوس.

فعن العرباض بن سارية قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب..»[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٣٥٦٧، م ٢٤٩٣).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٦٣٩) وأخرج بعضه أبو داود برقم (٤٨٣٩).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٥) والترمذي برقم (٢٧٢٣).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٨).
(٥) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٧) والترمذي برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه برقم (٤٢) والدارمي برقم (٩٥).

ويصف حنظلة أثر هذه المواعظ فيقول: «نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين..»[١].

وهكذا تكون المواعظ تأكيداً للبيان، وتذكيراً به، وحثاً على الاستقامة وتوثيقاً للصلة بين المؤمنين.

خطب النبي ﷺ:

تعد الخطابة في مقدمة فنون القول تأثيراً وتبليغاً، واستجاشة للعواطف، واستنهاضاً للهمم..

وقد جعلها الإسلام شعيرة ثابتة متكررة في أيام الجمعة والعيدين، وكذا في صلاة الاستسقاء.

وكثيراً ما كان النبي يجمع أصحابه عند الملمات ليخطب فيهم..

وتمتاز الخطابة بانفعال المتكلم، إذ ينبغي أن يكون متأثراً بما يقول، حتى يستطيع. أن ينقل ذلك إلى السامع.

وقد كان رسول الله ﷺ سيد الخطباء والبلغاء.

يقول جابر بن عبدالله: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش. يقول: صبحكم ومساكم..»[٢].

وينقل لنا ابن عمر رضي الله عنه، جانباً من خطبة لرسول الله فكان منها:

(يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟..).

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٠).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٦٧).



قال ابن عمر: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟[١].

وفي خطبة أخرى قال النعمان بن بشير: «سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: (أنذركم النار..) حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه»[٢].

وهذه أم محصن تقول: «سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع، وعليه برد قد التفع به من تحت إبطه، قالت: فأنا أنظر إلى عضلة عضده ترتج..»[٣].

هكذا كانت خطبة ﷺ وتلك هي طريقته وسنته فيها[٤].

ولقد كانت لرسول الله ﷺ طاقة وقدرة على الوقوف طويلاً في خطبته، فربما صلى العصر فقام يخطب فاستمر في خطبته حتى غابت الشمس[٥].

وقد بدأ يوماً خطبته بعد صلاة الفجر وما زال.. حتى غربت الشمس.

أخرج أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه عن أبي زيد، عمرو بن أخطب قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل

---

(١) متفق عليه (خ ٧٤١٢، ٢٧٨٨) واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، في خطبة الجمعة، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (١٧٠٦).

(٤) تلك هي سنته ﷺ، أما عندما يتحول خطباء الجمعة وغيرها في معظم مساجد المسلمين، وفي كل أقطارهم، إلى قراء صحف، يقرؤون ما كتبوا أو ما نقلوا من كتابات غيرهم، فإن هذه الخطب تولد ميتة لا حياة فيها، فالخطيب لم يتفاعل مع الفكرة التي يطرحها، بل ربما حتى لم يكتبها، بل صورها، أو كتبت له.. فأنى لهذه الخطب أن تتجاوز فم قائلها؟!!.

(٥) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري (الفتح الرباني ٢١/٢٦٨).

فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان، وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا»[1].

ولعل هذه الخطبة هي التي تحدث عنها حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حين قال: «لقد خطبنا النبي خطبة ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، وإن كنت لأرى الشيء قد نسيت، فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»[2].

أجل، كانت الخطبة إحدى وسائل التبليغ والبيان، الذي كان مهمة الرسول الكريم، فعن بريدة قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات، فقال: (يا أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينا هو كذلك أبصر العدو، وأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيُّها الناس، أتيتم، أيها الناس أتيتم) ثلاث مرات[3].

بلاغة النبي ﷺ:

ليس من قصدي أن أكتب في هذا الموضوع. ولست أهلاً له، وقد تناوله كثيرون جداً.. وما أعتقد أن أحداً يمكنه أن يوفيه حقه.

وإنما أردت أن لا أغفل هذا الجانب ونحن نتحدث عن كلامه ﷺ.

ويحسن بنا أن نقرأ بعض الجمل المختارة. مما قاله الجاحظ في هذا المجال:

«هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف..

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٨٩٢)، والإمام أحمد (الفتح الرباني ٢١/ ٢٧٢).
(٢) متفق عليه (خ ٦٦٠٤، م ٢٨٩١).
(٣) مجمع الزوائد، في خطبة الجمعة. وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة. وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام..

لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار..

ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ»(١).

ولنستمع إلى قصة إسلام ضماد، فهي شاهد حي، من ميدان الواقع، بعيداً عن التكلف والتصنع، تبين لنا رأي عارف خبير باللغة وأساليبها في جمل قليلة سمعها من رسول الله ﷺ.

أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ضماداً قدم مكة ـ وكان من أزد شنوءة ـ وكان يرقي من هذه الريح(٢)، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فقال لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يديَّ.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟.

فقال رسول الله ﷺ: (إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد).

قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ، ثلاث مرات.

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ (٢/ ١٧).
(٢) الريح: المراد بها الجنون ومسّ الشيطان.

قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[١]. قال: فقال: هات يديك أبايعك على الإسلام، قال فبايعه[٢]...

وليت ضماداً ترك رسول الله ﷺ يتم قوله، فلم تكن تلك إلا مقدمة لما كان ﷺ يريد قوله. ولكنه سمع كلاماً لم يسمع مثله من قبل فكان ذلك ـ على قلة كلماته ـ كافياً لتقوم قناعته بنبوة رسول الله ﷺ فآمن.

وكفى بذلك بلاغة وفصاحة.

ويكفينا من ذلك كله قوله ﷺ: (أعطيت جوامع الكلام)[٣].

فهم كلام رسول الله ﷺ:

قال رسول الله ﷺ:

(فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه)[٤].

(فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع)[٥].

يقرر الحديثان الشريفان أن الناس ليسوا في الفهم سواء، وعلى الرغم من وضوح كلامه ﷺ وبلاغته، فربما غاب الفهم عن السامع وقصر عن إدراك المطلوب، إما لقصور فيه، وإما لحال انتابته..

---

(١) أي لجة البحر.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٦٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٥٢٣) وهو عند البخاري برقم (٢٩٧٧) بلفظ (بعثت بجوامع الكلم).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٦٠) والترمذي (٢٦٥٦) وابن ماجه (٢٣٠) والدارمي (٢٢٩).
(٥) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٥٧) وابن ماجه (٢٣٢).

وفي مثل هذه الحال جاء التوجيه القرآني الكريم ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن الناس من يعتدّ برأيه ولا يرى لغيره فضلاً عليه.

وربما كان النص يحتمل أكثر من معنى...

وفي مثل هذه الحال يحسن بنا أن نسترشد بما ذهب إليه الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم من السلف الصالح.

قال علي بن أبي طالب: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه»[2].

وعن عبدالله بن مسعود مثله[3].

وأخرج الدارمي: عن سعيد بن جبير أنه حدث يوماً بحديث عن النبي ﷺ. فقال رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا. قال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعرض فيه بكتاب الله؟! كان رسول الله ﷺ أعلم بكتاب الله منك[4].

أجل، صدق ابن جبير، فقد كان رسول الله ﷺ أعلم الناس بكتاب الله، وما كان حديثه ليعارض ما في كتاب الله، فهو ﷺ المبين والمفسر.

ولقد تكفل شراح الحديث وعلماء الأصول ببيان هذه الأمور، مما جعل الأمور سهلة ميسورة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠) والدارمي برقم (٥٩٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (١٩) والدارمي برقم (٥٩١).

(٤) أخرجه الدارمي برقم (٥٩٠).









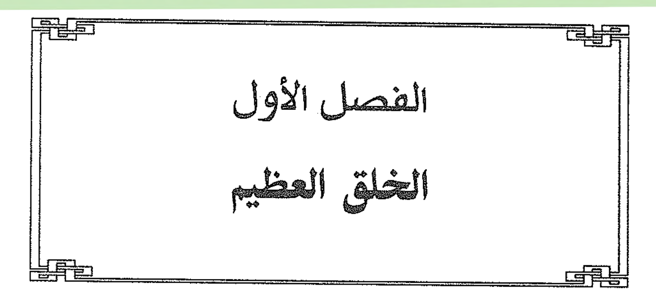
المقصد الثالث

أخلاق النبي ﷺ وشمائله









الفصل الأول
الخلق العظيم

نتحدث في هذا الفصل عن صاحب الخلق العظيم ﷺ من خلال ما وصفه الله تعالى به، وما وصف نفسه به، وما وصفه بعض أصحابه..

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

ذلكم قول الله سبحانه وتعالى.

«ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبدالله، يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] ومدلول الخلق العظيم، هو ما هو عند الله، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين.

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحٍ شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها، وهو يعلم من ربه هذا، قائل هذه الكلمة، ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها، ما لا يدركه أحد من العالمين.

---

(١) سورة القلم، الآية (٤).

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقي هذه الكلمة، من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ـ ولو أنها ثناء ـ ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك، وفي توازن.. هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه، ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر:

أعظم بصدورها من العلي الكبير.

وأعظم بتلقي محمد لها، وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً. لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير.

لقد كان ﷺ ـ وهو بشر ـ يثني على أحد من أصحابه، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم، وهو بشر، وصاحبه يعلم أنه بشر، وأصحابه يدركون أنه بشر، إنه نبي، نعم، ولكن في الدائرة المعلومة الحدود، دائرة البشرية ذات الحدود. فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله، وهو يعلم من هو الله.. هو يعلم منه ما لا يعلمه سواه، ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى ويسير.. إنه أمر فوق كل تصور، وفوق كل تقدير..»(١).

ذلك بعض ما قاله سيد قطب ـ رحمه الله ـ وهو يعيش في ظلال الآية الكريمة، وهو يستحق التدبر وإمعان النظر فيه لمن أراد فهم بعض ما توحي به الآية الكريمة.

والآية الكريمة وردت في سياق الرد على المشركين الذين اتهموا النبي ﷺ بالجنون وذلك في مكة بعد الإعلان بالدعوة إلى الله.

---

(١) في ظلال القرآن في تفسير الآية الكريمة.



قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فالآيات تنفي عن النبي الجنون، وذلك من نعمة الله تعالى عليه، وتثبت له مكانته الحقة وهي أنه ذو الخلق العظيم.

وهذه الشهادة من الله تعالى الذي يعلم الجهر وما يخفى، وهي شهادة بكمال العقل، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(١):

أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاً وضعت هذه اللَّبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)(٢).

إنه ﷺ النبي الذي ختمت به النبوة وكمل بنيانها، فلا غرابة أن يكون به كمال مكارم الأخلاق، بل ذلك أمر من لوازم ختم النبوة.

فسلوكه ﷺ وخلقه وتصرفه هو المقياس الذي يرجع إليه في تقويم الأعمال والتصرفات.

وأخلاقه ﷺ هي المقياس الذي تقاس به الأخلاق. وذلك أمر ضروري لأنه مع تغير الأزمنة، وتغير الأجيال، ربما تغيرت القيم فأصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

---

(١) الحديث: ذكره ابن كثير وقال: أخرجه أحمد (البداية والنهاية ٦/ ٣٥) وقال في أسنى المطالب: أورده مالك في الموطأ بلاغاً. قال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً أ. هـ. وقال في مختصر المقاصد الحسنة: صحيح.

(٢) متفق عليه (خ ٣٥٣٥، م ٢٢٨٦).



وثمة أمر آخر، وهو الميل إلى التشدد في الأمور، وركوب الصعب منها، وهو انحراف باتجاه آخر، ربما كان ظاهره الاستكثار من الخير. ولكنه في ميزان الإسلام انحراف. وقد حدث هذا في زمن النبي ﷺ فأنكره.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك أناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: (ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله. لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية).

وفي رواية: فبلغ ذلك النبي ﷺ فغضب، حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: الحديث[(١)].

وهكذا غضب ﷺ لأمر ربما عدَّه القائمون به من التقوى والورع.. ولكنه ـ وكما بينه ﷺ ـ خروج عن المنهج السوي.

وإذن فنحن بحاجة إلى المقياس الذي نرجع إليه دائماً. وسلوكه ﷺ هو المقياس إذ من مهمته إتمام مكارم الأخلاق ووضعها في صيغتها الصحيحة، وتخليصها مما علق بها من الشوائب. وهكذا تركها لنا ﷺ بيضاء نقية.

«كان خلقه القرآن»:

هذا ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: في وصف خلق رسول الله ﷺ [(٢)].

وهذا الوصف إن دل على شيء فإنما يدل على فقه عائشة وعلمها وبلاغتها، وكيف لا، وهي التي نشأت في بيت أحب الناس إلى النبي ﷺ ثم كانت بعد ذلك في بيت النبوة.

إنها جملة قصيرة. ولكنها تغني عن سجل كبير، فمهما قال غيرها من الصحابة في وصف خلقه ﷺ لن يخرج عن معناها.

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (خ ٦١٠١، م ٢٣٥٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٤٦) والنسائي (١٦٠٠) وأحمد (الفتح الرباني ٢٢/١٧).

وفي القرآن أوامر مطلوب فعلها، وفيه نواهٍ مطلوب الابتعاد عنها، وفيه فضائل دعي الناس للقيام بها، وفيه ذكر لفواحش طلب الابتعاد عنها...

فمعنى «خلقه القرآن» أي أنه ﷺ مؤتمر بما أمر، منتهٍ عما نهي، ساعٍ إلى فعل الفضائل، مبتعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

قال البيضاوي: «أي جميع ما حصل في القرآن، فإن كل ما استحسنه وأثنى عليه ودعا إليه، قد تحلى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه، تجنبه وتخلى عنه»(١).

فمن أحب أن يعرف خلق رسول الله ﷺ فعليه بالقرآن، فهو الكتاب الذي جاء ﷺ ببيانه قولاً وعملاً.

أحسن الناس خلقاً:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»(٢).

وقد صحب أنس النبي ﷺ عشر سنوات يخدمه، ليلاً ونهاراً، وقد رآه عن كثب، وفي كل أحواله فلخص ما رآه بهذه الكلمات القليلة.

فهو «أحسن الناس» أحسن الناس في كل ميدان من ميادين الحياة، وفي التعامل مع الناس.

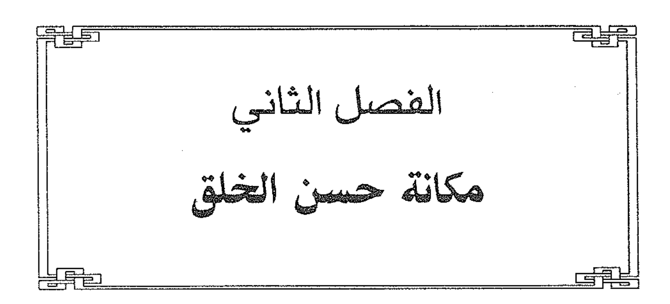
وقد تكلم كثير من الصحابة بما يشبه ما قاله أنس.

ولا نريد الاطالة بذكر هذه الأقوال، فقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٣) يغني عنها جميعاً.

---

(١) بلوغ الأماني، شرح الفتح الرباني، للبنا (٢٢/١٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٠).
(٣) سورة القلم، الآية (٤).





الفصل الثاني
مكانة حسن الخلق

مكانة حسن الخلق:

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: (إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً)[١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق)[٢].

وعنه عن النبي ﷺ قال: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجه صاحب الصوم والصلاة)[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله غنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق)[٥].

---

(١) متفق عليه (خ ٣٥٥٩، م ٢٣٢١).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٩٩)، والترمذي برقم (٢٠٠٢).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٠٣).
(٤) أخرجه أبو داود، برقم (٤٧٩٨).
(٥) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٠٤)، وابن ماجه برقم (٤٢٤٦).



وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أحبكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون) قالوا: يا رسول الله قد علمنا «الثرثارون[١] والمتشدقون»[٢] فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبرون)[٣].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن من أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهله)[٤].

ذلك بعض ما قاله ﷺ في بيانه مكانة حسن الخلق، وهي مكانة يحرص عليها كل مسلم لما تحمله من دلالات، ولما وراءها من الثواب عند الله سبحانه وتعالى.

فالأخلاق الحسنة توصل صاحبها إلى كمال الإيمان وتجعله من خيار المسلمين.

وهي ـ في الوقت نفسه ـ عبادة تساوي الصلاة والصوم.

وهي وسيلة للقرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة.

وهي رصيد له ثقله في الميزان يوم القيامة..

ومن لا يحرص على هذه الأمور؟ إنها غاية ما يسعى إليه الإنسان المسلم، الذي أنار الله بصره وبصيرته فعمل لما فيه خيره.

---

(١) الثرثارون: الثرثار: هو الكثير الكلام.

(٢) المتشدقون: المتشدق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٠١٨).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٢).

العبادات والأخلاق:

العبادات هي أركان الإسلام، وعليها يقوم بناؤه.

وهي توجه خالص إلى الله سبحانه، وخضوع له.

ومع ذلك فقد جعل الله تعالى لهذه العبادات آثاراً كثيرة في حياة المسلم، في دنياه قبل آخرته.

ومن جملة هذه الآثار، أنها ترفد البنيان الأخلاقي في نفسه بروافد كثيرة، وما تزال تتقدم به حتى تصل به إلى درجة الإحسان.

ونحن في هذه الفقرة نشير إلى بعض ذلك باختصار.

فقد قال الله تعالى في شأن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(١).

أي من نتائج إقامة الصلاة والمواظبة عليها ترك الفواحش والمنكرات.

وترك الفواحش وطهارة النفس منها هي القاعدة والأساس في بناء الأخلاق.

وقال تعالى في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(٢).

إنها تنظيف وطهارة للنفس من أدران النقص والشح.

وقال تعالى في الصوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

والصوم منع للنفس من الطعام والشراب والشهوة وقتاً محدوداً، فهو تربية على الكفِّ والامتناع عن رغبات النفس المحظورة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٤٥).
(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٣).
(٣) سورة البقرة، الآية (١٨٣).





وهذا ما يفسر لنا الحديث الشريف (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[1].

وقال تعالى في شأن الحج: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾[2].

وهكذا تسهم العبادات في توطيد دعائم الأخلاق وإنمائها.

مكانة الأخلاق في المنهج:

إن هذا الدين وحدة متماسكة، وبناء متين متجانس، كل جانب منه يمتد متشابكاً مع الجوانب الأخرى.

وإذا ذهبنا نتحدث عن جانب منه منفرداً، فذلك تحت وطأة عامل الضرورة، إذ لا بد من التجزئة لضرورة البحث. علماً بأنه لا يمكن فصل الحكم الأخلاقي عن الحكم القضائي، كما لا يمكن فصل الحكم الاقتصادي عن الحكم الاجتماعي. فهي أنظمة متداخلة متكاملة.

والذي يهمنا الإشارة إليه في هذه الفقرة:

أن النظام الخلقي في المنهج الإسلامي قد استكمل عناصره الكلية، الأمر الذي لم يتوفر في غيره من الأنظمة.

وإن نظرة واحدة في القرآن المكي لتؤكد ذلك.

فلم تنته المرحلة المكية حتى كان المنهج الأخلاقي قد استكمل بناءه في نفوس المسلمين ثم كانت الأحكام التشريعية بعد ذلك في المدينة[3].

وهذه أولية من حيث الوقت.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٩٠٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٩٧).

(٣) انظر تفصيل هذا البحث في كتاب «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة» للمؤلف ص (٦٦-٧٢) طبع المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ.



ثم رأينا بعد ذلك أن الأحكام تعطي للمنهج الخلقي الأولوية من حيث المكانة، فالأصل في التعامل بين المسلمين أن يكون قائماً على أساس أخلاقي ولا يلجأ إلى التقاضي إلا حينما لا يستطيع أصحاب العلاقة الارتقاء إلى المستوى الخلقي.

وهذه أولية أخرى من حيث المكانة. وقد رأينا في النصوص التي وردت في الفقرة الأولى من هذا الفصل ما يؤيد ذلك.

وهذا أمر ملفت للنظر في التساوق بين المنهج والرسول الذي جاء بهذا المنهج.

فهذه العقيدة يبرز فيها العنصر الأخلاقي.

ويأتي الثناء من الله على هذا الرسول الكريم ببروز العنصر الأخلاقي فيه.

«والناظر في هذه العقيدة، كالناظر في سيرة رسولها، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء.. الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد. ومطابقة القول للفعل، ومطابقتهما معاً للنية والضمير، والنهي عن الجور والظلم، والخداع والغش، وأكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور.. والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء»(١).

والأمر الآخر الذي يحسن بنا أن نشير إليه: هو أن البناء الخلقي ذاته متماسك قوي شديد التلاحم: فالإخلاص والصدق.. يدخلان في كل عمل أخلاقي. وإذا تحدثت عن الأمانة وجدت نفسك في ميدان الوفاء

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٥٧).



والصدق.. وهكذا فالفواصل في كثير من الأحيان اعتبارية، ومن هنا جاءت كلماته ﷺ عامة جامعة معبرة عن هذا التلاحم. ومنها (البر حسن الخلق)[1] والبر عنوان عام لكل أعمال الخير والاستقامة.

ولذا فنحن حين نتحدث عن شمائله ﷺ مفردين لكل منها عنواناً مستقلاً، فإنما نفعل ذلك بغية التقريب والإيضاح للبحث.

حسن الخلق طهارة وتزكية:

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ في دعائه عند افتتاح صلاته: (اللهم.. واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت..)[1].

يقرر الحديث الشريف وجود نوعين من الأخلاق.

- أخلاق حسنة.
- أخلاق سيئة.

ويكون الإنسان حسن الأخلاق عندما تتطهر نفسه من الأخلاق السيئة، وتتحلى بالأخلاق الحسنة.

فهناك عملان: طهارة، وتزين، والترتيب العملي يقتضى تقديم الطهارة، فإذا حصلت الطهارة، انتقل إلى التزين والتجمل والتزكية.

فالطهارة[2] تسبق أخذ الزينة[3].

والترتيب المنطقي أن نتحدث عن الأخلاق السيئة أولاً وكيفية التخلص منها، ثم ننتقل إلى الحديث عن الأخلاق الحسنة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧١) وأبو داود برقم (٧٦٠) وكذا الترمذي والنسائي وأحمد والدارمي.

(٢) المراد الطهارة التي يستعد بها للصلاة من وضوء وغيره.

(٣) المراد قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ سورة الأعراف، الآية (٣١).





ولما كان هناك تلازم في غالب الأحيان بين انحسار خلق سيء عند التحلي بخلق حسن، آثرت أن أبدأ بالحديث عن الأخلاق الحسنة في هذا المقصد، على أن أتناول ما لم يجر الحديث عنه من الأخلاق السيئة، في مقصد آخر.

دعاء:

كان ﷺ يتجه بالدعاء إلى الله تعالى في أمر حسن خلقه ومن ذلك:

(اللهم، كما حسنت خَلْقي فحسن خُلُقي)[1].

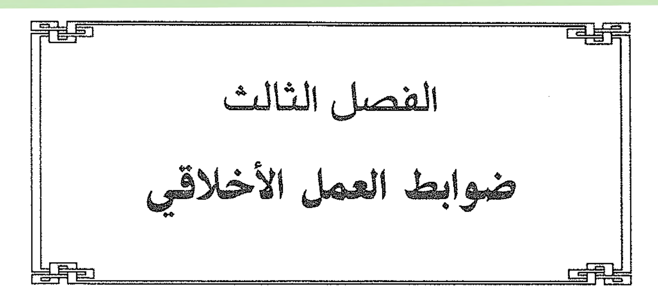
(اللهم، . . . واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت)[2].

(١) قال في المواهب اللدنية (١/٣٢٦): أخرجه أحمد وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم وغيره كما سبق.







الفصل الثالث
ضوابط العمل الأخلاقي

تمهيد:

«كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على رسول الله ﷺ، فردَّ رسول الله ﷺ السلام. وقال: (ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ) فرجع الرجل فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال رسول الله ﷺ: (وعليك السلام) ثم قال: (ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ) حتى فعل ذلك ثلاث مرات.

فقال الرجل: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غير هذا»[(١)].

لقد صلى الرجل ثلاث مرات.

وفي كل مرة يقول له الرسول ﷺ: (إنك لم تصل).

وهذا يعني أن الإنسان ربما يقوم بالعمل، ويبذل فيه الجهد، ومع ذلك لا تكون له جدوى، لأنه لم يثمر الآثار المرجوة منه. بسبب عدم استكماله الصفات المطلوبة فيه.

ولهذا فقد وضع المنهج الإسلامي ضوابط للعمل حتى يكون صحيحاً مقبولاً.

ونحن نتحدث عن هذه الضوابط فيما يخص النظام الخلقي، كي تكون مقاييس بين يدي القارئ يقيس بها أعماله رجاء قبولها عند الله سبحانه.

---

(١) أخرجه الستة ورقمه عند البخاري (٧٩٣)، وعند مسلم (٣٩٧) واللفظ له.



١ ـ التطابق بين القول والعمل:

لم يحدث في حياة النبي ﷺ أنه قال يوماً شيئاً، ثم فعل خلافه، فقد كان التوافق تاماً بين قوله وفعله، قبل الرسالة وبعدها، في مكة، وفي المدينة، ولو حدث شيء من هذا لكان حجة لأعدائه يتمسكون بها..

ولكن هذا لم يحدث.

ومع مطلع المرحلة المدنية من حياة المسلمين جاءت الآيات الكريمة لتبني في الصحابة هذا الخلق الكريم.

فقد سأل بعض الصحابة عن أحب الأعمال إلى الله، وقالوا: وددنا لو أن الله أخبرنا.. لعملنا، فأخبرهم رسول الله ﷺ بأنه الجهاد، فكره بعضهم ذلك، فجاءهم العتاب الشديد في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾(١).

وجاءت التربية القرآنية بهذا في مكة على لسان شعيب عليه السلام، عندما قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾(٢).

يقول لقومه: ليس من شأني أن أنهاكم عن الشيء ثم أفعله. فهذه الصفة السيئة ما كان للأنبياء عليهم السلام أن يتصفوا بها.

وقد ذم الله تعالى الشعراء، وذكر من جملة أسباب الذم ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الصف، الآيتان (٢-٣).
(٢) سورة هود، الآية (٨٨).
(٣) سورة الشعراء، الآية (٢٢٦).



وعدم التطابق بين القول والفعل، هو السلوك الذين تميز به المنافقون. وقد قال الله تعالى في شأنهم:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

وهكذا يكذبهم الله، لا يكذب قولهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وإنما يكذبهم بعدم توافق قولهم مع فعلهم وسلوكهم، من جانب، وبعدم تطابق قولهم مع نيتهم وهو خلل آخر.

إن التطابق بين القول والعمل هو المعلم الأول من معالم صحة العمل.

٢ ـ القصد (النية):

والضابط الثاني لسلامة العمل، هو مطابقة «القول والفعل» للنية. وهو ما نتحدث عنه في الفصل التالي تحت عنوان «الإخلاص».

٣ ـ التوافق مع خط «الأسوة»:

كان الضابط الأول الصحة العمل: التطابق بين القول والفعل.

وكان الضابط الثاني: تطابقهما (القول والفعل) مع النية.

فهل يكتفي بهما؟.

والجواب: إنه لا بد من تحقق ضابط ثالث. وهو أن يكون العمل برمته (قولاً وفعلاً ونية) متساوقاً مع خط المنهج أو خط الأسوة.

وقد سبق لنا الحديث عن هذا الجانب في الفصل الأول من هذا المقصد،

---

(١) سورة المنافقون، الآية (١).



عندما قلنا: إن أخلاق النبي ﷺ هي المقياس الذي تقاس به الأخلاق للتأكد من سلامتها.

وقلنا: إنه لا بد من المقياس حتى لا نقع في الخلل.

وقد أكد القرآن هذا الأمر فقال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

إنه ﷺ القدوة. والقدوة يقتفى أثره.

فلا بد للعمل حتى يكون صالحاً أن يكون على خط الأسوة واقتفاء الأثر.

وقد أوضح النبي ﷺ بعض ما تعنيه الآية الكريمة بقوله:

(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)(٢).

والمثال على ذلك: ما سبق ذكره في «التمهيد» من حديث المسيء صلاته.

فهذا الصحابي، دخل المسجد، ثم صلى..

وكان قوله وفعله مطابقاً لنيته.

ولكن «القول والفعل والنية» لم تتساوق مع ما جاء به النبي ﷺ في كيفية الصلاة حيث قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)(٣).

فقال له ﷺ: (ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ).

إن فقدان التأسي والاتباع، جعل العمل باطلاً.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٢١).

(٢) متفق عليه (خ ٢٦٩٧، م ١٧١٨) واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣١).

الخلاصة:

لا بد في العمل الأخلاقي حتى يوصف بالحسن ـ وكذلك كل عمل[1] ـ من توفر ثلاثة أمور:

- لا بد أن يكون العمل ـ قولاً كان أو فعلاً ـ مما يوصف بالحسن.

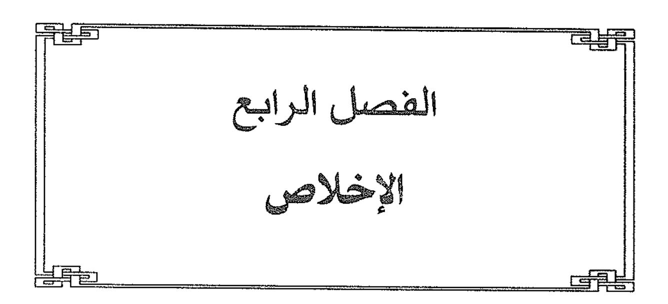
- ولا يكفي أن يوصف ظاهره بالحسن، فلا بد أن يكون الباعث عليه (أي النية) حسناً ومتوافقاً مع ظاهره.

- ولا يكفي حسن العمل وحسن نيته، بل لا بد أن يكون متوافقاً مع المنهج.

---

(١) ليست هذه الضوابط خاصة بالأخلاق، بل هي من خواص المنهج الإسلامي، ولذا فهي ضوابط في جميع الأنظمة المنبثقة عنه.
وقد سبق للمؤلف أن طبقها حين تحدث عن «الظاهرة الجمالية في الإسلام».
وانظر ـ إن شئت ـ كتاب الظاهرة الجمالية في الإسلام ص (٢٠٥-٢٣٨). وكتاب التربية الجمالية في الإسلام ص (١٥٩-١٦٨) وكلاهما من طبع المكتب الإسلامي.





الفصل الرابع

الإخلاص

معنى الإخلاص:

إن كل «شيء» ـ مادة كان أو معنى ـ يمكن أن يخالطه غيره من الشوائب. فإذا صفا عن هذه الشوائب وخلص منها، سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: «إخلاصاً»[(١)].

وإذا أطلق الإخلاص بمعناه الإسلامي، فالمقصود: أن يكون الباعث على العمل الذي يقوم به الإنسان، هو ابتغاء مرضاة الله وحده، ولا يخالط هذا الباعث أي أمر آخر من شهوات النفس وغيرها.

وقد ورد الأمر بالإخلاص في آيات كثيرة نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾[(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين. للإمام الغزالي (٤/ ٣٧٩).
(٢) سورة البينة، الآية (٥).
(٣) سورة الزمر، الآيتان (٢-٣).
(٤) سورة الزمر، الآية (١٤).



وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

إخلاص النبي ﷺ:

ما من شك في إخلاصه ﷺ فهو الذي بين معاني الآيات السابقة بسلوكه وعمله، كما بين معانيها بأقواله خلال عمليته التربوية لأصحابه رضي الله عنهم.

ويكفي شهادة على إخلاصه ﷺ ثناء الله تعالى عليه في آيات كثيرة، ولولا إخلاصه ﷺ لما كان هذا الثناء ممن يعلم الجهر وما يخفى.

ومما يلفت النظر أن كتّاب شمائله ﷺ لم يذكروا أمر الإخلاص، وإنما شغلهم الاهتمام بالأمور الظاهرة التي يجدون عليها الشواهد والأمثلة التي تغني الموضوع الذي يتحدثون عنه كالشجاعة والكرم..

والإخلاص عمل القلب، ولا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

وأما بحقه ﷺ ـ فكما قلت ـ فشهادته سبحانه. لا تحتاج إلى تأكيد.

وسنتعرف على مكانة الإخلاص عنده ﷺ من خلال أقواله التي نسوقها ضمن الموضوع، ففيها البيان الذي ليس بعده بيان.

عناصر الإخلاص ومقوماته:

وللتعرف على الإخلاص لا بد من وجود أمرين:

- التعرف على «النية» التي يكمن فيها سر الإخلاص.

- تخليص هذه النية من الشوائب، والتعرف على هذه الشوائب حتى يحذرها المسلم ليكون في مأمن من أن يحبط عمله.

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان (١٦٢-١٦٣).

وسنحاول في الفقرات التالية بيان هذين الأمرين بقدر الاستطاعة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

التعريف بـ «النية»:

قال الإمام النووي: النية القصد، وهي عزيمة القلب.

وقال البيضاوي: النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضر، حالاً أو مآلاً، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضاء الله وامتثال حكمه(١).

ولو رجعنا إلى السيرة النبوية لوجدنا فيها ما يبين لنا ذلك بوضوح وجلاء.

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة من أجل إقامة شعائر دينهم وامتثالاً لأمر رسولهم ﷺ. ولكن رجلاً واحداً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد بذلك فضيلة الهجرة وإنما ليتزوج امرأة تسمى أم قيس(٢). فكان يقال له مهاجر أم قيس.

ويأتي الحديث الشريف تعقيباً على ذلك مبيناً قِيم الأعمال.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: (يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى:

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله.

ومن هاجر إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)(٣).

وحديثه ﷺ في هذه المناسبة بيان عملي يقوم على أرض الواقع، ويشرح من خلاله المعنى الكبير والأصل العظيم من مفاهيم هذا الدين.

---

(١) فتح الباري (١/ ١٣).

(٢) فتح الباري (١/ ١٠) وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) متفق عليه (خ ٦٩٥٣، م ١٩٠٧).

هناك مهاجران، كل منهما ترك بلده وأرضه التي نشأ فيها، وأهله ومحبيه وجيرانه، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في ظروف صعبة، ثم استقر في المدينة.

- ولكن الأول فعل ذلك بدافع إقامة شعائر الله تعالى.

- وفعل الثاني ذلك بدافع الوصول إلى امرأة يتزوجها.

فالعمل الذي قام به الرجلان واحد.

ولكن الباعث والدافع مختلف.

هذا الدافع والباعث هو ما سماه الرسول الكريم ﷺ: «النية».

فالنية لدى الأول متفقة مع العمل الذي قام به. فكان مهاجراً بحق.

بينما كانت النية لدى الآخر غير متطابقة مع ما شرعت الهجرة له، فلم يكن له من فضل الهجرة ومكانتها شيء.

وإذا فهمنا المعنى الذي أوضحه الحديث فلا يهمنا بعد ذلك أمر التعريفات.

الشوائب التي تطرأ على النية:

كثيرة هي الشوائب التي قد تتسرب إلى النية، فتشوه جمالها، وتعكر صفاءها وتحرف وجهتها.

ومهمة «الإخلاص» هو تخليص النية مما تسرب إليها، والمحافظة على جمالها وصفائها. وهو أمر يحتاج إلى جهد غير قليل.

ويحسن بنا أن نقف على أعظم هذه الشوائب خطراً:

١ ـ الرياء:

وهو أن يطلب الإنسان بالعبادة وإظهارها، المنزلة في قلوب الناس.

وهو من صفات المنافقين، التي وصفهم القرآن الكريم بها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وهو الشرك الأصغر، كما ورد في قوله ﷺ:

(إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء)[2].

وقال ﷺ: (قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)[3].

وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على طهارة النفوس من هذا المرض الخبيث الذي يفتك بالعمل فيذهب به ولا يبقى لصاحبه إلا الحسرة والندامة، فقال مبيناً ومحذراً من ذلك:

(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي ورجاله ثقات. قاله العراقي في تخريج الإحياء.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[1].

٢ ـ رغبات النفس:

وقد لا يقوم الإنسان بالعمل ليراه الناس، ولكنه مع ذلك يرغب في التزين عندهم، بطلب مدحهم، أو الهرب من ذمهم، أو تعظيمهم..

ويدلنا على هذه الرغبات أسئلة الصحابة رضي الله عنهم المتكررة في هذا الصدد.

فعن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: (لا أجر له). فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عد إلى رسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال: (لا أجر له) فقالوا للرجل: عد لرسول الله ﷺ.. فقال له الثالثة: (لا أجر له)[2].

والحديث يبين لنا الصورة واضحة جلية، كيف كان حرص الصحابة رضي الله عنهم أن يكون جوابه ﷺ غير ما أجاب به، ولذلك طلبوا من الرجل أن يعود مرة بعد مرة ليكرر السؤال لعله يجد جواباً آخر.

والصحابة بشر من البشر، لهم رغبات ولهم شهوات.. ولكنهم كانوا يسمعون كلام رسول الله ﷺ فيخضعون رغباتهم وشهواتهم لما يطلبه الله وما يطلبه رسوله منهم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٥١٦)، وأخرج النسائي مثله عن أبي أمامة برقم (٣١٤٠) وفيه «أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر».



وإذا كان هذا السائل قد خص سؤاله بعرض الدنيا المادي، فهناك سائل آخر نوَّع المسألة، فتناول ما يرغب به الناس عادة من مادة ومن معنى.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال أعرابي للنبي ﷺ:

الرجل يقاتل للمغنم.

والرجل يقاتل ليذكر. ويقاتل ليرى مكانه.

- وفي رواية: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء -.

فأي ذلك في سبيل الله؟.

فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1].

أي ليس شيء مما ذكر في سبيل الله.

وهكذا ومن خلال أحاديثه ﷺ وبيانه تعلم الصحابة كيف يكون الإخلاص، وكيف يجاهدون نفوسهم ويقاومون نزعاتها حتى يصلوا إلى صفاء العمل الذي يجعله مقبولاً عند الله تعالى.

الإخلاص عمل القلب:

تبين مما سبق أن الإخلاص من أعمال القلب.

ولهذا فأمره يتعلق بصاحب العمل ذاته، وهو الذي يحكم على نفسه بالإخلاص أو عدمه.

وليس هناك من مقياس بأيدي الناس يقيسون به إخلاص شخص ما، إنما مرد ذلك للشخص نفسه، فهي قضية تخصه أمام الله سبحانه.

وقد ذم الله المنافقين في كتابه الكريم، حين جعلوا من أنفسهم حكاماً يحكمون على نيات الناس ودوافعهم.

(١) متفق عليه (خ ٣١٢٦، ٧٤٥٨، م ١٩٠٤).



أخرج الشيخان عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة، كنا نحامل[1]، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه. فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾[2] الآية[3].

فالإخلاص ميدان عمله النية، وهي إنما مكانها القلب.

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرنا.. مع قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) فيقول في نفسه عند تدريسه، أو تجارته، أو أكله: نويت أن أدرِّس لله، أو آكل لله، ويظن ذلك نية وهيهات!! فذلك حديث نفس، وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر. والنية بمعزل عن جميع ذلك، وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها..»[4].

وهذا الكلام في غاية الدقة، فليست النية كلمة «نويت» ولا هي حديث نفس، وليست خاطراً يمر سريعاً بالفكر. وإنما هي عمل يعزم القلب عليه..

الإخلاص يدخل جميع الأعمال:

والإخلاص ليس شيئاً مستقلاً قائماً بذاته، وإنما يقوم بغيره، إذ هو معنى من المعاني، والمعاني لا تقوم بذاتها. ولذا لا يقال: عمل اليوم فلان إخلاصاً، إلا إذا أردنا أنه عمل عملاً فأخلص فيه. وإنما نقول: أخلص فلان في عمله، وأخلص في صومه.

---

(١) نحامل: معناها: أن النبي ﷺ كان يحضهم على الصدقة، فكان الذي لا يجد عنده ما يتصدق به يذهب إلى السوق فيحمل للناس أمتعتهم بأجر، ثم يأتي ويتصدق به كما فعل راوي الحديث أبو مسعود الأنصاري، وحديثه في البخاري برقم (٢٢٧٣).

(٢) سورة التوبة، الآية (٧٩).

(٣) متفق عليه (خ ٤٦٦٨، م ١٠١٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٣).

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه)[1].

فجعل الإخلاص وصفاً في العمل.

فالإخلاص يدخل جميع الأعمال، وهو ضابط من ضوابط حسن العمل، كما ذكرنا في الفصل السابق.

ولعل هذا المعنى هو الذي دفع الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ ليفتتح كتابه «الجامع الصحيح» بحديث (إنما الأعمال بالنيات)، كما دفع الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ إلى افتتاح كتابه «رياض الصالحين» بـ «باب الإخلاص وإحضار النية».

الأجر على النية:

آن لنا أن نتوقف عند السؤال التالي:

هل النية وحدها إذا لم تتجسد في «عمل» محل للأجر أو الوزر؟.

وللإجابة على هذا السؤال، يحسن بنا أن نقرأ النصوص التالية:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: (إن بالمدينة أقواماً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم) قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)[2].

والمفسرون يوردون هذا الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٣١٤٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٣) وهو عند مسلم عن جابر برقم (١٩١١).
(٣) سورة التوبة، الآية (٩٢).

قال ابن كثير في تفسيرها: «قال العوفي عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله ابن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا، فقال لهم: (والله لا أجد ما أحملكم عليه) فتولوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه» أ هـ.

ثم ذكر ابن كثير حديث أنس برواياته المتعددة.

وإذن، فهؤلاء قامت النية في قلوبهم. فاندفعوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يساعدهم بما يوصلهم إلى أرض المعركة... ثم كانوا مع المجاهدين بقلوبهم وعواطفهم، قلقين ينتظرون أخبارهم. فاستحقوا على نيتهم وعزمهم الأجر كله، كما جاء في رواية مسلم: (إلا شركوكم في الأجر).

وفي الجانب الآخر يقول أبو بكرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)[(١)].

فالمقتول هنا: كانت النية قائمة لدية، لقتل صاحبه لو استطاع.

وإذن فالنية، يقابلها الأجر إنْ كانت في الخير، ويقابلها الوزر إن كانت في الشر.

ولكن الأمر الذي لا بد من التأكيد عليه: أن النية ـ كما قال الإمام الغزالي ـ ليست مجرد الخاطر، أو حديث النفس، أو قول «نويت» وإنما هي: القصد. كما قال الإمام النووي، أو انبعاث القلب، كما قال البيضاوي.

يؤيد ذلك: ما جاء في المثالين السابقين، فالذين تولوا وأعينهم تفيض من الدمع. قصدوا للقيام بالعمل.. ولكن حالت العوائق دون ذلك. والذي قتل، حمل السيف. ولو أتيح له لفعل ولكن الخصم كان أسرع..

(١) متفق عليه (خ ٣١، م ٢٨٨٨).

وفي الحديث: (من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة)[1] والهمّ أول العزم.

الإخلاص والعمل:

ما من شك بأن على الإنسان المسلم أن يطالب نفسه بالإخلاص، حتى يجني ثمرة عمله، ولكن هل يترك العمل إذا لم يتحقق فيه الإخلاص؟.

ونترك الإجابة على هذا السؤال للإمام الغزالي، قال:

«لا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك بغية الشيطان منه، إذ المقصود، أن لا يفوت الإخلاص، وإذا ترك العمل، فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً».

ثم نقل الإمام الغزالي نصيحة أبي سعيد الخراز لأحد تلامذته. إذ قال:

«إن الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك: اترك العمل، وإنما قلت لك: أخلص العمل».

«وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الخلق رياء، والعمل لأجل الخلق شرك، والاخلاص أن يعافيك الله منهما»[2].

عاجل بشرى المؤمن:

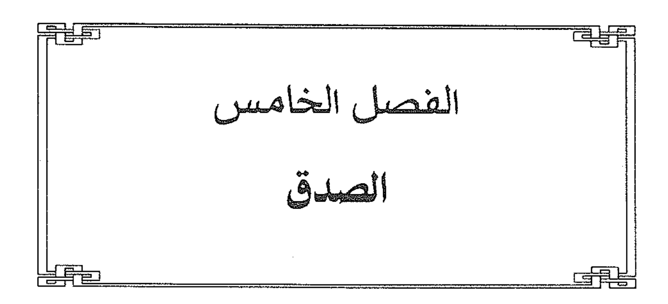
نخلص مما سبق إلى أنه على المسلم أن يسعى جاهداً في تخليص «الأعمال» مما يشوبها من حب الشهرة والمدح وغير ذلك.

ولكن لو مدح الناس إنساناً على عمل قام به، هل من حرج عليه؟.

قال أبو ذر رضي الله عنه: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[3].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٩١، م ١٣٠).
(٢) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٤٠٣) للمؤلف. دار القلم بدمشق. (١٤١٣هـ).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٤٢).



الفصل الخامس
الصدق

التعريف بالصدق:

الخبر الصادق: هو الخبر المطابق للواقع.

والخبر الكاذب: هو الخبر المخالف للواقع.

ولا يوصف الإنسان بالصدق، إلا إذا التزم الصدق ولم يجرب عليه الكذب.

وقد وجّه القرآن الكريم إلى التزام الصدق. فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

وعندما عدد القرآن الكريم الذين أعدَّ الله لهم المغفرة والأجر العظيم، كان من جملتهم: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾(٢).

الصادق المصدوق ﷺ:

عرف النبي ﷺ بالصدق، قبل البعثة وبعدها. وكان ذلك أمراً معروفاً في مكة قبل البعثة، يعرفه الصغير والكبير.

ولذلك لما نزل عليه الوحي للمرة الأولى، قال لخديجة رضي الله عنها: (لقد خشيت على نفسي) وأخبرها الخبر. فقالت خديجة: كلا، أبشر، فوالله

(١) سورة التوبة، الآية (١١٩).
(٢) سورة الأحزاب، الآية (٣٥).

لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(١).

وهكذا سجلت خديجة هذه الحقيقة التي يعرفها كل أهل مكة، وذلك قبل النبوة، وفي مقدمة ما ذكرت: صدق الحديث.

وقد اتهمه أهل مكة بالجنون والسحر، ولكنهم لم يتهموه بالكذب، وإنما كان تكذيبهم لما جاء به، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٢).

وقد شهد أعداؤه من الكفار بصدقه:

ففي حديث أبي سفيان قبل إسلامه عند هرقل، وقد سأله هرقل فقال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلت: لا.

ثم قال هرقل: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله(٣).

ولقد بلغ من تصديق الكفار له، أنهم كانوا يصدقونه بكل ما يقول، حتى ولو كان أمراً مستقبلاً لم يحدث بعد.

أخرج البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: «انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بن خلف. وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد. فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس، انطلقت فطفتَ.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩٥٣، م ١٦٠) والكلّ: الضعيف.
(٢) سورة الأنعام، الآية (٣٣).
(٣) متفق عليه (خ ٤٥٥٣، م ١٧٧٣).

فبينما سعد يطوف، إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً، وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم فتلاحيا بينهما.

فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي.

ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام.

قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك وجعل يمسكه.

فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك.

قال: إياي؟.

قال: نعم.

قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث.

فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمد..»[(١)].

وهكذا يحدث سعد بن معاذ عن أمر مستقبل قاله النبي ﷺ، فلم يكن من أمية وزوجته أي تردد في تصديقه تصديقاً تاماً، بل إنه أخذ من نفسه مأخذه، ففزع لذلك فزعاً شديداً، كما في الرواية الثانية[(٢)].

حضه ﷺ على الصدق وتحذيره من الكذب:

تلك سيرته ﷺ في التزامه الصدق بأدق معانيه.

وقد ربى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك، فكان يحثهم على التزام الصدق، ونبذ الكذب والابتعاد عنه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٣٢).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٩٥٠) وقد قتل في بدر كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

ولا يكون الصدق إذا لم تكن الطهارة من الكذب. ولهذا يكون الحديث عنهما معاً، فهما متلازمان تلازم تضاد، لا يوجد أحدهما مع وجود الآخر.

قال عبدالله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ:

(إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً.

وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(١).

فهما طريقان: أحدهما يوصل إلى الجنة ويبدأ بالصدق، والثاني يوصل إلى النار ويبدأ بالكذب.

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يحدث عند النبي ﷺ بالكذبة، فما يزال في نفسه، حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»(٢).

والصدق خلق ينبغي التزامه في كل أمر، صغيراً كان أو كبيراً.

فعن عامر بن ربيعة قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال، أعطيك. فقال لها رسول الله ﷺ: (وما أردت أن تعطيه)؟ قالت: أعطيه تمراً، فقال لها رسول الله ﷺ: (أما إنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة)(٣).

وفي هذا الحديث من التربية النبوية تقرير لقاعدة كبرى في تنشئة الطفل. فإن الصغير إذا رأى الكبير يكذب. اعتبر ذلك أمراً سائغاً، فنشأ على الكذب.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٩٤، م ٢٦٠٧).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٩٧٣).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٩١).



فلو جاء هذا الطفل إلى أمه بعد أن قالت له: تعال أعطيك، ثم لم تعطه شيئاً لاستساغ الكذب لنفسه أولاً، ولَمَا صدق أمه إذا قالت له: تعال في مرة أخرى ثانياً.

وقد أكد الرسول ﷺ على التحذير من الكذب، حتى فيما يظنه بعض الناس من الأمور الصغيرة التي لا يؤبه لها. فالصدق دائماً هو الصدق.

عن أسماء بنت يزيد قالت: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بطعام، فعرض علينا، فقلنا: لا نشتهيه، فقال: (لا تجمعن جوعاً وكذباً)[1].

وقد جاء في رؤيا لرسول الله ﷺ - ورؤيا الأنبياء نوع من الوحي - بيان عقوبة الكذب.

قال ﷺ: (أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي انطلق...

فانطلقنا: فأتيا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعيناه إلى قفاه، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق..).

(قال: قالا لي أما إنا سنخبرك... وأما الرجل الذي أتيت عليه، يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق..)[2].

ولا يخرج الكذب الذي يكون لإضحاك الناس عن كونه كذباً، بل هو من أسوأ الكذب. فقد جاء فيه الوعيد الشديد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٢٩٨).
(٢) متفق عليه (خ ٧٠٤٧، م ٢٢٧٥) وهذا ينطبق على الكذب في وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز.





عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ويل للذي يحدث فيكذب، ليضحك به القوم، ويل له، ويل له)[1].

إن من أراد الصدق فعليه تطهير نفسه من الكذب، جده وهزله، وتلك هي الاستقامة التي ربى عليها الرسول الكريم أصحابه.

وبعد: فالكذب هو أبرز صفات المنافقين، التي ينبغي للمسلم أن يحذرها.

الكذب على النبي ﷺ:

من أقبح أنواع الكذب، الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر في أحاديث بلغت حد التواتر.

قال ﷺ: (إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[2].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً، أن النبي ﷺ قال: (من تعمد علي كذباً، فليتبوأ مقعده من النار)[3].

ولا شك بأن الكذب على النبي ﷺ ـ كما جاء في الحديث ـ ليس كالكذب على الناس، ذلك أنه الأسوة للمسلمين في أقواله وأفعاله.

فالكذب عليه يدخل في دين الله تعالى ما ليس منه.

ولهذا المعنى أحجم كثير من الصحابة والتابعين عن الحديث عنه ﷺ خوفاً من الوقوع في الكذب عليه.

ولقد قيض الله تعالى من علماء الأمة من قام بالذبِّ عن أحاديثه ﷺ وبيان المكذوب والموضوع.

---

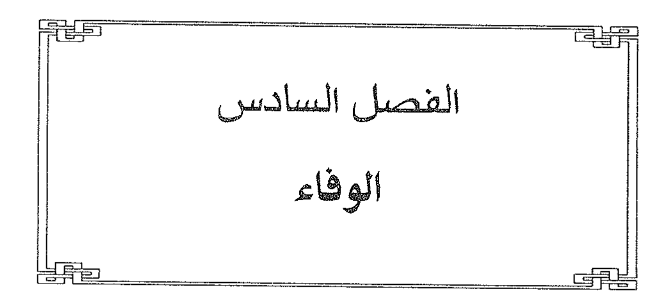
(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٤٩٠)، والترمذي برقم (٢٣١٥) والدارمي برقم (٢٧٠٢) وكذا الإمام أحمد.

(٢) متفق عليه (خ ١٢٩١، م ٤).

(٣) متفق عليه (خ ١٠٨، م ٢).







الفصل السادس
الوفاء

ينضوي تحت هذا العنوان:

- الوفاء بالوعد.
- الوفاء بالعهد.
- حسن العهد.

والوفاء لا يخرج عن دائرة «الصدق» ولذلك تحدث عنه كثيرون عندما تحدثوا عن الصدق.

ولكنه عند إمعان النظر، يتميز عن الصدق بأنه يأتي نتيجة لالتزام مادي مسبق كما في الوفاء بالوعد والعهد، أو تعبيراً عن التزام أدبي كما في حسن العهد.

فالوفاء بالوعد لا يكون إلا بعد وجود الوعد، وكذلك الوفاء بالعهد.

الوفاء بالوعد:

أثنى الله تعالى على إسماعيل، وذكره بهذا الخلق فقال:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[١].

فقد أثنى الله عليه بصدق الوعد ـ وإن كان جميع الأنبياء كذلك ـ لأنه كان مبالغاً فيه، ويكفيه أن وعد أباه أن يصبر على الذبح فوفى بذلك.

(١) سورة مريم، الآية (٥٤).



وقد كان نبياً ﷺ مثالاً يحتذى وأسوة تتبع في ذلك.

ويكفينا في الدلالة على ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه، لما تولى الخلافة، أعلن للمسلمين: أنه من كانت له عدة عند النبي ﷺ أو دين فليأتنا.

وما فِعْلُه ذلك - رضي الله عنه - إلا لما يعلم من حرصه ﷺ على الوفاء بالوعد.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (لو قد جاء مال البحرين قد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا) فلم يجيء مال البحرين حتى قبض النبي ﷺ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر فنادى: من كان له عند النبي ﷺ عدة أو دين فليأتنا، فأتيته فقلت: إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا، فحثى لي حثية، فعددتها، فإذا هي خمسمائة، وقال: خذ مثليها[١].

وعن أبي جحيفة قال: رأيت رسول الله ﷺ أبيض قد شاب، وكان الحسن ابن علي يشبهه، وأمر لنا بثلاثة عشر قلوصاً[٢]، فذهبنا نقبضها فأتانا موته، فلم يعطونا شيئاً. فلما قام أبو بكر قال: من كانت له عند رسول الله ﷺ عدة فليجيء، فقمت إليه فأخبرته، فأمر لنا بها[٣].

وهكذا قام أبو بكر يفي بالوعود التي حالت وفاة رسول الله ﷺ دون وفائها. تنفيذاً لقوله ﷺ والتزاماً بسنته.

الوفاء بالعهد:

والعهد كالوعد، إلا أنه يزيد عليه بالتوثيق، الذي يقدمه صاحب العهد من إيمان مؤكدة، أو كتابة موثقة.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٢٩٦، ٣٣١٤).

(٢) القلوص: الشابة من الإبل.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٨٢٦) وأصله في البخاري برقم (٣٥٤٤).

والآيات الواردة بالأمر بالوفاء بالعهد كثيرة نذكر منها:

قال تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[(٣)].

وقد وصف الله تعالى المتقين، فكان من جملة أوصافهم الوفاء بالعهد.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾[(٤)].

وإذا رجعنا إلى الشمائل الشريفة وجدنا شواهد لا تحصى من التزامه ﷺ بالوفاء بالعهد وحضه على ذلك بقوله، والتحذير من الغدر وآثاره السيئة في الدنيا والآخرة.

أخرج مسلم عن حذيفة بن اليمان، قال: ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي، حسيل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً؟ قلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: (انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[(٥)].

هذا في وقت أحوج ما كان فيه المسلمون إلى من يكون معهم بسبب قلة عددهم، وكثرة عدوهم.

وكان من شروط صلح الحديبية: أن من جاء محمداً من قريش رده عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يردوه عليه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية (١٥٢).
(٢) سورة النحل، الآية (٩١).
(٣) سورة الإسراء، الآية (٣٤).
(٤) سورة البقرة، الآية (١٧٧).
(٥) أخرجه مسلم برقم (١٧٨٧).



وما إن وصل الرسول ﷺ المدينة، حتى استطاع أبو بصير، عتبة بن أسيد الثقفي أن يفلت من سجنه في مكة ويأتي إلى المدينة.

وأرسل المشركون في طلبه إلى رسول الله ﷺ، فقالا: العهد الذي جعلت لنا، فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا بصير، أنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك).

قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!.

قال: (يا أبا بصير، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً).

ودفعه إلى الرجلين(١).

وإذا أتيح لنا أن نتخيل ذلك الموقف، فلم يكن من السهل عليه ﷺ أن يدفع صاحبه إلى المشركين، ولكن الالتزام بالعهود والمواثيق هو شرع الله ودينه، وإنما يظهر الالتزام بالتطبيق في المواقف العصيبة.

ولنستمع إلى أبي رافع يذكر لنا قصة بدء إسلامه. قال:

بعثتني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ ألقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: (إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد، ولكن ارجع، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن، فارجع) قال: فذهبت، ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت(٢).

ولم يكتفِ ﷺ بسلوكه العملي في بيان الحض على الالتزام بالوفاء بالوعود والعهود بل جاءت أحاديثه الكثيرة في هذا الميدان لتؤكد ذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢٣) والحديث في البخاري برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٧٥٨) والبرد: جمع بريد: والمقصود من يحمل الرسالة.



عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غَدرة فلان بن فلان)(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم من غدراً من أمير عامة)(٢).

وعن أبي هريرة رضي لله عنه، قال رسول الله ﷺ: (قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر..)(٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين صفات المنافقين. منها: .

(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)(٤).

(أربع من كن فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)(٥).

وهكذا كان ﷺ بفعله وأقواله مبيناً مكانة الوفاء بالوعد والعهد. وارتباطها بالإيمان.

حسن العهد:

حسن العهد وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً، وإكرام معارفه. هو «الوفاء» عند إطلاق الكلمة.

---

(١) متفق عليه (خ ٦١٧٨، م ١٧٣٥).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٣٨).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٢٢٧).
(٤) متفق عليه (خ ٣٣، م ٥٩).
(٥) متفق عليه (خ ٣٤، م ٥٨).

وكان لرسول الله ﷺ السبق في ذلك كله.

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن»(١).

وجاء عنه ﷺ أن عجوزاً دخلت عليه، فأكرمها، فقيل له في ذلك، فقال: (إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين)(٢).

وهكذا مضت الأيام، ونأى العهد، ومع ذلك ما زال رسول الله ﷺ يذكر خديجة رضي الله عنها، ويذكر أيامها، حتى آخر حياته ﷺ، وهذا هو الوفاء.

هل كان قتل كعب غدراً؟.

كعب بن الأشرف، أبوه عربي من طيء، وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق من بني النضير، الذين حالفهم الأب وتزوج منهم.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، كتب وثيقة تحدد العلاقات بين سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود.

ومن جملة بنود الوثيقة: أن النصر بين أهل هذه الوثيقة على من حاربهم، وأن بينهم النصح... والنصر للمظلوم.

وفيها: أن من خرج من المدينة فهو آمن، ومن قعد فهو آمن، إلا من ظلم أو أثم..

وجاءت غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون، فغاظ ذلك اليهود، وعندما سمع كعب بن الأشرف أسماء قتلى المشركين قال: أحق هذا؟ أترون محمداً

---

(١) متفق عليه (خ ٣٨١٦، م ٢٤٣٥) ومعنى خلائلها: صديقاتها.

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه الحاكم وهو صحيح على شرط الشيخين، وليس له علة. [المهذب من إحياء علوم الدين ١/٤٠٣].

قتل هؤلاء.. فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان أصاب محمد هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تيقن الخبر، ظاهر بالعداء وجعل يهجو النبي ﷺ وكان شاعراً، ثم خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي قتلى المشركين في بدر...

ثم رجع إلى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين[1].

ويبدو أنه ﷺ تحمل إيذاء كعب فيما يتعلق بنفسه، ولكن الأمر عندما تعدى ذلك، وخرج من دائرة الحقد الشخصي إلى التحريض وإثارة أحقاد قريش، وكان التزم بالنصح لأهل الوثيقة، ولكن بفعله هذا ينضم إلى أعدائهم.. كان لا بد من موقف آخر، غير موقف التسامح الذين التزمه النبي ﷺ.

وثالثة الأثافي: أنه جعل يتناول أعراض المسلمين فيشبب بنسائهم، وهذا الأمر وحده، وبغض النظر عما سبقه، يعد خروجاً على أعراف الجوار في الجاهلية قبل الإسلام، فكيف به وبعد الإسلام الذي يصون الحرمات، ومن إنسان التزم هو وقومه بميثاق..

إن أي منصف يدرس القضية بعيداً عن الأهواء، يقرر أن أي فعل من الجرائم الثلاث التي قام بها كعب كانت كافية لإنزال العقوبة به.

ولكنه ﷺ أمهله، حتى ضاق به صدراً، وهو ﷺ الواسع الصدر.

وعندها طلب من محمد بن مسلمة أن يقتله. قد تكون الطريقة التي اتبعها محمد بن مسلمة رضي الله عنه، في ظاهرها الغدر، ولكن الحرب خدعة، وهو بطرحه العهد أصبح محارباً.

---

(١) انظر قصته وأمر الصحيفة والمعاهدة في «من معين السيرة» من (١٦٢-١٦٥، ٢١٩) و«السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٢٨٢-٢٨٦، ٣٠٢-٣٠٤) للدكتور أكرم ضياء العمري.

فأين الغدر في هذا الحادث؟.

إن بعض أعداء الإسلام، حاولوا أن يجعلوا الحادثة غدراً منه ﷺ، ولكنهم لا يعرضون الأسباب التي أدت إليها، وهذا منتهى اللؤم والكذب في نقل الحقائق.

فلنترك هؤلاء الأعداء الجدد ولنرجع إلى رأي أعداء المسلمين زمن الرسول ﷺ لننظر رأيهم في الحادثة.

كان صلح الحديبية في أواخر العام السادس من الهجرة، التي خرج بعدها أبو سفيان في تجارة إلى بلاد الشام، وخلال وجوده هناك أدخل هو وبعض أصحابه على هرقل الذي سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ.

وكان من جملة أسئلة هرقل: فهل يغدر؟.

قال أبو سفيان: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها.

قال أبو سفيان: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه[1].

فأبو سفيان حريص على تشويه صورة النبي ﷺ، ولكنه لا يريد أن يؤثر عنه الكذب. فلما سأله: هل يغدر، قال: لا، ولكنه أراد أن يدس شيئا يتعلق بالمستقبل، فقال: إن بيننا وبينه الآن اتفاقاً فما ندري هل يفي أم يغدر؟.

أبو سفيان هذا، وهو الذي يترأس عداوة النبي ﷺ، حين سئل هذا السؤال قال: لا يغدر، ولا شك أنه كان على علم بحادثة كعب بن الأشرف، صديقه وصديق قريش. وقد مضى عليها قرابة أربع سنوات، لماذا لم يستغل الفرصة ويقول: إنه غدر بكعب بن الأشرف. إنه لم يفعل ذلك لأنه ما أراد الكذب ولم تكن قضية قتل كعب غدراً. بل إن قومه من اليهود أنفسهم، لم يقولوا ذلك. ولم يكن هناك ما يمنعهم يومئذٍ من رفع أصواتهم بأن النبي ﷺ قد غدر بهم، ولكنهم لم يفعلوا، لمعرفتهم بملابسات القضية وأسبابها.

---

(١) مقابلة أبي سفيان لهرقل أخرجها الشيخان (خ ٧، ٤٥٥٣، م ١٧٧٣).



وكل ما هنالك: أنهم أتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: طُرِقَ صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول. ودعاهم إلى كتابة عهد يكون تأكيداً لما سبق من الوثيقة وحصل ذلك، وكتب كتاباً[(١)]، ولكنهم لم يلتزموا به على عادتهم، كما هو شأنهم دائماً.

خائنة الأعين:

لما كان يوم فتح مكة، أمن رسول الله ﷺ الناس، إلا أربعة نفر، وقال: (اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة..) ومنهم عبدالله بن سعد ابن أبي سرح. وما ذاك إلا لعظم جرائمهم.

وسمع عبدالله بذلك، فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، جاء به عثمان حتى أوقفه على النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، بايع عبدالله، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى رسول الله ﷺ أن يبايعه، ثم بايعه بعد ثلاث.

ثم أقبل على أصحابه فقال: (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله)؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلا أومأت إلينا بعينك، قال: (إنه لا ينبغي أن يكون لنبي خائنة الأعين)[(٢)].

وإذا كان ﷺ يرى في خائنة الأعين خيانة وغدراً. فكفى به وفاء وأمانة، ولن يزيد أحد شيئاً في وصف أخلاقه بعد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)].

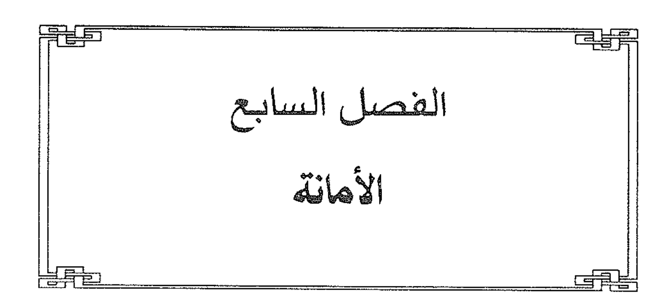
---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي (د ٢٦٨٣، ٤٣٥٩، ن ٤٠٧٨).

(٣) سورة القلم، الآية (٤).





الفصل السابع
الأمانة

الأمر بأداء الأمانة ورعايتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[(٣)].

التعريف بالأمانة:

وُصِفَ النبي ﷺ بـ «الأمين» قبل البعثة. فهل كان ذلك لمعنى واحد، كان قائماً فيه ﷺ؟.

لا شك بأن وصفه بالأمين كان لمجموعة من المعاني: فهو الصادق في حديثه.

وهو المحافظ على الوديعة إذا ائتمن عليها، وهو الحكم العدل إذا حكم في أمر.. وهو..

ويذكر القرآن الكريم في وصف موسى عليه السلام، على لسان ابنة

---

(١) سورة النساء، الآية (٥٨).
(٢) سورة المعارج، الآية (٣٢).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٢٧).

الشيخ الكبير قولها:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[(١)].

ولئن قلنا إنها عرفت قوته بقدرته على السقاية على الرغم من آثار السفر المتعبة، البادية عليه، فإننا نتساءل: كيف عرفت أمانته؟ لا شك بأنها لم تستودعه شيئاً، فحفظه لها..

إنها عرفت أمانته من نخوته التي دفعته للسقاية لهما، وعرفت أمانته مما وجدت من عفة لسانه وعفة نظره حين توجهت لدعوته.. فالأمين على العرض أمين على ما سواه..

نخلص من هذا إلى أن الأمانة معنى قائم في النفس، له دوره في شتى ميادين الحياة كبيرها وصغيرها. وليس قاصراً على المعنى الضيق المتعلق بحفظ الودائع.

ومما يلفت النظر أن لفظ «الأمانة» قد ورد في الآيات التي في الفقرة الأولى بصيغة الجمع، ولعل هذا مما يؤكد أن هناك أمانات..

ميادين الأمانة:

رأينا في الفقرة السابقة أن عمل الأمانة ليس قاصراً على ميدان واحد، وإنما هي داخلة في كل ميادين الحياة.

وسوف نستعرض بعض هذه المجالات في ضوء هديه ﷺ.

١ ـ الأمانة واختيار عمال الدولة:

لقد أوضح الرسول الكريم ﷺ السبيل في هذا الميدان، وبينه بياناً لا لبس فيه ولا غموض، وما ذاك إلا لما لهذا الأمر من خطر في حياة الأمة.

---

(١) سورة القصص، الآية (٢٦).

فهذا الأمر لا يعطى لمن طلبه، لأن طالبه لم يدرك مسؤوليته، ولو أدركها لهرب منها هروبه من الأسد. وبين ﷺ ذلك فقال:

(إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة)[١].

وقال ﷺ: (إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه)[٢].

ويبين ﷺ الفرق بين أن يطلبها الإنسان وبين أن يلزم بها فيقول: (يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلتَ إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها)[٣].

هذا توجيه كريم لمن فكر أن يطلب الإمارة.

أما الجانب الآخر، فهو مسؤولية من يؤمر رجلاً وهناك من هو أرضى لله منه.

قال ﷺ: (من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)[٤].

وقال ﷺ: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فأمَّر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم)[٥].

وهذا أبو ذر رضي الله عنه يروي لنا قصة طلبه الإمارة.

قال: قلت يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[٦].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٨). ينبغي شرح الحديث
(٢) متفق عليه (خ ٧١٤٩، م ١٧٣٣).
(٣) متفق عليه (خ ٦٦٢٢، م ١٦٥٢).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ٤/ ٩٢ وقال: صحيح الإسناد.
(٥) أخرجه الحاكم ٤/ ٩٢ عن يزيد بن أبي سفيان. وقال: صحيح الإسناد.
(٦) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٥).

وهكذا لم يولِّ الرسول ﷺ أبا ذر لعدم توفر الأهلية فيه لهذا الأمر.

وقد بين ﷺ أن ضياع الأمانة من علامات الساعة، فلنستمع إلى تفسيره ﷺ لضياع الأمانة.

فقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: متى الساعة؟ فقال: (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قال: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)(١).

ولهذا كانت الخيانة في هذا الميدان من أعظم أنواع الخيانة، فقال ﷺ مبيناً ذلك: (ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة)(٢).

٢ ـ الأمانة والودائع:

عندما تطلق الأمانة. فإن أذهان عامة الناس تذهب إلى هذا المجال.

ولا شك بأنها ميدان أصيل في هذا الباب.

وقد كانت أمانته ﷺ في هذا الباب ـ كما في غيره ـ صورة فريدة في التاريخ. فأهل مكة الذين ناصبوه العداء، بعد دعوته إلى دين الله تعالى، واضطهدوا أتباعه واضطروه ـ في جملة ما اضطروه إليه ـ أن يذهب إلى الطائف بحثاً عن مكان للدعوة، ثم اضطروه أن يهاجر إلى المدينة.

أهل مكة هؤلاء لم يجدوا مكاناً لودائعهم إلا عنده، ولذا كان من مهمات علي رضي الله عنه بعد هجرته ﷺ أن يرد الودائع إلى أصحابها.

وتخلف علي رضي الله عنه ثلاثة أيام فرد تلك الودائع إلى أصحابها(٣).

وتلك هي ذروة الأمانة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧٣٨).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٣).

٣ ـ الأمانة في حفظ السر:

وهذا ميدان آخر يجعله الإسلام في جملة مجالات الأمانة: قال ﷺ: (إذا حدث الرجل بالحديث، ثم التفت، فهي أمانة)(١).

ومعنى التفت ـ والله أعلم ـ أي أنه يخاف أن يسمع حديثه أحد، فكان التفاتة تعبيراً عن أن هذا سر يستحفظه إياه.

ومن هذا الباب أيضاً قوله ﷺ:

(إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضى إليه، ثم ينشر سرها)(٢).

٤ ـ الأمانة في المشورة:

جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: (المستشار مؤتمن)(٣).

فمن استشار إنساناً. فقد وضع ثقته به، وائتمنه على الأمر الذي وضعه بين يديه، فمن واجبه أن يكون أهلاً لما ائتمن عليه، وأن يشير بالمصلحة ويجتهد في ذلك. فإذا أشار عليه بما هو المفسدة وكتم المصلحة، فتلك هي الخيانة.

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن مجالات الأمانة.

الأمانة والإيمان:

ربط الرسول الكريم ﷺ الأمانة بالإيمان في كثير من أحاديثه الكريمة،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٦٨) والترمذي برقم (١٩٥٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وابن ماجه والدارمي من حديث أبي مسعود، والترمذي من حديث أم سلمة (زوائد السنن على الصحيحين، للمؤلف).

وقد قرأنا في الفصل السابق قوله في صفات المنافقين والذي تردد في أحاديث كثيرة (وإذا ائتمن خان).

ومن ذلك قوله ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[1].

ولهذا كانت الأمانة صفة قائمة بذات الإنسان ملازمة له ولا تخضع لردود الفعل أياً كان حجمها.

وهذا ما أوضحه النبي الكريم بقوله ﷺ: (أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك)[2].

وكذلك ـ أيضاً ـ فهي لا تتجزأ، وقد جاء هذا واضحاً في بيانه ﷺ في الكثير من أحاديثه، منها: (من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة)[3].

وليس هناك شيء يمكن ذكره أقل من المخيط الذي هو الإبرة في هذا المجال. وإذاً، فهي إما أمانة وإما خيانة.

الأمانة العظمى:

وإذا أردنا الحديث عن أعظم الأمانات، فهي تلك التي تحملها رسول الله ﷺ، في تبليغ الرسالة وحفظ الوحي ونقله. وقد عظم الله شأن هذه الأمانة بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[4].

وقد بلغ الرسول لله ما أنزل عليه، وأشهد الله على ذلك في حجة الوداع، عندما خطب خطبته الجامعة ثم قال: (ألا هل بلغت)؟ قالوا: نعم، قال: (اللهم اشهد).

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي عن أنس بإسناد حسن.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤) والدارمي (٢٥٩٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٨٣٣).
(٤) سورة المزمل، الآية (٥).

وقد حدثت عائشة رضي الله عنها مسروقاً، وكان من جملة حديثها: «ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾(١)»(٢).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾(٣)»(٤).

وعن أنس بن مالك قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: (اتق الله، وأمسك عليك زوجك) قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه»(٥).

والحقيقة أنه يمكن أن نضيف إلى ما قالته عائشة وأنس رضي الله عنهما، أمراً آخر، وهو ما جاء في قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ

---

(١) سورة المائدة، الآية (٦٧).
(٢) متفق عليه (خ ٤٨٥٥، م ١٧٧).
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٧٧).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٧٤٢٠).
ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أنه ﷺ أخفى في نفسه ما أعلمه الله تعالى من أن زينب سوف تكون زوجة له.
[وانظر تفصيل ذلك في كتاب «من معين السيرة» ص ٣٠٣-٣٠٨].

﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[١].

فإنه ﷺ لو كان كاتما شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية، فليست أقل من الآية السابقة.

دعاء:

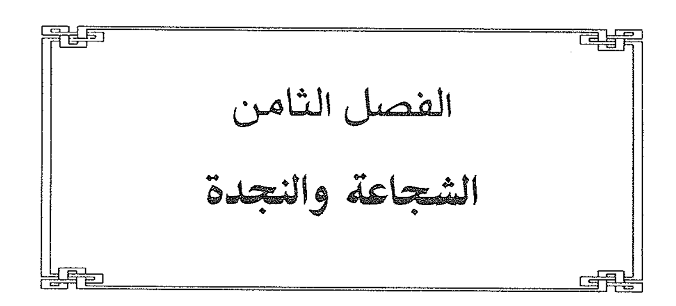
ولما للأمانة من المنزلة كان ﷺ إذا ودع مسافراً من أصحابه قال: (استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك)[٢].

إنه الدعاء والوصية.

ولما للخيانة من أثر سيء في نقض الأمانة كان من دعائه ﷺ.

(اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة)[٣].

(١) سورة عبس، الآيات (١-١١).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٤٣).
(٣) أخرجه أبو داود والنسائي (د ١٥٤٧، ن ٥٤٨٣).



الفصل الثامن
الشجاعة والنجدة

قال القاضي عياض: «وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ الكماة[1] والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرَّة وحفظت عنه جولة، سواه»[2].

شجاعته ﷺ في الحروب:

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به» يعني النبي ﷺ[3].

وقال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»[4].

وقال علي رضي الله عنه: «كنا إذا حمي البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»[5].

---

(١) الكماة: جمع كمي وهو الشجاع.
(٢) الشفا للقاضي عياض (١/١٤٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٦).
(٤) متفق عليه (خ ٣٠٤٠، م ٢٣٠٧).
(٥) أخرجه الإمام أحمد (١/١٥٦) وأبو الشيخ في أخلاق النبي (ص ٥٧) والبغوي في الأنوار برقم (٢٥٦).



وقال علي رضي الله عنه: «لقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو. وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً»[(١)].

تلك بعض شهادات أصحابه رضي الله عنهم، شهادات من مواقع المعارك، ويكفي أن ننقل بعض المشاهد في غزوة حنين التي أصاب المسلمين يومها ما أصابهم.

فهذا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ـ الذي كان البطل المعلم في غزوة ذات قرد[(٢)] ـ يتحدث عن نفسه فيقول: «فولى صحابة النبي ﷺ، وأرجع منهزماً، وعليَّ بردتان، متزراً بإحداهما، مرتدياً بالأخرى، فاستطلق إزاري، فجمعتهما جميعاً، ومررت على رسول الله ﷺ ـ منهزماً[(٣)] ـ وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: (لقد رأى ابن الأكوع فزعاً) فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته..»[(٤)].

وينقل العباس لنا مشهداً آخر فيقول: «فلما التقى المسلمون والكفار، ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع..»[(٥)].

وسأل رجل البراء فقال: أكنتم فررتم يا أبا عمارة يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولى رسول الله ﷺ، ولقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٨٦) وأبو الشيخ في أخلاق النبي (ص ٥٧) والبغوي في الأنوار برقم (٢٥٧).

(٢) وهي السرية التي أخذت فيها لقاح رسول الله ﷺ فطاردهم سلمة منفرداً واستطاع بمفرده أن يستخلص ما أخذ. وقد أخرجها الشيخان (خ ٤١٩٤، م ١٨٠٦).

(٣) منهزماً: هي حال من المتكلم ابن الأكوع، لا من رسول الله ﷺ كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة.

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٧).

(٥) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٥).



سفيان بن الحارث آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)(١).

ويصور لنا وضع ابن الأكوع هول المعركة في صورة فراره وهو آخذ ثوبيه بيده يركض عرياناً.

والرسول تارة ينزل عن بغلته ويقاتل على الأرض، وتارة يسرع في نحر العدو ويخاف عليه العباس شدة إسراعه فيحاول كف البغلة عن إسراعها.

وعلى الرغم من صعوبة الموقف وشدته، فلا يخفي رسول الله نفسه ـ وهو المستهدف ـ بل يعلن ذلك بقوله: (أنا النبي لا كذب..).

أضف إلى ذلك أنه خاض تلك الحرب على بغلة والبغال ليست كالخيل في هذه المهمة.

وما من شك أن شجاعة النبي ﷺ دونها كل شجاعة ومن تتبع سيرته، عرف ذلك يقيناً.

شجاعته ﷺ في غير الحروب:

والشجاعة تكون أيضاً في غير الحروب، عند الفزع والخوف واستشعار الخطر، وقد كان ﷺ المجلي في هذا الميدان، كما هو شأنه دائماً.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، قال: وقد فزع أهل المدينة ليلة، سمعوا صوتاً، قال: فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عري، وهو متقلد سيفه، فقال: (لم تراعوا، لم تراعوا) ثم قال رسول الله ﷺ: (وجدته بحراً) يعني الفرس(٢).

وهي صورة من صور الشجاعة النادرة.

---

(١) متفق عليه: (خ ٢٨٦٤، ٢٩٣٠، م ١٧٧٦).
(٢) متفق عليه (خ ٣٠٤٠، م ٢٣٠٧).





الناس يسمعون الصوت، فيخرجون لمعرفة الخبر، وإذا به ﷺ قد ذهب تجاه الصوت منفرداً وعرف الأمر، ثم رجع يهدئ روعهم.

كانت الفرس عرياً لأن الوقت لم يساعد على إسراجها، فركبها عرياً، وسيفه معه، فربما احتيج في مثل هذا الموطن. ثم يخبر ﷺ أن الفرس قد لبَّت رغبته في سرعتها فكانت بحراً.

فلم ينتظر ﷺ الناس حتى يخرجوا من بيوتهم، ليجد من يرافقه في معرفة الأمر، كما يفعل كل الناس في مثل هذا الموطن.

الشجاعة الفذة:

كثير من المواقف، قد تكون صولات المعارك، دونها بكثير، ولقد كان لرسول الله ﷺ من المواقف الشجاعة ما لو جمع لكان كتاباً غير صغير.

ونذكر موقفاً واحداً من هذه المواقف.

كانت حادثة الإسراء والمعراج في مكة، بعد موت خديجة وأبي طالب، وقد كانا يقفان مع الرسول ﷺ في مواجهة المشركين.

وخرج رسول الله ﷺ فأخبر المشركين بالإسراء، قبل أن يخبر به أصحابه، فكانوا بين مصفق ومستهزئ ومكذب وواضع يده على رأسه تعجباً..

ثم طلبوا منه وصف بيت المقدس فوصفه لهم..

وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا ذلك اليوم.

هذا الموقف حينما نستجمع أبعاده في فكرنا، سنجد أن كل مواقف البطولة في المعارك دون ذلك.

إنه يقف منفرداً، ليس معه أحد من أصحابه، لأنه لم يكن قد أخبر أصحابه، يخبر المشركين المكذبين له، بما لم تتسع عقولهم له، ولكنه يبرهن لهم على ذلك بوصف المسجد ووصف بعض المشاهد في الطريق.

إنه مثلاً لم ينتظر حتى يعلم أبا بكر، ليكون له عوناً في موقفه ذاك.



ولا شك بأنه ﷺ يعلم مسبقاً أن قريشاً سوف تكذبه. ولكنه ﷺ يعلن حقيقة إيمانية، وهي لا تحتاج إلا مؤازرة أحد، ولا يقف في وجهها تكذيب مكذب، أو جحود جاحد.

وهكذا يعلم أبو جهل خبر الإسراء قبل أبي بكر رضي الله عنه. ويذهب أبو بكر بلقب «الصديق» يومئذٍ.

تلك هي الشجاعة، وتلك هي النبوة[١].

الاستعاذة من الجبن:

وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في الاستعاذة من الجبن، منها قوله ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم..)[٢].

إن الجبن لا يتناسب مع واجبات المسلم الجهادية في مجالات الحياة المختلفة سواء أكانت قتالية أم غير قتالية.

والجهاد في دين الإسلام فرض من الفروض، قال ﷺ: (من مات لم يغزو، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق)[٣].

وقد كان النبي ﷺ يربي الأطفال تربية جهادية لينتزع من نفوسهم الجبن والخوف، فكان يأذن لهم بالخروج إلى المعارك ليشاهدوا ما يحصل فيها وإن لم يشاركوا. على الرغم مما يتعرضون له من أخطار.

ففي غزوة بدر - وهي الغزوة الكبرى - خرج الغلمان من المسلمين يشاهدون ما يحدث، على الرغم من بعد بدر عن المدينة، وعلى الرغم من ظروف السرعة في الخروج، وكان من بينهم حارثة بن سراقة، وقد أصابه

---

(١) انظر في تفصيل ذلك «من معين السيرة» للمؤلف ص(١٠٥-١٢٠).
(٢) متفق عليه (خ ٦٣٦٧، م ٢٧٠٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩١١).



يومئذٍ سهم طائش فكان سبب استشهاده، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال النبي ﷺ: (يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)[1].

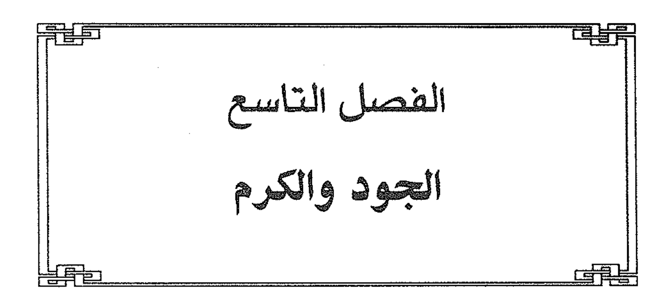
فما أحوجنا إلى الاستعاذة من الجبن والعجز والكسل، وما أحوجنا إلى اتخاذ الأسباب في تربية أنفسنا وأبنائنا على الشجاعة. كما فعل النبي الكريم ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٠٩، ٣٩٨٢).







الفصل التاسع
الجود والكرم

كرم النبي ﷺ:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: (يا أبا ذر) قلت: لبيك يا رسول الله. قال: (ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً، تمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لدين. إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا) عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه[(١)].

تلك هي حقيقة كرمه ﷺ يسجلها بقوله ـ وهو الصادق المصدوق ـ بعيداً عن المبالغات.

وقد عرف أصحابه من سلوكه ﷺ أنه ما كان يدخر شيئاً.

قال عقبة بن الحارث رضي الله عنه: صليت مع النبي ﷺ العصر، فلما سلم قام سريعاً ودخل على بعض نسائه، ثم خرج، ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته فقال: (ذكرت وأنا في الصلاة تبراً عندنا فكرهت أن يمسي عندنا، فأمرت بقسمته)[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد»[(٣)].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٤٤، م ٩٤/ زكاة ٣٢) وهو عند البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٢١).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٦٢)، والبغوي في الأنوار برقم (٢٦١).





ولقد نقل لنا الصحابة بعض المشاهد من كرمه ﷺ، وهذه النماذج ـ إضافة إلى ما سبق ذكره ـ يمكنها أن تضعنا أمام بعض الحقيقة من كرم النبي ﷺ لأنه من الصعب على القلم أن يصور الوقائع كاملة، فلكل واقعة ملابستها التي ربما إذا غابت، أنقصت من قدر الحادثة، ولم توفِّها حقها.

قال أنس رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»(١).

وأعطى صفوان بن أمية، يوم حنين، مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة، قال صفوان: والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليَّ(٢).

وعلى الرغم من جوده ﷺ الذي لا يبارى، فقد كان عنده لمواسم الخير زيادة نشاط وعمل.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام، كان أجود بالخير من الريح المرسلة»(٣)

إيثار النبي ﷺ:

والإيثار أن يعطي الإنسان الشيء وهو محتاج إليه.

أخرج البخاري عن سهل رضي الله عنه: «أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها، فأخذها

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٣).
(٣) متفق عليه (خ ١٩٠٢، م ٢٣٠٨).



النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فحسَّنها فلان فقال: اكسنيها، ما أحسنها. قال القوم: ما أحسنت، لبسها النبي محتاجاً إليها، ثم سألته وعلمتَ أنه لا يردُّ. قال: إني والله. ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه»[1].

وقد عرف الصحابة رضي الله عنه، هذا الخلق منه ﷺ إذ كان لا يرد سائلاً. ولذلك كان لومهم لذلك الصحابي الذي استحسن تلك البردة.

قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال: لا»[2].

ما فوق الإيثار:

إذا كان الإيثار أن يعطي الإنسان الشيء ـ وهو عنده ـ إلى غيره، على الرغم من حاجته إليه، فهناك ما هو فوق الإيثار: وهو أن يعطي وليس عنده شيء، فيستدين من أجل العطاء.

وقد كان هذا مسلك رسول الله ﷺ. ونحن نسوق حديث بلال رضي الله عنه ـ على طوله ـ لما فيه من بيان لهذا المعنى.

عن عبدالله الهوزني قال: «لقيت بلالاً مؤذن رسول الله ﷺ بحلب، فقلت: يا بلال، حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟.

قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذلك منه، منذ بعثه الله إلى أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً، فرآه عارياً، يأمرني فانطلق فأستقرض، فأشتري له البردة، فأكسوه وأطعمه.

حتى اعترضني رجل من المشركين، فقال: يا بلال، إن عندي سعة، فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت، فلما أن كان ذات يوم، توضأت ثم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٧٧).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٣٤، م ٢٣١١).

قمت لأؤذن بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار، فلما رآني، قال: يا حبشي، قلت يالبَّاه، فتجهمني وقال لي قولاً غليظاً، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قال: قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع، فآخذك بالذي عليك، فأردّك ترعى الغنم، كما كنت قبل ذلك.

فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، حتى إذا صليت العتمة، رجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فاستأذنت عليه، فأذن لي، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إن المشرك الذي كنت أتدّين منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما يقضي عني، ولا عندي، وهو فاضحي، فائذن لي أن آبق إلى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا، حتى يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني.

فخرجت، حتى إذا أتيت منزلي، فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومجني عند رأسي، حتى إذا انشق عمود الصبح الأول، أردت أن أنطلق، فإذا إنسان يسعى، يدعو: يا بلال، أجب رسول الله ﷺ.

فانطلقت حتى أتيته، فإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن، فاستأذنت، فقال لي رسول الله ﷺ: (أبشر، فقد جاء الله بقضائك) ثم قال: (ألم تر الركائب المناخات الأربع)؟ فقلت: بلى، فقال: (إن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً، أهداهن إلي عظيم فدك، فاقبضهن واقض دينك) ففعلت..

ثم انطلقت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قاعد في المسجد، فسلمت عليه، فقال: (ما فعل ما قبلك)؟ قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله ﷺ، فلم يبق شيء، قال: (أفضل شيء)؟ قلت: نعم، قال: (انظر أن تريحني منه، فإني لست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منه).

فلما صلى رسول الله ﷺ العتمة دعاني فقال: (ما فعل الذي قبلك)؟ قال: قلت: هو معي، لم يأتنا أحد، فبات رسول الله ﷺ في المسجد..

حتى إذا صلى العتمة ـ يعني من الغد ـ دعاني فقال: (ما فعل الذي قبلك)؟ قال: قلت: قد أراحك الله منه، يا رسول الله، فكبر وحمد الله شفقاً أن يدركه الموت وعنده ذلك..»[1].

وهكذا ـ وكما هو واضح من بدء الحديث ـ كانت جُلُّ ديونه ﷺ من العطاء الذي يعطيه للسائلين، أو غيرهم ممن يرى فيهم الحاجة.

وفي الحديث أيضاً ما يؤكد الأخبار الصحيحة السابقة من أنه ﷺ ما كان يدخر شيئاً.

شراء أم عطاء؟.

وهناك أساليب أخرى تبين لنا كرمه ﷺ، فقد كان يلجأ إلى شراء الحاجة من صاحبها، ثم يهديها له بعد ذلك.

وهذا ما حدث لجابر بن عبدالله، وهو عائد من غزوة تبوك، وقد أعيا به جمله. فأدركه الرسول ﷺ في بعض الطريق. فرأى ما به، فضرب الجمل، فانطلق يسير في المقدمة، فاشتراه منه رسول الله على أن يسلمه له في المدينة.

وجاء جابر ومعه جمله، فنقده الرسول ﷺ الثمن وزاده قيراطاً ـ وكانت

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٠٥٥).
وقد روت كتب الشمائل عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبي ﷺ: (ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءني شيء قضيته) فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف البشر في وجهه بقول الأنصاري، ثم قال: (بهذا أمرت).
أخرجه الترمذي في الشمائل برقم (٣٠٥) مختصر الألباني، وأخرجه البغوي في الأنوار برقم (٣٦٧).
قال الألباني: إسناده ضعيف.



هذه الزيادة لا تفارق جابراً ـ ثم خرج رسول الله ﷺ يطيف بالجمل ينظر إليه، ثم قال لجابر: (الثمن و الجمل لك)(١).

وفي حادثة أخرى مشابهة. يقول عبدالله بن عمر: «كنا مع النبي ﷺ في سفر، فكنت على بكر صعب لعمر، فكان يغلبني فيتقدم أمام القوم، فيزجره عمر ويرده.. فقال النبي ﷺ لعمر: (بعنيه) قال: هو لك يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: (بعنيه)، فباعه من رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: (هو لك يا عبدالله بن عمر، تصنع به ما شئت)(٢).

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه ﷺ أراد أن يكرم جابراً وابن عمر، فكأنه لم يكن من المناسب أن يقدم لهم المال مباشرة، فكان الشراء ثم الإهداء.. وهذا من حكمته ﷺ في وضعه الأمور مواضعها.

دعاء:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

وقال ﷺ: (واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم)(٤).

ولما للشح والبخل من أثر سئ في حياة الفرد والأمة، فقد كان ﷺ يستعيذ منه، فكان من دعائه ﷺ:

(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل. وضلع الدين، وغلبة الرجال)(٥).

---

(١) متفق عليه (خ ٢٣٠٩، ٢٤٧٠، ٢٧١٨، م ٧١٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢١١٥).
(٣) سورة التغابن، الآية (١٦).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٨).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٩).





الفصل العاشر
الحياء

حياء النبي ﷺ:

وصف الله تعالى نبيَّه ﷺ بهذا الخلق الكريم فقال:

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[2].

وقد أخرج الشيخان في سبب نزول الآية الكريمة، عن أنس رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ..﴾[3].

فكان حياؤه ﷺ من جلوسهم.. فلم يقل لهم أن يقوموا.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).
(٢) متفق عليه (خ ٦١٠٢، م ٢٣٢٠).
(٣) متفق عليه (خ ٤٧٩١، م ١٤٢٨).



وتنقل لنا عائشة رضي الله عنها مشهداً من حيائه ﷺ فتقول: إن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من المحيض؟ قال: (خذي فِرْصة مسك، فتطهري بها) قالت: كيف أتطهر؟ قال: (تطهري بها) قالت: كيف؟ قال: (سبحان الله، تطهري) فاجتذبتها إليَّ، فقلت: تتبعي بها أثر الدم.

وفي رواية: ثم إن النبي ﷺ استحيى فأعرض بوجهه[(١)].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يكرهون أن يصدر منهم ما يكون سبباً في حيائه ﷺ.

فقد حدث أن أبا بكر كان عند رسول الله ﷺ وجاء خالد بن سعيد بن العاص يستأذن بالدخول، فوقف بباب الحجرة ريثما يؤذن له.

وكانت امرأة قد سبقته تعرض أمرها على رسول الله ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة القرظي فطلقني فبتَّ طلاقي، فتزوجني بعده عبد الرحمن بن الزبير، وإنه والله ما معه ـ يا رسول الله ـ إلا مثل هذه الهدبة، لهدبة[(٢)] أخذتها من جلبابها.

فلما سمع خالد بن سعيد قولها، جعل ينادي أبا بكر: يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ. وما يزيد رسول الله ﷺ على التبسم[(٣)]..

إن خالداً رضي الله عنه يعرف حياء رسول الله ﷺ في ذلك الموقف من المرأة فجعل ينادي طالباً زجر المرأة عن ذلك.

الحياء والإيمان:

لم يكتف ﷺ بحثّه على التخلق بالحياء على اعتباره خلقاً من أخلاقه الكريمة، بل إن أقواله كثيرة في ذلك. وقد بيَّن لنا منزلة الحياء فقال ﷺ:

---

(١) متفق عليه (خ ٣١٤، ٣١٥، م ٣٣٢) والفرصة: القطعة.

(٢) الهدبة: طرف الثوب الذي لم ينسج.

(٣) متفق عليه (خ ٦٠٨٤، م ١٤٣٣).

(الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان)[1].

ويذكر لنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء ـ يقول له: إنك لتستحيي وقد أضرَّ بك الحياء ـ فقال رسول الله ﷺ: (دعه، فإن الحياء من الإيمان)[2].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الحياء لا يأتي إلا بخير)[3].

وهكذا تتضافر أقواله ﷺ وتتكرر لترسخ هذا الخلق في بنيان الإنسان المسلم فيستكمل إيمانه وخيريته.

الحياء من الله تعالى:

أخرج الترمذي عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

(استحيوا من الله حق الحياء).

قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي، والحمد لله.

قال: (ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حق الحياء)[4].

عندما يذهب الحياء:

إن الحياء سياج يصون كرامة المؤمن، ويحفظ له سلوكه بعيداً عن الفحش، وأقواله بعيداً عن البذاءة، وبهذا يرتفع به عن السفاسف.

---

(١) متفق عليه (خ ٩، م ٣٥).
(٢) متفق عليه (خ ٢٤، ٦١١٨، م ٣٦).
(٣) متفق عليه (خ ٦١١٧، م ٣٧).
(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٥٨).

وعندما يخرق هذا السياج، ويذهب الحياء فإن المقاييس جميعها يصيبها الخلل، ويصدر عن الإنسان عندئذٍ ما لا يتناسب مع إنسانيته، وتكريمه الذي كرمه الله تعالى به.

وفي هذا المعنى يروي لنا أبو مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قوله:

(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)[١].

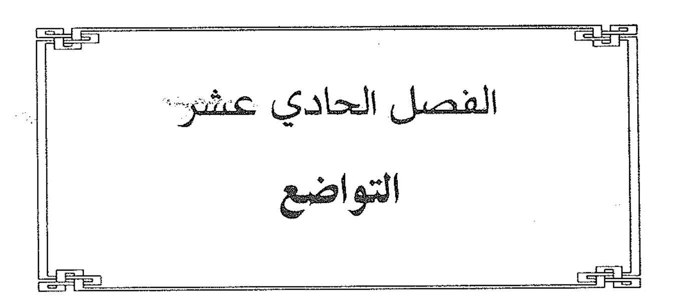
وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(ما كان الفحش في شيء قط إلا شأنه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٢٠).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٩٧٤) وابن ماجه برقم (٤١٨٥).



الفصل الحادي عشر
التواضع

التواضع :

التواضع علو بالروح، وضعة بالنفس.

فهو علو بالروح لأنه تعامل مع المعاني السامية وارتفاع عن عالم المادة، ونفاذ إلى حقائق الأمور حيث توضع الأشياء مواضعها.

وهو ضعة بالنفس الأمارة، وإعادة لها إلى حيث ينبغي أن تكون.

فالتواضع أن لا ترى لنفسك فضلاً على الآخرين، فهو في مقابل: الكبر.

والتواضع تنزل بالنفس من غير ابتذال لها ولا تهاون بقدرها.

وأخيراً: فالتواضع ليس مظهراً من السكينة والخنوع وإنما هو سلوك نفسي، يظهر أثره من خلال تصرف الإنسان مع نفسه ومع الآخرين.

مشاهد من تواضعه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١).

وقال تعالى في وصف الذين يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٢).

وقد كان رسول الله ﷺ كذلك. وهذه مشاهد من الحياة اليومية، تبين كيف كان تعامله ﷺ مع الناس.

---

(١) سورة الشعراء، الآية (٢١٥).
(٢) سورة المائدة، الآية (٥٤).

لم يكن ﷺ متميزاً على أصحابه، فكان داخِلُ المسجدِ لا يعرفه، حتى يسأل فيقول: أيكم محمد[١]؟.

وعن عبدالله بن عمرو قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه[٢]..

وعن أبي سعيد الخدري، أنه دخل على رسول الله ﷺ فوجده يصلي على حصير يسجد عليه[٣].

وعن أنس رضي الله عنه: أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: (يا أم فلان، انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك) فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[٤].

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أنها سئلت: ما كان النبي ﷺ في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، تعني خدمة أهله[٥].

وجاءت الروايات الأخرى توضح رواية البخاري، منها: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه. وفي أخرى: ويرقع ثوبه، وفي ثالثة: يفلي ثوبه، ويحلب شاته[٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: حج النبي ﷺ على رحل رث[٧]،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣).
(٢) متفق عليه (خ ١٩٨٠، م ١١٥٩).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٦٦١).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٦).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٦٧٦).
(٦) أخرج البغوي هذه الروايات في الأنوار برقم (٣٨٨، ٣٩٠)، وأخرج البخاري في الأدب المفرد: الثانية والثالثة، وأخرج الترمذي في الشمائل: الثالثة.
(٧) رث: أي عتيق بالٍ.

وقطيفة تساوي أربعة دراهم أو لا تساوي، ثم قال: (اللهم، حجة لا رياء فيها ولا سمعة)(١).

وأخرج البخاري عنه: أن رسول الله ﷺ حج على رحل وكانت زاملته(٢).

وعنه قال: ما رأيت رجلاً التقم أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده(٣).

وعن أبي مسعود قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل، فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال: (هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد)(٤).

ولو ذهبنا نذكر كل ما يدل على تواضعه لطال بنا المقام، إذ كل سلوك له ﷺ كان مظهراً من تواضعه.

ولعل المشهد الذي ينبغي أن لا يغفل ونحن نتحدث عن التواضع: هو دخوله ﷺ مكة فاتحاً.

خرج رسول الله ﷺ من مكة يوم هاجر خائفاً، مطارداً.. كانت قريش حريصة على قتله لو استطاعت، وكنت معارك بعد ذلك، كان همّ قريش فيها القضاء عليه لو أمكنها ذلك.

وها هو اليوم يعود فاتحاً منتصراً، ومن حقه أن يرفع رأسه عالياً، فيدخلها بكل الشموخ والكبرياء والتعالي.. ولو فعل لما لامه أحد.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٨٩٠) والترمذي في الشمائل (٣٢٧، ٣٣٣) والبغوي في الأنوار (٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٥١٧)، والزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام، أي كان له بعير واحد، هو الراحلة والزملة.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٩٤) والبغوي في الأنوار برقم (٣٨١).

(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٣١٢) والبغوي في الأنوار برقم (٤١٣).

ولكنه ﷺ دخل متواضعاً متخشعاً، حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل[١]. مكبراً الله تعالى على ما أكرمه به من النصر المبين.

أقواله ﷺ في التواضع:

ومما يتمم لنا صورة تواضع النبي ﷺ أقواله الواردة في الموضوع:

(إن الله أوحي إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)[٢].

(.. وما تواضع أحد لله إلا رفعه)[٣].

(إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)[٤].

وعن ابن عباس، أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدالله ورسوله)[٥].

وقد التزم الصحابة الكرام بما أمروا: قولاً وعملاً، فعن أنس بن مالك قال: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك»[٦].

ذمّ الكبر والعجب بالنفس:

والتواضع لا يقوم بالنفس حتى تتطهر من الكبر والعجب، وهذا ما يفسر

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥).
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه عن عياش المجاشعي (م ٢٨٦٥، د ٤٨٩٥، جه ٤١٧٩) وابن ماجه عن أنس (جه ٤٢١٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٥) والغني: المراد بالغنى: غنى النفس والله أعلم.
(٥) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥).
(٦) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٥٤) والبغوي في الأنوار برقم (٣٩٢).

لنا سبب اهتمام علماء التربية المسلمين بالحديث عن الكبر وإطالة الكلام فيه، أكثر من حديثهم عن التواضع. ذلك أن النفس إذا تخلصت من هذه الرذيلة التي هي الكبر، وما يتبعها من العجب والصلف.. وجد التواضع طريقه إليها سهلة ميسورة.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٣).

تلك بعض الآيات الكريمة، وقد بينت لنا بعض صور الكبر، كما بينت مقت الله عزَّ وجلَّ للمتكبرين.

ولما لهذه الآفة من آفات النفس من أخطار على الإنسان وخاتمته، فقد كثرت أحاديثه ﷺ وتحذيراته من الوقوع في هذا المرتع الوخم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله عزَّ وجلَّ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار)(٤).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء)(٥).

---

(١) سورة القصص، الآية (٨٣).
(٢) سورة لقمان، الآية (١٨).
(٣) سورة غافر، الآية (٣٥).
(٤) أخرجه مسلم وأبو داود ـ واللفظ له ـ وابن ماجه (م ٢٦٢٠، د ٤٠٩٠، جه ٤١٧٤).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٩١).





والإعجاب بالنفس والخيلاء شعبتان من شعب الكبر، وهما موصلتان إلى ما يوصل إليه الكبر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجِّل جُمَّته[١]، إذا خسف الله به، فهو يتجلجل[٢] إلى يوم القيامة)[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)[٤].

آفة الكبر:

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر: فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر: هو أعمال تصدر عن الجوارح.

واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق» اهـ[٥].

وواضح من قول الغزالي أن «الكبر» خلق يقوم في النفس، وأن الأعمال الظاهرة إنما هي صدى لما استقر في النفس. ولذلك فلا يكون علاجه علاجاً للظواهر، وإنما يكون العلاج لأصل الآفة.

ولذلك بينت الأحاديث هذا الأمر جلياً واضحاً:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه

---

(١) جمته: هي من مشعر الرأس ما سقط على المنكبين.
(٢) يتجلجل: أي يغوص في الأرض.
(٣) متفق عليه (خ ٥٧٨٩، م ٢٠٨٨).
(٤) متفق عليه (خ ٣٦٦٥، م ٢٠٨٥).
(٥) المهذب من إحياء علوم الدين، للمؤلف (٢/١٩٩).





حسناً ونعله حسنة، قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[1].

وهكذا بين النبي ﷺ أن المظاهر لا قيمة لها إذا لم يكن وراءها دوافع النفس الخبيثة. والأحاديث السابقة واضحة في هذا: (من جرَّ ثوبه خيلاء) (تعجبه نفسه) وفسر الحديث الأخير الكبر: بـ (بطر الحق، وغمط الناس).

وبطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً.

وغمط الناس: هو احتقارهم.

ولذلك قد لا يكون المظهر دائماً دليلاً على الكبر، ولا يحق لنا أن نتهم الناس بذلك لمجرد بعض المظاهر.

وهذا ما حصل لجبير من مطعم رضي الله عنه، فقد اتهم بالكبر فقال:

«يقولون: فيَّ التيه[2]، وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة، وقد قال رسول الله ﷺ: (من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء)[3]».

مقياس شخصي ذاتي:

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الأحاديث السابقة قصدت إلى بيان علامات الكبر والعجب، لتكون وسيلة بيد الإنسان يقيس نفسه بها، بغية إصلاحها والأخذ بيدها إلى طريق الفلاح، فإن الإنسان يعلم من نفسه ما لا يعلمه غيره منه، وهو وحده الذي يعلم إن كان لبس الثوب تجملاً وإظهاراً لنعم الله عليه، أم لبسه بطراً وخيلاء وكبراً.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩١).

(٢) التيه: الكبر.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٠١).



ولم يضع الإسلام هذه العلامات لتكون بيد الناس يقيسون غيرهم بها، ويحكمون عليهم من خلالها، ذلك أنه لا قدرة عليهم على الحكم على البواعث، كحكمهم على الظواهر. ومن فعل ذلك، فربما أوقع نفسه في إثم هو غني عن تسجيله في صحيفة أعماله.

يقول الإمام الغزالي: «اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني، بل المعالجة»[1].

وهذا ما فعله الصحابة الكرام والسلف الصالح، فقد كانوا دائماً يقيسون نفسياتهم بموازين الشرع، فإذا وجدوا فيها خللاً سارعوا إلى العلاج قبل استفحال الداء.

قال عروة بن الزبير: «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها»[2].

تلك هي الطريقة المثلى، فعمر رضي الله عنه، لم يطلع غير الله تعالى على ما في نفسه، فبادر لعلاجها.

وإذا كان الأمر خاصاً بالإنسان نفسه صاحب العلاقة، فإنه من واجبه أيضاً أن يراعي ما وردت به الأحاديث بشأن الظاهر، إذ الظاهر أيضاً له دلالته على ما ينطوي في النفس.

وفي ضوء هذا المعنى نفهم الحديث الشريف الآتي:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله).

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين، للمؤلف (٢/ ٢٠٩).
(٢) مدارج السالكين. لابن القيم (٢/ ٣٣٠).

وفي رواية: (ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة، ثم تلهب فيه النار)[1].

فالإنسان الذي يحرص على لبس ثوب نفيس لا مثيل له، يختص به، إنما هو تعبير عما تكنه النفس من التميز على الناس.

واعتقد أنه يقاس على اللباس غيره من حاجات الإنسان، من مسكن ومركب وغير ذلك.

الطريق إلى التواضع:

هناك طريق واحد يوصل إلى التواضع الحق، ذلك هو التأسي برسول الله ﷺ في كل أموره وشؤونه. ومن هنا كانت المعرفة بسنته ﷺ ضرورة يتوقف عليها نجاة الإنسان في دنياه وآخرته.

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه (د ٤٠٢٩، ٤٠٣٠، جه ٣٦٠٦، ٣٦٠٧).

الفصل الثاني عشر
الرحمة

ثناء الله تعالى على رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾(٣).

فالآية الأولى تبين أن إرساله ﷺ للناس، إنما هو رحمة من الله بعباده.

والآية الثانية تصف النبي ﷺ بالرأفة والرحمة، شهادة له من الله سبحانه وتعالى.

والآية الثالثة تؤكد ما جاء في الآية الأولى من أن لين النبي ﷺ إنما هو برحمة الله تعالى.

وهكذا كان إرساله رحمة من الله تعالى.

وكان سلوكه ﷺ الرحمة بالمؤمنين.

وكفى بالله شهيداً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

قواعد عامة في الرحمة:

كثيرة هي أحاديث النبي ﷺ بشأن الرحمة، ولكن بعضها كان يتناول جوانب معينة في الحياة، وبعضها جاء قواعد عامة تدخل ميادين كثيرة، ونذكر في هذه الفقرة بعض هذه القواعد:

١ - **الرحمة للناس**: قال النبي ﷺ: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)[١] وهكذا فرحمة الله للإنسان مرتبطة برحمة هذا الإنسان للناس ومتوقفة عليها. وكلمة «الناس» تشمل كل عباد الله تعالى، بغض النظر عن الجنس واللون والدين.

٢ - **الرفق**: وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الرفق منها: (من يحرم الرفق، يحرم الخير)[٢].

(إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه)[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه)[٤] والرفق: هو اللطف واللين وهما من نتاج الرحمة.

٣ - **التيسير**: وقد وردت أحاديث كثيرة أيضاً تحض على سلوك طريق التيسير، سواء بالنسبة للإنسان مع نفسه، أو بالنسبة للناس. ومن ذلك.

(إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا..)[٥].

---

(١) متفق عليه (خ ٧٣٧٦، م ٢٣١٩).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٤).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٣).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٣٩).

وقال ﷺ: (يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا)[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد، الناس منه»[2].

٤ - **الستر**: ومن الرحمة الستر على الناس.

قال ﷺ: (لا يستر عبد عبداً في الدنيا، إلا ستره الله يوم القيامة)[3].

٥ - **تفريج الكربات**: وهذا ميدان رحب واسع تستطيع الرحمة أن تعمل فيه بكل طاقاتها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..)[4].

وعن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)[5].

٦ - **الإحسان**: وهو مبدأ عام يدخل كل ميادين الحياة.

قال ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته)[6].

---

(١) متفق عليه (خ ٦١٢٥، م ١٧٣٤).
(٢) متفق عليه (خ ٣٥٦٠، ٢٣٢٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).
(٥) متفق عليه (خ ٢٤٤٢، م ٢٥٨٠).
(٦) أخرجه مسلم برقم (١٩٥٥).

إنه الإحسان العام، ويختار النبي ﷺ ميداناً قلما يفكر الناس بالإحسان فيه، ليجعل منه مثالاً للإحسان، فالذبيحة من الإحسان إليها عدم تعذيبها وذلك بسرعة الذَّبح ويكون ذلك بأن يحد شفرته.

وإذا كان الإحسان مطلوباً في هذا المجال، فطلبه في بقية المجالات من باب أولى.

هذه بعض القواعد العامة التي وضعها الرسول ﷺ لتكون من خلال تطبيقاتها وسائل لتحقيق الرحمة في المجتمع الإسلامي.

مشاهد من رحمة النبي ﷺ:

إنك أنى اتجهت في استطلاع سيرة النبي ﷺ فإنك واجد الرحمة والرأفة في كل تصرف من تصرفاته، ونختار في هذه الفقرة بعض هذه الأخبار.

١ - **رحمة الصغار**: فقد كان ﷺ يخفف صلاته عندما يسمع بكاء صبي.

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: (إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه)[١].

وهكذا يختصر صلاة جماعة يؤم فيها المسلمين من أجل بكاء طفل.

ودخل أعرابي على النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[٢].

٢ - **الرحمة بالكبار**: وأمثلتها كثيرة منها:

عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة، من أجل فلان مما يطيل بنا

---

(١) متفق عليه (خ ٧٠٩، م ٤٧٠).
(٢) متفق عليه (خ ٥٩٩٨، م ٢٣١٧).



فيها. قال: فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذٍ، ثم قال: (أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليوجز، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة)[1].

وعن مالك بن الحويرث قال: أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال: (ارجعوا فكونوا فيهم، وعلموهم..)[2].

وعن جرير بن عبدالله، قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاء قوم حفاة عراة، مجتابي النمار أو العباء[3]، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[4] والآية التي في الحشر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾[5] تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع برِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة) قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل، كأنه مذهبة[6]...

---

(١) متفق عليه (خ ٧١٥٩، م ٤٦٦).

(٢) متفق عليه (خ ٦٢٨، م ٦٧٤).

(٣) مجتابي النمار: النمار ثياب مخططة: والمعنى: لابسيها خارقين أوساطها، مدخلين رؤوسهم فيها.

(٤) سورة النساء، الآية (١).

(٥) سورة الحشر، الآية (١٨).

(٦) أخرجه مسلم برقم (١٠١٧).





٣ - **الرحمة بالضعفاء**: قال ﷺ: (السَّاعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)(١).

وقال ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً(٢).

٤ - **الرحمة بالبنات**: ظلت البنات ـ والنساء بشكل عام ـ مهيضات الجناح، حتى جاء الإسلام فأخذ بأيديهن، حتى وقفن منتصبات القامة، يبايعن الرسول ﷺ ويجادلنه، وإنما كان ذلك في ظل ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾(٣) و﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ. . .﴾(٤).

ومع ذلك تظل رواسب الجاهلية قائمة في بعض النفوس، فكانت وصية النبي الكريم، رحمة لهنَّ وعطفاً عليهنَّ وإنصافاً لهنَّ.

عن عائشة رضي الله عنها: قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: (من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن، كنَّ له ستراً من النار)(٥).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو) وضم أصابعه(٦).

٥ - **الرحمة بالأرقاء**: كان الرقيق يعامل معاملة الحيوان حتى جاء الإسلام، فعادت عندئذٍ له إنسانيته.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٣٥٣، م ٢٩٨٢) واللفظ للبخاري.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٣٠٤).
(٣) سورة الإسراء الآية (٧٠).
(٤) سورة الأحزاب، الآية (٣٥).
(٥) متفق عليه (خ ٥٩٩٥، م ٢٦٢٩).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣١).



قال ﷺ في حقهم: (إخوانكم خولكم[1] جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)[2].

وهكذا يرتقي بهم ﷺ إلى مكانة الأخوة، وفي قوله: (فمن كان أخوه تحت يده) تأكيد لذلك ولفت نظر إلى كيفية التطبيق العملي، فلو كان للإنسان أخ شقيق يساعده في عمله، فكيف تكون معاملته له؟ فهذه مثلها.

وقد جعل الإسلام كفارة ضرب الرقيق عتقه.

ضرب ابن عمر رضي الله عنهما، غلاماً له، ثم قال له: أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق. ثم أخذ ابن عمر شيئاً من الأرض فقال: ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ضرب غلاماً له، حداً لم يأته، أو لطمه، فإن كفارته أن يعتقه)[3].

وعن سويد بن مقرن قال: «لقد رأيتني، وإني لسابع إخوة لي، مع رسول الله ﷺ وما لنا خادم غير واحد، فعمد أحدنا فلطمه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقه»[4].

ولقد كان من رحمة الإسلام بهم أن منع سادتهم من مناداتهم بـ «عبدي وأمتي» ولكن ليقل: (فتاي وفتاتي)[5].

وهكذا أضحى الرق قيداً مؤقتاً يعامل فيه الرقيق معاملة الأخوة، وإذا رغب الرقيق بالخروج من القيد فإن الوسائل ميسرة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرًا﴾[6].

---

(١) خولكم: خدمكم.
(٢) متفق عليه (خ ٣٠، م ١٦٦١).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٦٥٧).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٦٥٨).
(٥) متفق عليه (خ ٢٥٥٢، م ٢٢٤٩).
(٦) سورة النور، الآية (٣٣).

قال ابن حزم: وهذا يفيد الوجوب على السيد إذا طلب رقيقه ا لمكاتبة أن يكاتبه. وتلك هي الغاية في الرحمة.

٦ - **الرحمة بالحيوان**: وإذا تركنا مجال الإنسان وانتقلنا إلى عالم الحيوان، فإن رحمة الإسلام قد شمتله كما شملت الإنسان.

قال ﷺ: (عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار)[١].

وقال ﷺ: (بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له)[٢].

وقد أمر ﷺ بتقوى الله في الحيوانات فقال ـ وقد مرَّ ببعير قد لحق ظهره بطنه ـ: (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة)[٣].

كما نهى النبي ﷺ أن تتخذ الحيوانات هدفاً أو غرضاً تسدد له السهام وغيرها.

عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: (لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً)[٤].

وعن سعيد بن جبير قال: كنت عند ابن عمر، فمروا بفتية نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، وقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ لعن من فعل هذا[٥].

---

(١) متفق عليه (خ ٣٤٨٢، م ٢٢٤٢).
(٢) متفق عليه (خ ٦٠٠٩، م ٢٢٤٤).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٤٨).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٩٥٧).
(٥) متفق عليه (خ ٥٥١٥، م ١٩٥٨).



ذلك بعض ما جاء بشأن الرحمة بالحيوان وقد مرَّ بنا قوله ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء).

مجتمع الرحمة:

وفي ظلال تطبيق تلك القواعد، والتأسي بتلك المشاهد التطبيقية من الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصل المجتمع المسلم إلى التصور الذي وضعه الرسول ﷺ.

قال ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١).

نعم وصل فعلاً إلى تحقيق هذا التصور في واقع الحياة بشهادة الله تعالى. قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾(٢).

تلك هي صفة المجتمع الإسلامي ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

داء الغلظة وقسوة القلب:

إن وجود الرحمة في القلوب، يقتضي انتفاء غلظ القلوب وقساوتها. وهذا ما نوهت به الآية الكريمة السابقة الذكر، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾(٣).

فقد نفى الله سبحانه عن نبيه غلظ القلب..

وغلظ القلب ربما تعقبه درجة أشد، وهي ما عبَّر عنه القرآن الكريم بـ «قسوة القلوب»(٤) ثم هي بعد ذلك درجات.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠١١، م ٢٥٨٦).

(٢) سورة الفتح، الآية (٢٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٤) سورة البقرة، الآية (٧٤) في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾.



و«قسوة القلب مرض من الأمراض الخلقية، يجفف في داخل النفس الإنسانية عاطفة الإحساس بآلام الآخرين وحاجاتهم، ويشتد هذا المرض، ويشتد معه الجفاف النفسي، حتى ينعدم الشعور بالواجب الفطري.. وفي هذه الحالة من حالات الجفاف النفسي تمسي القلوب مثل الحجارة التي لا ترشح بأي عطاء، أو أشد قسوة من الحجارة، لأن من الحجارة ما تتشقق قسوته الظاهرة، فيندفع العطاء من باطنه الرخو ماء عذباً نقياً، ولكن بعض الذين قست قلوبهم يجف من أغوارها كل أثر للفيض والعطاء»[١].

ولا يمكن للإنسان المسلم أن يصل إلى هذا المستوى من قسوة القلب، لأنه في هذه الحالة تكون قد جفت من قلبه كل ينابيع الإيمان.

فالمسلم قد ينخفض في قلبه مستوى الرحمة، ولكنه لا يصل إلى غلظ القلب فضلاً عن قسوة القلب.

وحينما يظهر له أن عاطفة الرحمة قد بدأت نبضاتها تضعف فعليه أن يعالج نفسه قبل استفحال الداء.

وتلفت الآية الكريمة نظرنا إلى التوافق بين «الظاهر والباطن» فإنه حين ينتفي غلظ القلب وهو أمر باطن، ينبغي أن ينتفي معه أمر آخر وهو غلظ اللسان الذي عبرت عنه الآية بالفظاظة.

وأخيراً فمن أراد رحمة الله تعالى، فعليه أن يرحم من في الأرض كما قال ﷺ:

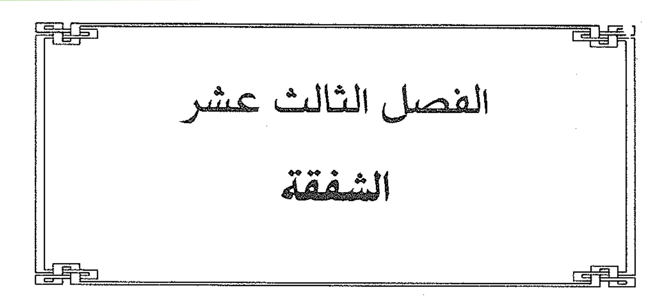
(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض، يرحمكم من في السماء)[٢].

---

(١) الأخلاق الإسلامية للأستاذ عبد الرحمن حبنكة (٢/٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي (د ٤٩٤١، ت ١٩٢٤).





الفصل الثالث عشر

الشفقة

معنى الشفقة:

قال العلماء: الشفقة رحمة، ورقَّة قلب، وخوف من نزول مكروه، بمن يشفق عليه[1].

شفقة النبي ﷺ على أمته:

كانت شفقته ﷺ بالمقدار الذي لا يمكن وصفه، وإنما يشار إليه.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عزَّ وجلَّ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ الآية، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى».

«فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»[2].

وهكذا بكى ﷺ رحمة لأمته وشفقة عليها.

ومن شفقته أنه بين لهم طريق النجاة ليكونوا على بينة من أمرهم.

---

(١) عن نسيم الرياض (شرح الشفا) للخفاجي ٢/ ٨٢ المطبعة العثمانية ١٣١٧ هـ.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢).



فعن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: (إنما مثلي، ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ، وإني أنا النذير العريان[1]، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا[2]، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم[3]، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق)[4].

ثم إنه ﷺ بين لأمته ما يعترض طريقها من عقبات، لتأخذ الأهبة والحذر:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال:

(إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم.

وإن أمتكم هذه، جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها..

فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه..)[5].

---

(١) أنا النذير العريان: قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم، ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم.

(٢) أدلجوا: معناه: ساروا من أول الليل.

(٣) اجتاحهم: استأصلهم.

(٤) متفق عليه (خ ٧٢٨٣، م ٢٢٨٣).

(٥) أخرجه مسلم برقم (١٨٤٤).

إنه ﷺ لم يكن همّه صحابته الذين عايشوه، ولكن اهتمامه كان بجميع الأمة على تعاقب أجيالها. فكانت شفقته تدفعه دائماً للبيان والتحذير لصحابته رضي الله عنهم، ولمن أتى بعدهم.. فهم جميعاً أمته ﷺ.

عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة، ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيت، فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه»(١).

تلك هي شفقته على الأمة بشكل عام، وقد جاءت النصوص الكثيرة ببيان شفقته على كل فريق من الناس بشكل خاص. ومن ذلك:

- شفقته على الأمة من الأئمة المضلين(٢).
- شفقته على العلماء من الانحراف.
- شفقته على القضاة من اتباع غير الحق.
- شفقته على الرجال من اتباع الهوى، ومن القهر، ومن غلبة الدين..
- شفقته على النساء من كفران العشير، والتشبع بما لم يعطين.. والتعري..

وليس من مهمة هذا البحث التوسع في بيان ذلك، فنكتفي بما سبق ذكره.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٦٠٤، م ٢٨٩١).
(٢) أخرجه الدارمي برقم (٢١١).

الفصل الرابع عشر

الحلم والعفو

تمهيد:

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم غيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، لكن إذا تعود ذلك مدة، صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً»(١).

وإذا عرفنا الفرق بين الحلم وكظم الغيظ، فإنه يقابلهما: الغضب.

والعفو: «ترك المؤاخذة»(٢).

مدح الحلم والعفو:

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين ٢/ ١٠٥.

(٢) الشفا (١/ ١٣٥).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٩٩).

(٤) سورة الحجر، الآية (٨٥).

﴿وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

وقد ذكرت الآية الكريمة «كظم الغيظ» وهو ابتداء «الحلم» فيكون مدح الحلم من باب أولى.

وقد قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[2].

أمثلة من حلمه ﷺ وعفوه:

نقف في هذه الفقرة أمام بعض الأمثلة من حلم النبي ﷺ، فاستيعابها أمر صعب وما نشك أنه كان له في كل يوم من حياته حدث يظهر فيه حلمه.

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء.

وتوضح لنا روايات مسلم مقدار قوة تلك الجذبة:

فقد جاء في رواية له: ثم جذبه إليه جذبة، رجع نبي الله ﷺ في نحر الأعرابي.

وفي رواية أخرى: فجاذبه حتى انشق البرد، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ[3].

وإن مجرد تصور الموقف في هذه الحادثة يبين كم كان حلمه ﷺ عظيماً.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣-١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٧).

(٣) متفق عليه (خ ٣١٤٩، م ١٠٥٧).

وأخرج الشيخان أيضاً، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟.

قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم.

فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً)[1].

كان هذا اليوم أشد على النبي ﷺ من يوم أحد.

وفي يوم أحد، أصاب المسلمين ما أصابهم، وجرح وجه النبي ﷺ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وقتل سبعون من أصحابه..

ومع هذا كان يوم الذهاب إلى الطائف أشد عليه ﷺ من يوم أحد، ذلك أنه ﷺ خرج من مكة منفرداً يبحث عن مكان لدعوته، بعد أن فقد كل أمل في قريش، وكان رد أهل الطائف من أسوأ ما يمكن تصوره، كذبوه، وسخروا منه، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يضربونه بالحجارة حتى خرج..

وفي ظل هذا الجو النفسي الشديد، اليأس من أهل مكة، اليأس من أهل الطائف، التعب والمشقة والجراح.. ويأتيه الملك ليلبي رغبته، لو أراد أن يطبق الأخشبين على أهل مكة لفعل.

---

(١) متفق عليه (خ ٣٢٣١، م ١٧٩٥).

والأخشبان جبلان بينهما مكة، وإطباقهما يعني دمار مكة بمن فيها..

ولكنه ﷺ يعفو، ويتجاوز آلامه وما يعتلج في نفسه من الأسى، على أمل أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله.. وذلك هو العفو.

وجاء زيد بن سعنة ـ قبل إسلامه ـ يطلب النبي ﷺ بدين، فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل.

فانتهره عمر، وشدد له في القول والنبي ﷺ يبتسم.

فقال رسول الله ﷺ: (أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي).

ثم قال: (لقد بقي من أجله ثلاث) وأمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعاً لِمَا روَّعه. فكان سبب إسلامه.

يقول زيد ـ وهو من اليهود ـ: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حَلماً. فاختبرته بهذا، فوجدته كما وُصِف(١).

كانت القضية قضية تثبُّت واختبار، ولذلك كان غليظاً في قوله: غليظاً في فعله، ثم كانت مطالبته قبل الموعد. ومع ذلك يسعه حلم النبي ﷺ ويأمر له بتعويض مقابل ما أصابه من قول عمر.

وذلك هو الحلم والعفو والكرم.

---

(١) أخرجه البغوي في «الأنوار» مطولاً برقم (٢٢٦)، وقال المحقق في حاشيته: أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٤) وأبو نعيم في الدلائل (٢٣) وهو في زوائد ابن حبان للهيثمي برقم (٢١٠٥) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ونسبه للطبراني وقال: ورجاله ثقات. وهو عند أبي الشيخ (٨٢-٨٣).

تلك أمثلة تجاذبها حلم النبي ﷺ وعفوه، فهي بمقدار ما تحمل من بيان الحلم، فإنها أيضاً تبين عفوه ﷺ وتسامحه.

وفي الواقعة التالية، نقف أمام مثال من أمثلة كثيرة على مقدار هذا العفو وسعته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول، دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي؟! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: (أخِّر عني يا عمر) فلما أكثرت عليه، قال: (إني خيِّرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها).

قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[1].

قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم[2].

وحتى نستطيع معرفة حجم عفوه ﷺ، في هذه الواقعة ينبغي أن نسترجع إلى الذاكرة تسع سنوات خلت، ابتداء من هجرته ﷺ إلى وفاة ابن سلول في أواخر السنة التاسعة.

إن عبد الله بن أبي لم يأل جهداً طوال حياته مع رسول الله ﷺ في إثارة المشكلات والتعاون مع اليهود. ومع المشركين، في الصد عن سبيل الله، وإيذاء النبي ﷺ، وما حديث الإفك بخافٍ عن أحد، وما رجوعه يوم أحد بمن تبعه بالأمر الهين، وما قوله في غزوة بني المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ بأقل من صريح الكفر..

إنه سجل حافل مليء بالمخازي.. التي أُتعِبَ فيها النبي ﷺ وأصحابه.

(١) سورة التوبة، الآية (٨٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٦٦).



ومع هذا كله يعفو عنه ﷺ وينسى ذلك كله - وهي أمور لا تنسى - ويصلي عليه، ويقول وهو حريص على نجاته من النار (لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها).

إنها واقعة في العفو، لا تدانيها واقعة أخرى، يحتاج إدراك أبعادها إلى أناة وروية في استعراض تسع سنوات مليئة بالأحداث التي كان فيها النفاق برئاسة ابن أبي لا يدخر وسعاً في الصدِّ عن سبيل الله..

فإذا استطعنا أن نجمع ذلك إلى بعضه، ونستشعر حجمه، عندها فقط نستطيع معرفة مقدار هذا العفو.

ثم إن هذا العفو بعد موت الرجل حيث لا يتوقع - بل لا يريد - منه جزاء ولا شكورا.

كان ﷺ حريصاً على نجاته من النار، راغباً في ذلك، لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين..

ولكن سبق في عدل الله تعالى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١] جزاء ما اقترفت أيديهم.

ويستوقفنا في هذه الواقعة جرأة عمر رضي الله عنه، وقد تعجب هو نفسه من ذلك، حيث أخذ بثوب رسول الله ﷺ يريد أن يمنعه[٢]..

ولكن حلمه الذي وسع أعداءه، ألا يسع خاصة أصحابه!

ذلكم هو العفو الكبير

وذلكم هو الحلم الذي لا يداني

وتلكم هي الشمائل.

---

(١) سورة النساء، الآية (١٤٥).

(٢) متفق عليه (خ ٤٦٧٠، م ٢٤٠٠).



ما انتقم ﷺ لنفسه:

والعفو لا يكون إلا بترك المؤاخذة في الحقوق، وبعدم الانتقام في الإساءات ولم يذكر عنه ﷺ أنه انتقم لنفسه في يوم من الأيام.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها»(١).

وفي رواية: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط»(٢).

وعنها رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عزَّ وجلَّ»(٣).

النهي عن الغضب:

وإذا كنا نتحدث عن الحلم، فنحن بحاجة أن نعرِّج على الغضب، فأول الخطوات على طريق الحلم، هي ضبط النفس عن الغضب.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: (لا تغضب) فردد مراراً، قال: (لا تغضب)(٤).

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(٥).

---

(١) متفق عليه (خ ٣٥٦٠، ٢٣٢٧).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٢٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٢٨).
(٤) أخرجه البخاري برقم (١٦١٦).
(٥) متفق عليه (خ ٦١١٤، م ٢٦٠٩).

وهكذا تكون البطولة أن يتحكم الإنسان بنفسه، فتكون له السيطرة عليها والضبط لها، لا أن تكون هي التي تتحكم فيه.

وقد أكد هذا حديثُ ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (فما تعدون الصُّرعة فيكم)؟ قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: (ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)(١).

ولكن الإسلام لا يقف عند وصف الأمراض وظواهرها، وإنما يصف العلاج، وواصف العلاج هو الصادق المصدوق ﷺ، فلا شك بأنه علاج ناجع.

عن سلمان بن صرد رضي الله عنه، قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسبُّ صاحبه مغضباً قد احمرَّ وجهه، فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة، لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون(٢).

وفي حديث أبي ذر، قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع)(٣).

غضبه ﷺ في ذات الله تعالى:

كان ﷺ يغضب، وكان إذا غضب احمر وجهه(٤).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٨).

(٢) متفقَ عليه (خ ٦١١٥، م ٢٦١٠).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٨٢).

وأخرج أبو داود أيضاً قوله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) ٤٧٨٤ وقال الألباني: ضعيف.

(٤) أخرجه البغوي في الأنوار (٢٨٧) من حديث أم سلمة، وهو عند البخاري وغيره من حديث زيد بن خالد.

ولكن هذا الغضب لا يكون لأجل دنيا فاتته، ولا لأمر يخص نفسه، ولكن غضبه إنما يكون لله.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، قال: فقال لي: (يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله) قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال: (أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله) قال: فما زال يكررها عليَّ، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»(١).

وقول أسامة: «حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» تبين لنا كم كان غضبه ﷺ بسبب هذه الحادثة.

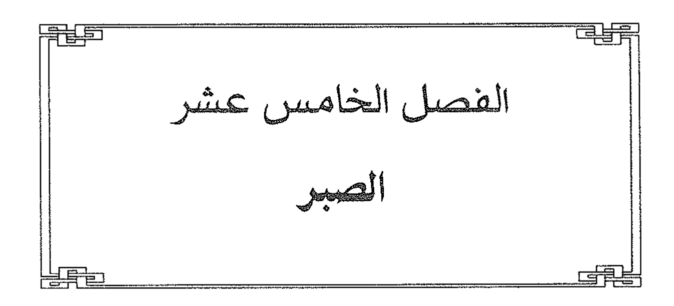
وعن عبدالله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة، فشقَّ ذلك عليه، حتى رؤي في وجهه فقام فحكه بيده، فقال: (إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه، أو، إن ربَّه بينه وبين القبلة، فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدمه) ثم أخذ طرف ردائه، فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض، فقال: (أو يفعل هكذا)(٣).

إنها نماذج من غضبه ﷺ لله تعالى.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٨٧٢، م ٩٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٦).
(٣) متفق عليه (خ ٤٠٥، م ٥٥١).



الفصل الخامس عشر
الصبر

إن مجالات الصبر كثيرة ومتعددة.

ولقد كان للرسول الكريم ﷺ النصيب الأوفي من ذلك في كل ميدان. ونذكر في هذا الفصل بعض مجالات صبره صلى الله عليه وسلم.

صبر النبي ﷺ في مجال الدعوة:

كان الصبر عدته ﷺ طول حياته في الدعوة إلى الله. فقد كان في مواجهة المشركين في مكة، وفي مواجهة المنافقين في المدينة.

وليس بوسعنا أن نذكر الأمثلة على ذلك، فهي من الكثرة بحيث تستوعب أحداث السيرة، ولكنا نكتفي بالدلالة الثابتة على ذلك، وهي الآيات الكريمة.

إن عبء الدعوة الضخم يحتاج إلى الجهد الضخم، ومع كثرة المشقات والعوائق والمنغصات ـ والرسول بشر، ينتابه ما ينتاب البشر ـ ربما كانت تضعف عزيمته نتيجة لتلك العوائق فكانت الآيات الكريمة تنزل عليه، لتثبته وتصبره.

وإن الآيات التي كانت تخاطبه «بالصبر» كافية في بيان الجهد الذي بذله النبي ﷺ، وفي الصبر الذي عاناه خلال دعوته إلى الله تعالى.

وسوف نكتفي بسرد بعض هذه الآيات، بغض النظر عن ترتيب نزولها، وبغض النظر عن التعليق عليها فهي وحدها كافية في البيان.

قال الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[2].

﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[5].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾[6].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[7].

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[8].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[9].

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[10].

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾[11].

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[12].

---

(١) سورة المدثر، الآية (٧).
(٢) سورة يونس، الآية (١٠٩).
(٣) سورة: هود، الآية (٤٩).
(٤) سورة هود، الآية (١١٥).
(٥) سورة النحل، الآية (١٢٧).
(٦) سورة طه، الآية (١٣٠).
(٧) سورة الروم، الآية (٦٠).
(٨) سورة ص، الآية (١٧).
(٩) سورة غافر، الآية (٥٥).
(١٠) سورة الأحقاف، الآية (٣٥).
(١١) سورة الطور، الآية (٤٨).
(١٢) سورة المعارج، الآيات (٥-٧).

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[1].

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾[2].

«كان لا بد من الصبر.. الصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناء، ومضاضة الإعراض..»[3].

ولقد صبر ﷺ وصبر، وكانت آيات الصبر بمثابة محطات تقوية في الدرب الطويل[4].

وإذا كان يحسن بنا أن نذكر مثالاً من تصبيره ﷺ أصحابه فلنستمع إلى خباب:

قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[5].

---

(١) سورة المزمل، الآية (١٠).
(٢) سورة الإنسان، الآية (٢٤).
(٣) في ظلال القرآن (١/ ١٤).
(٤) انظر في موضوع الصبر كتاب «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة» للمؤلف (ص ٤٧-٥٢).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٢).

صبره ﷺ عند موت أحبابه:

وقد مات أبناء النبي ﷺ كلهم في حياته، إلا فاطمة رضي الله عنها، كما ماتت زوجته خديجة رضي الله عنها، وعمه حمزة رضي الله عنه. فكان صابراً محتسباً.

وكان من قوله في مثل هذه المواقف، ما قاله ﷺ يوم موت ابنه إبراهيم:

(إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمخزونون)[١].

وقد حث ﷺ على الصبر في هذا الموطن فقال:

(يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة)[٢].

وقال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم ائجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها)[٣].

أنواع أخرى من الصبر:

وهناك أنواع أخرى من الصبر منها: الصبر على الجوع، والصبر على الفقر، والصبر على المرض، والصبر على الخوف.

وقد صبر رسول الله ﷺ في كل هذه الأحوال، مما هو معلوم من سيرته.

وقال تعالى في جزاء الصابرين.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ

---

(١) متفق عليه (خ ١٣٠٣، م ٢٣١٥).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٢٤).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٩١٨).

ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[١].

الصبر ضياء:

قررت الآيات الكريمة السابقة أن الابتلاء من الله واقع على الناس مسلمهم وكافرهم، ولكن المسلم له تصرف ذكرته الآيات وهو «الصبر».

ثم ذكرت الآيات جزاء هذا الصبر.

وفي ضوء الآيات وما سجلته من ثواب كبير كان قوله ﷺ: (والصبر ضياء)[٢] ففي محنة الابتلاء بالخوف والجوع ونقص الأموال.. وحيث لا قدرة للإنسان على أي تصرف في ما قدره الله، يكون الصبر ضياء للنفس وسكينة لها، برضاها بقضاء الله وقدره.

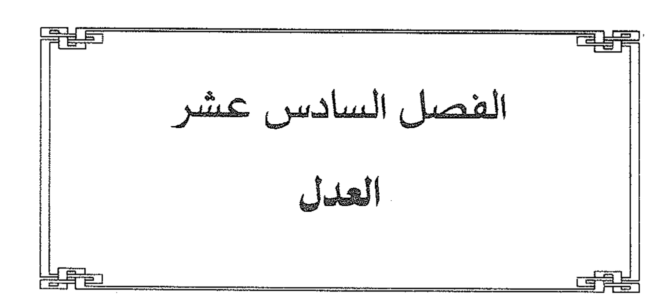
فقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إعلان بعبوديتهم لله، وأنهم وما بأيديهم ملك له، وأن المرجع إليه سبحانه تعالى.

وبهذا الرضى النفسي فلا شك أن الصبر سيضيء جوانب هذه النفس الراضية.

---

(١) سورة البقرة، الآيات (١٥٥-١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣) ونص الحديث: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبايع نفسه، فمعتقها أو موبقها).



الفصل السادس عشر
العدل

﴿حتى يحكموك﴾

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

قال ابن كثير: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطناً..».

والآية الكريمة تقرر:

١ - عدالة حكمه ﷺ.

٢ - وجوب الانقياد لما حكم به في حياته ﷺ ووجوب الاحتكام إلى ما شرع بعد موته.

٣ - الرضى النفسي الباطن بحكمه ﷺ والاستسلام له، واليقين بأنه الحق وبغير هذا لا يكون إيمان.

ولسنا بحاجة بعد الآية الكريمة لسوق الأدلة على عدله ﷺ، فهي شهادة العليم الخبير سبحانه وتعالى.

وقد أخرج الشيخان عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: «أن رجلاً من الأنصار، خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة[2] التي يسقون بها

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٥).

(٢) شراج الحرة: المراد به مسيل الماء. والحرة: موضع بالمدينة.

النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي صلّى الله عليه وسلّم.

فقال رسول الله ﷺ للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك).

فغضب الأنصاري فقال: إن كان ابن عمتك؟.

فتلوّن وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: (اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر).

فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(١).

والذي حصل من فعل الرسول ﷺ في حكمه الثاني، ليس ردَّ فعل، وثأراً لقول الأنصاري، فحاشاه أن يكون كذلك، وشهادة الله تعالى به تبرئه من ذلك.

ولكن الرسول ﷺ كان كثيراً ما تحدث الخصومات فيشفع فيها ويقترح اقتراحاً لا على سبيل القضاء إنما على سبيل الإصلاح بين الناس، ومن ذلك.

«أن كعب بن مالك تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له عليه، في المسجد، فارتفعت أصواتهما، حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما، حتى كشف سجف حجرته، فنادى: (يا كعب) قال: لبيك يا رسول الله، قال: (ضع من دينك هذا) وأومأ إليه: أي الشطر، قال: لقد فعلت يا رسول الله قال: (قم فاقضه)(٢).

فهذا ليس قضاء منه ﷺ وإنما هو الإصلاح بين المتخاصمين، وقد كان اقتراحاً منه ﷺ أن يضع كعب نصف دينه، ووافق كعب، وعندها قال للطرف الآخر: (قم فاقضه).

---

(١) متفق عليه (خ ٢٣٥٩، م ٢٣٥٧).
(٢) متفق عليه (خ ٤٥٧، م ١٥٥٨).

وكذلك في قضية الزبير، فإنه ﷺ أراد تسوية الأمر بما فيه مصلحة الطرفين، ولكن الطرف الآخر، لم يرض، عندها اضطر الرسول ﷺ لإصدار حكمه في القضية.

وهذا ما أشارت إليه الرواية الثانية عند البخاري؛ وفيها:

«فتلون وجه رسول الله ثم قال: (اسق، ثم احبس حتى يبلغ الجدر) فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم»(١).

الأخلاق والعدل:

والذي يمكن استنتاجه من فعل الرسول ﷺ في قضية كعب، وقضية الزبير، وغيرهما من القضايا، أن قضايا الخصومات يمكن حلها وفقاً لنظام الأخلاق في الإسلام، من التسامح والعفو، ولكنه عندما لا يفلح هذا الأمر يرجع إلى التقاضي، وعندها لا بد للطرفين من الالتزام بالحكم.

العدل في إقامة الحدود:

ومن المجالات التي يجب العدل فيها، مجال تطبيق حدود الله تعالى. هذا الميدان الذي لا ينبغي أن يكون فيه شفقة أو رحمة أو عطف.

كما لا ينبغي أن يفرق فيه بين شريف وضعيف.

وقد حدث أثناء وجود الرسولﷺ في مكة، في غزوة الفتح، أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فاهتمت قريش لذلك، وذهبوا يفتشون عن الوسائل التي تخلص المرأة مما ينتظرها، وتخلص قومها من عار الحد الذي سيقع عليها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٠٨). والمراد بالجدر: الحواجز التي تحبس الماء.



«وقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟.

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حبَّ رسول الله ﷺ.

فكلمه أسامة، فلما كلمه فيها تلوَّن وجه رسول الله فقال: (أتكلمني في حدٍّ من حدود الله)؟!.

قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)(١).

وقطعت يد المرأة.. وحسنت توبتها.

كان ﷺ يقيد من نفسه:

وكان ﷺ يقيد من نفسه، وذلك أعلى درجات العدل.

أخرج أبو داود، «عن أسيد بن حضير ـ رجل من الأنصار ـ قال: بينما هو يحدث القوم، وكان فيه مزاح، بينما يضحكهم، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني، فقال: (اصطبر) قال: إن عليك قميصاً، وليس عليَّ قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه وجعل يقبل كشحه، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله»(٢).

وفي غزوة بدر، بينما كان رسول الله ﷺ يسوي الصفوف، مرَّ بسواد بن غزية، وقد برز عن الصف، فطعن في بطنه بقدح السهم، وقال: (استو يا سواد) فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: (استقد)، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: (ما حملك على هذا يا سواد)؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى ـ

---

(١) متفق عليه (خ ٣٤٧٥، ٤٣٠٤، م ١٦٨٨).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٢٢٤).



أي من المعركة ـ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير[(١)].

ونحن هنا لا يهمنا أمر الدافع الذي كان وراء فعل أسيد وسواد رضي الله عنهما، وإنما نتوقف عند فعل الرسول ﷺ عندما بادر لتلبية طلبهما، وهو لا يعلم إلا أنهما سوف يستوفيان حقهما.

وهذا الأمر معلوم من سيرته صلى الله عليه وسلم[(٢)].

العدل بين الأولاد:

ميادين العدل كثيرة، وليس من قصدنا استقصاء ذلك، لأنه يخرج بالموضوع عن قصده. وإنما هي نماذج تدل على غيرها.

قال النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال: (أعطيت سائر ولدك مثل هذا)؟ قال: لا، قال: (فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) قال فرجع فردَّ عطيته».

وفي رواية لمسلم: (فلا تشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جور)[(٣)].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٦٢٦).

(٢) أخرج أبو داود (٤٥٣٧) والنسائي (٤٧٩١) عن أبي فراس قال: «خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل به ذلك، فليرفعه إليَّ أقصّه منه.
قال عمرو بن العاص: لو أن رجلاً أدب بعض رعيته، أتقتصه منه؟.
قال: إي والذي نفسي بيده أقصّه، وقد رأيت رسول ﷺ أقص من نفسه».
وهو وإن ضعفه الألباني، ولكنه مؤكد بسلوك النبي ﷺ، وقد أكده سلوك عمر رضي الله عنه، مع ابن عمرو بن العاص في القصة المشهورة في السباق مع القبطي.

(٣) متفق عليه (خ ٢٥٨٧، م ١٦٢٣).

وهكذا كان بيانه ﷺ لمسار العدل في هذا المجال المهم، كما بين أن الشاهد على الجور مساهم فيه.

وقفة عند غنائم حنين:

أخرج الشيخان من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «لما كان يوم حنين، آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب. فآثرهم يومئذٍ في القسمة.

قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدِل فيها، وما أريد بها وجه الله.

فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ، فأتيته فأخبرته فقال: (فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر).

وفي رواية: «فساررته، فشق ذلك على النبي ﷺ، وتغير وجهه وغضب، حتى وددت أني لم أكن أخبرته..»[(١)].

وفي رواية لمسلم: «أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان ابن أمية.. مائة من الإبل»[(٢)].

وأخرج الشيخان، عن أنس بن مالك: «أن ناساً من الأنصار قالوا: لرسول الله ﷺ حين أفاء الله عليه من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل. فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ: يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم»[(٣)].

وفي رواية: «قالت الأنصار: والله إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وغنائمنا ترد عليهم؟»[(٤)].

---

(١) متفق عليه (خ ٣١٥٠، ٦١٠٠، م ١٠٦٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦٠).
(٣) متفق عليه (خ ٣١٤٧، م ١٠٥٩).
(٤) متفق عليه (خ ٣٧٧٨، م ١٠٥٩).

تلك بعض الانتقادات التي وجهت إلى قسمة غنائم حنين.

فما هي قصة تلك الغنيمة؟.

حصل المسلمون في معركة حنين على غنائم كثيرة، وقد تأخر الرسول في قسمتها بضع عشرة ليلة على أمل أن يأتيه وفد هوازن قبل قسمتها فيردها عليهم.

ولكن هوزان تأخرت في مجيئها، وجعلت الأعراب يطالبون بقسمة الغنائم. مما اضطر النبي ﷺ إلى تقسيم الغنائم.

والغنائم ـ كما هو معلوم ـ تقسم إلى خمسة أقسام، أربعة منها توزع على المقاتلين، والخمس الباقي يكون للرسول ﷺ وحكمه حكم الفيء، أي يعطي منه ذوي القربى ويصرف الباقي في مصالح المسلمين بحسب ما يراه.

عن عمرو بن عبسة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إلى بعير من المغنم، فلما سلَّم، أخذ وبرة من جنب البعير، ثم قال: (ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود فيكم)[(١)].

أجل، قسمت الغنيمة حسب شريعة الله تعالى، وأخذ كل نصيبه، الأنصار وغيرهم وكانت الغنيمة أموالاً وسبايا.

وجاء وفد هوازن:

قال عبدالله بن عمرو: «كنا عند رسول الله ﷺ إذ أتته وفد هوازن، فقالوا: يا محمد، إنا أهل وعشيرة، وقد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا، منَّ الله عليك، فقال: (اختاروا: من أموالكم، أو من نسائكم وأبنائكم) فقالوا: قد خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل نختار نساءنا وأبناءنا،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٧٥٥) وهو عند النسائي (٤١٤٩) عن عبادة و (٤١٥٠) عن عبدالله بن عمرو.



فقال رسول الله ﷺ: (أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا صليت الظهر فقوموا فقولوا: إنا نستعين برسول الله على المؤمنين ـ أو المسلمين ـ في نسائنا وأبنائنا) فلما صلوا الظهر، قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: (فما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم) فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ..»(١).

وإذاً فقد أخذ الأنصار نصيبهم من القسمة ثم ردوا السبي كما فعل غيرهم واحتفظوا بالأموال.

فما هي قصة قولهم السابق؟!.

إن العطايا التي أعطاها رسول الله ﷺ إنما كانت من الخمس الذي أعطاه الله تعالى حق التصرف فيه وفقاً لما يرى المصلحة فيه.

وقد رأى ﷺ أن يتألف أولئك المسلمين الجدد، فأعطاهم ما أعطاهم. ورأى الأنصار أنهم كانوا أولى ـ لا أنهم أصحاب حق ـ من غيرهم، فالعطاء هنا تعبير عن تقدير جهود المقاتلين، وكثيراً ما كان النبي ﷺ ينفل بعض المقاتلين غير نصيبه من الغنيمة تقديراً لبلائه، وقد كان الأنصار عماد المعركة يوم حنين فكانوا يطمعون بتقدير جهودهم..

وإذاً، فليس هناك انحراف أو ظلم في القسمة.

وقد أرسل رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم وحدهم، ولم يدع معهم أحداً غيرهم وقال: (ما كان حديث بلغني عنكم)؟.

قال له فقهاؤهم: أما ذوو آرائنا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثه أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم(٢)..

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٣٦٩٠).
(٢) متفق عليه (خ ٣١٤٧، م ١٠٥٩).





فقال ﷺ: (يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي)؟.

كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

قال: (ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ).

قال: كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

قال: (لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا.. أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبها..)[١].

وفي رواية: قال ﷺ: (إني أعطي رجالاً حديث عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رحالكم برسول الله..)[٢].

قال: فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً[٣].

وإنما جمعهم رسول الله ﷺ منفردين لبين لهم الحكمة مما فعل وأن الغاية تألف القوم، ولو أعلن ذلك على الناس لبطلت الغاية من هذا التوزيع، إذا عرف أولئك أن العطاء لتأليفهم على الإسلام.

وإذا كان الله تعالى قد جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة فإعطاؤهم من الخمس من باب أولى.

أليس هذا هو العدل والحكمة!!.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٣٣٠، م ١٠٦١).
(٢) متفق عليه (خ ٣١٤٧، م ١٠٥٩).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠٠).



الظلم ظلمات:

إن حرص الإنسان على أن يكون عادلاً يقتضي منه أن يطهر نفسه من الظلم، إذ العدل والظلم ضدان لا يجتمعان.

و (الظلم ظلمات يوم القيامة)[١] كما قال: رسول الله ﷺ.

وأنواع الظلم كثيرة جداً يمكن إرجاعها إلى الأصول الآتية:

١ - أن يظلم الإنسان نفسه:

ويكون ذلك بتعدي حدود الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٢] ويبدأ هذا النوع بالشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣] ويتفرع بعد ذلك فيكون في كل مخالفة لأوامر الله تعالى.

٢ - ظلم الإنسان غيره من الناس:

ويكون هذا بالاعتداء على الناس في: أجسامهم، وأموالهم، وأعراضهم وقد كان من خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع قوله: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا..)[٤].

وقد نصح النبي ﷺ أمته بالتحلل من المظالم فقال: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[٥].

---

(١) متفق عليه (خ ٢٤٤٧، م ٢٥٨٩).
(٢) سورة الطلاق، الآية (١).
(٣) سورة لقمان، الآية (١٣).
(٤) متفق عليه (خ ٤٤٠٦، م ١٦٧٩).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٩).



٣ - ظلم القضاة:

إن القاضي الذي يعلم الحق ثم يقضي بخلافه ظالم، والقاضي الذي يقضي على جهل ظالم، وهو ما قرره الحديث التالي من قوله ﷺ:

(القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار.

فأما الذي في الجنة: فرجل عرف الحق فقضى به.

ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار. ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[١].

ولما في هذا العمل من خطر، فقد قال ﷺ:

(من ولي القضاء، فقد ذبح بغير سكين)[٢] وما ذاك إلا للتحذير من الظلم المتوقع من القاضي.

٤ - ظلم الحكام والولاة:

وهذا النوع من الظلم متعدد الصور والوسائل، وقد يكون بشكل مباشر أو غير مباشر. ولا نريد الدخول في التفصيل وإنما نذكر بعض النصوص الواردة في ذلك، منها:

قول رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس..)[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك ـ إن طالت بك مدة ـ أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر، يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله)[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه (د ٣٥٧٣، ت ١٣٤٢ م، جه ٢٣١٥).
(٢) أخرجه أبو داود و الترمذي وابن ماجه (د ٣٥٧١، ت ١٣٢٥، جه ٢٣٠٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢١٢٨).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٧).





وفي الحديث: (إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا)[١].

وعن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة)[٢].

* * *

ولا أدل على عظم جريمة الظلم، من أن الله تعالى حرمه على نفسه.

فعن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا...)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦١٣).

(٢) متفق عليه (خ ٧١٥٠، م ١٤٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).



الفصل السابع عشر
الورع وترك الشبهات

التعريف بالورع:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

(الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس.

فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه.

ومن وقع في الشبهات، كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه.

ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حِمى الله في أرضه محارمه.

ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب)(١).

والحديث الشريف يقرر وجود ثلاثة أقسام:

- الحلال البين الواضح.
- والحرام البين الواضح.
- المشتبه، وهو الذي لا يعلمه كثير من الناس.

والورع هو البعد عن هذا القسم «المشتبه». فإن وراءه الحرام، فهو كالسياج المحيط بالحرام، فالبعد عنه بعد عن الحرام من باب أولى.

وقد أوضحت هذا المعنى إحدى روايات البخاري لهذا الحديث وفيها:

---

(١) متفق عليه (خ ٥٢، م ١٥٩٩).

(.. فمن ترك ما شبِّه عليه من الإثم، كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم، أوشك أن يواقع ما استبان.

والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)[(١)].

ومما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ.

(دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)[(٢)].

وقد سأل النواس بن سمعان رضي الله عنه، رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[(٣)].

وهذان الحديثان يجعلان من فطرة الإنسان ـ في معرفة الخير والشر ـ مقياساً عندما يكون الإنسان في دائرة الشبه، لمعرفة مكان الخطر فيبتعد عنه. وهناك علامتان.

- عدم الارتياح النفسي للأمر.
- الخوف من اطلاع الناس عليه.

فالحلال البين لا يخاف الإنسان الناس وهو يواقعه. وإنما يكون الخوف من اطلاع الناس عندما يكون الأمر في دائرة الشبه، وإذا كان الأمر كذلك فليترك الإنسان ما يشك به، وليأخذ ما لا يشك به.

أمثلة من ورعه ﷺ:

عن أنس رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ بتمرة في الطريق، فقال: (لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٥١).
(٢) أخرجه الترمذي والنسائي والدارمي (ت ٢٥١٨، ن ٥٧٢٧، مى ٢٥٣٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٣).
(٤) متفق عليه (خ ٢٤٣١، م ١٠٧١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي، فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها)[1].

وأخرج أبو داود: أن امرأة دعت رسول الله ﷺ إلى طعام، فجاء وجيء بالطعام، فوضع يده، ثم وضع القوم أيديهم فأكلوا، فنظروا إلى رسول الله ﷺ يلوك لقمة في فمه، ثم قال: (أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها) فقالت المرأة: يا رسول الله، إني أرسلت إلى البقيع يشترى لي شاة، فلم أجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة: أن أرسل إلي بها بثمنها، فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته، فأرسلت إليَّ بها. فقال رسول الله ﷺ: (أطعميه الأسارى)[2].

تلك نماذج من فعله ﷺ في بيان الورع.

عندما يترك الورع:

ما يزال الناس بخير ما دام هذا المعنى قائماً في حياتهم، ينشأ عليه الصغير ويهرم فيه الكبير. وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: (يا أبا هريرة، كن ورعاً، تكن أعبد الناس)[3].

وأما عندما ينحسر هذا المعنى من حياتهم، وينحسر معه استعمال لفظ «الحلال» و «الحرام» فإنهم عندئذٍ واصلون إلى الزمن الذي أخبر عنه النبي ﷺ عندما قال:

(ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال. أمن حلال أم من حرام)[4].

---

(١) متفق عيه (خ ٢٤٣٢، م ١٠٧٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٣٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧).
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٨٣).

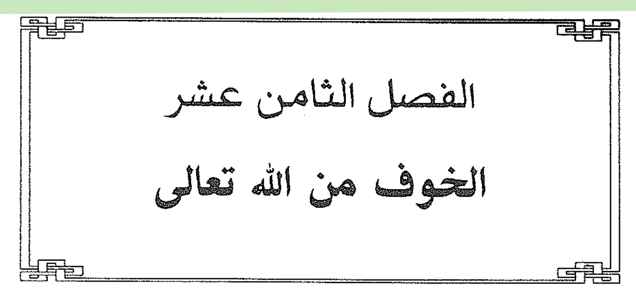
وإذا وصل الناس إلى هذا الزمن، فكيف يستجاب الدعاء؟.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

(أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[1] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾[2]. ثم ذكر الرجل. يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا ربّ، يا رب، ومطمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟!)[3].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية (٥١).
(٢) سورة البقرة، الآية (١٧٢).
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥).



الفصل الثامن عشر
الخوف من الله تعالى

حقيقة الخوف وبواعثه:

الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل.

والخوف من الله تعالى:

- تارة يكون لمعرفة بالله تعالى وصفاته.
- وتارة يكون لكثرة جناية العبد ومعاصيه.
- وتارة يكون بها جميعاً.

وبحسب معرفة العبد بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، تكون قوة خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه. ولذا كان العلماء من أكثر الناس خوفاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] [2].

النبي ﷺ أكثر الناس خوفاً لله:

وإذا كان الخوف منبعثاً من المعرفة بالله تعالى، فإنه صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية له سبحانه وتعالى.

وقد قال ﷺ: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[3].

---

(١) سورة فاطر، الآية (٢٨).

(٢) هذه الفقرة عن كتاب «المهذب من إحياء علوم الدين» (٢/ ٣١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠١).

وهكذا ارتبطت شدة الخشية بكثرة العلم.

ولما كان علم الناس سيظل قاصراً عن علم رسول الله ﷺ، أخبرهم النبي ﷺ بأنهم لو أمكن أن يرتقوا بعلمهم ويصلوا إلى علمه ﷺ لتغيرت أساليب حياتهم ولأصبح السرور لا يجد إلا نفوسهم طريقه.

قال ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم، لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً)[١].

وقد نقل لنا ﷺ بعض هذا الذي لا نعلمه خبراً عما شاهده، وهو الصادق المصدوق فقال:

(إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط[٢]، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله. لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات[٣]، تجأرون إلى الله)[٤].

قال أبو ذر، راوي الحديث: لوددت أني كنت شجرة تعضد[٥].

ذلك بعض ما في نفسه ﷺ على الدوام من خشية الله سبحانه وتعالى.

وقد جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أخبروا بها، كأنهم تقالّوها[٦]، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٧).

(٢) أطت السماء: الأطيط: صوت الإبل إذا حنت، وصوت القتب إذا ضغطه ثقل ما، والمعنى: أي أن السماء لكثرة ما عليها من الملائكة قد أطت فسمع صوت الثقل.

(٣) الصعدات: هي الطرق.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه (ت ٢٣١٢، جه ٤١٩٠).

(٥) تعضد: تقطع من أصلها، والمراد: تمنيه أن يكون غير ذي روح فلا يبعث ولا يسأل.

(٦) تقالوها: أي وجدوها قليلة.

فكأنهم رأوا أن النبي لا يحتاج إلى كثرة العبادة لمغفرة الله تعالى له، ورأوا أن عليهم أن يكونوا أكثر عبادة.

فلما أخبر ﷺ بأمرهم قال:

(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب غن سنتي فليس مني)[1].

فما كانت مغفرة ذنوبه لتقلل من خوفه وخشيته التي مبعثها العلم بالله، بل كانت المغفرة باعثاً على الشكر وزيادة عبادته ﷺ شكراً.

وإذاً فلن يكون إنسان أعبد لله أو أكثر خشية من رسول الله ﷺ، وذروة العبادة والخشية هي في اتباعه ﷺ.

مشاهد من خوفه ﷺ:

إن خشية النبي ﷺ وخوفه من الله تعالى، أمر قائم في قلبه ملازم له، لا يفارقه.

ومع ذلك. فقد كانت الحوادث الكونية تؤثر في ذاته، فيظهر أثر ذلك على وجهه الشريف، ويهرع إلى العبادة والذكر.

عن أنس رضي الله عنه، قال: «كانت الريح الشديدة إذا هبت، عرف ذلك في وجه النبي صلى الله عليه وسلم»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة[3] في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء

(١) متفق عليه (خ ٥٠٦٣، م ١٤٠١).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٤).
(٣) مخيلة: هي سحابة فيها رعد وبرق، يخيل إليه أنها ماطرة.

سري عنه، قالت عائشة: فسألته فقال: (ما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾[1] الآية)[2].

وعنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً، عرف ذلك في وجهه، فقالت: يا رسول الله، أرى الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته، عرفتُ في وجهك الكراهية، قالت: فقال: (يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا)[3].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: خسفت الشمس، فقام النبي ﷺ فزعاً يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد، فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته قط يفعله، وقال: (هذه الآيات التي يرسل الله، لا تكون لموت أحد، ولا لحياته، ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك، فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)[4].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ، ففزع، فأخطأ بدرع، حتى أدرك بردائه بعد ذلك[5].

وهكذا من شدة سرعته واهتمامه بذلك أخذ درع أهل بيته - ودرع المرأة قميصها - سهواً، حتى أدركوه بردائه.

بكاؤه ﷺ خشية

عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرأ عليَّ) قال: قلت:

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (٢٤).
(٢) متفق عليه (خ ٣٢٠٦، م ٨٩٩).
(٣) متفق عليه (خ ٦٠٩٢، م ٨٩٩) واللفظ لمسلم.
(٤) متفق عليه (خ ١٠٥٩، م ٩١٢).
(٥) أخرجه مسلم (٩٠٦).

أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري) قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[١] قال لي: (كفَّ، أو أمسك) فرأيت عينيه تذرفان[٢].

وعن عبدالله بن الشخير قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزير المرجل، يعني من البكاء[٣].

وكيف لا، وهو القائل ﷺ.

(عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية (٤١).

(٢) متفق عليه (خ ٥٠٥٥، م ٨٠٠).

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي (د ٩٠٤، ن ١٢١٣) والأزيز: صوت الغليان إذا اشتد.

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٣٩).



الفصل التاسع عشر
الرجاء والقصد في العمل

حدود الخوف:

إن فضيلة الخوف دلت عليها الآيات الكريمة، كما أكدها الرسول الكريم ﷺ بسلوكه.

بل إن الله تعالى أمرنا بالخوف منه، وأوجبه علينا، وجعله شرطاً في الإيمان فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

ووصف المؤمنين فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾(٤).

فالخوف من الله تعالى صفة منبثقة عن الإيمان بالله تعالى. فهو أمر مستقر في قلب المؤمن.

ولكن هذا الخوف لا ينبغي أن يصل إلى درجة:

- تبعث في نفسه القنوط واليأس من رحمة الله.
- أو تبعثه على العبادة إلى الحد الذي يضر بنفسه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٧٥).
(٢) سورة السجدة، الآية (١٦).
(٣) سورة البينة، الآية (٨).
(٤) سورة الرحمن، الآية (٤٦).



وهو ما نهى عنه الإسلام.

فضيلة الرجاء:

لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من رحمة الله تعالى، فإن ذلك أمر محرم منهى عنه قال تعالى:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وقد حضَّ النبي الكريم ﷺ على حسن الظن بالله تعالى:

عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ، قبل موته بثلاثة أيام، يقول: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلّ)[2].

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي)[3].

القصد في العمل:

وحتى لا يندفع المسلم بعامل الخوف إلى الإضرار بنفسه بالعبادة، فقد نهى ﷺ عن ذلك، وقد رأينا في الفصل السابق قصة الرهط الذين جاؤوا يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لن ينجي أحداً منكم عمله) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة. سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا)[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٣) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

(٤) متفق عليه (خ ٦٤٦٣، م ٢٨١٦).

وعن عائشة: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: (من هذه) قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: (مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا)[١].

وعن أنس قال: دخل النبي ﷺ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: (ما هذا الحبل)؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: (لا، حلوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد)[٢].

وكان ﷺ يحض على العمل الدائم وإن قلّ، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة. منها قوله ﷺ: (أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل)[٣].

وبهذا الأسلوب من التوسط يعالج النبي ﷺ أمر هذا الجانب.

حدود الرجاء:

إن الخوف والرجاء ينبغي أن يسيرا في خطين متوازيين في نفس الإنسان المسلم، جنباً إلى جنب، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٥].

فالرجاء هو العلاج الواقي من الوقوع في القنوط واليأس، الذين جعلهما الله من سمات الكافرين والضالين.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٣، م ٧٨٥).
(٢) متفق عليه (خ ١١٥٠، م ٧٨٤).
(٣) متفق عليه (خ ٥٨٦١، م ٧٨٢، ٧٨٣).
(٤) سورة الأنبياء، الآية (٩٠).
(٥) سورة السجدة، الآية (١٦).

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[2].

وإذا كانت هذه مكانة «الرجاء» فكيف نحدد معالمه؟.

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

«الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب.

فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم «الرجاء» صادق عليه.

وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم «الغرور» و «الحمق» عليه أصدق من اسم الرجاء.

وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود، ولا معلومة الانتفاء، فاسم «التمني» أصدق على انتظاره، لأنه انتظاره من غير سبب»[3].

«فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً، غير عفن ولا مسوِّس، ثم أمده بما يحتاج إليه، وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نفى الشوك عن الأرض والحشيش، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق، والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمى انتظاره رجاء.

وإن بث البذر في أرض صلبية سبخة مرتفعة، لا ينصب إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه، سمي انتظاره: حمقاً وغروراً، لا رجاء.

---

(١) سورة يوسف، الآية (٨٧).

(٢) سورة الحجر، الآية (٥٦).

(٣) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٤).



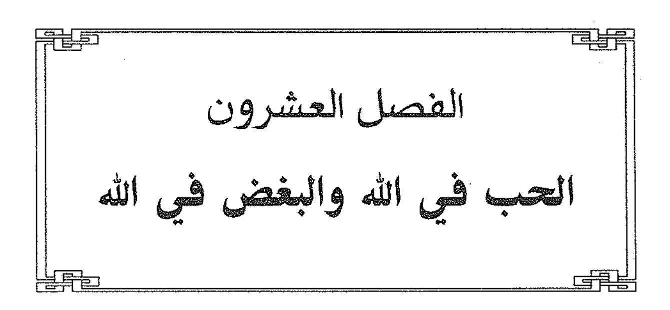
وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، حيث لا تغلب الأمطار ولا تمنع، سمي انتظاره تمنياً لا رجاء.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع»[1].

(١) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٥).







الفصل العشرون
الحب في الله والبغض في الله

العبودية لله في الظاهر والباطن:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)[1].

ذلك كان مسلكه ﷺ في حياته، يجمله لنا في هذه الكلمات القليلة التي تعدّ من عيون البلاغة النبوية.

كلمات قليلة تبين التزامه الكامل ﷺ بأوامره تعالى ظاهراً وباطناً.

ففي ظاهره تخضع كل تصرفاته، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، عطاء كانت، أم منعاً، في شؤون نفسه، أو شؤون عامة الناس، تخضع كلها لأوامره تعالى ونواهيه.

فهو يعطي حين يعطي لله، وابتغاء مرضاة الله.

وهو يمنع حين يمنع لله، وابتغاء مرضاة الله.

فلاحظَّ لنفسه في العطاء أو المنع، ولا دافع وراء العطاء أو المنع غير السعي في العمل وفق مراد الله تعالى.

وفي باطنه تخضع عواطفه، من الحب والبغض، والرضى والغضب، لما يحبه الله تعالى ويرضاه.

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي أمامة (٤٦٨١)، وأخرج الترمذي مثله عن معاذ بن أنس الجهني (٢٥٢١).



فحبه لا تبعثه شهوات نفسه، وبغضه لا تبعثه رغبة الانتقام لنفسه فما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها[1].

ذلك هو رسول الله ﷺ الذي استكمل الإيمان، كما ينص الحديث الشريف.

وعندما يسير الفرد المسلم في ظل هذا الهدي الكريم فيخضع ظاهره وباطنه، وأعماله وعواطفه لما يحبه الله ويرضاه فتلك هي الغاية حيث يكون في محبة الله تعالى. وعندئذٍ يعيش في معنى قوله تعالى في الحديث القدسي:

(كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..)[2] حيث تسخر حواسه كلها في طاعة الله تعالى محبة وعبودية.

أن يحب المرء لله:

وعندما يستقر هذا المعنى في نفس المسلم يستطيع أن يتذوق حلاوة الإيمان كما قال ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان.. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله..)[3].

وعندما تصبح العلاقات بين الناس على أساس من هذا المستوى الرفيع، فإنهم يعيشون سعادة الحياة الدنيا والله تعالى يعطيهم من الثواب في الآخرة ما يتناسب مع ما أخلصوا له من العمل حيث كانت عواطفهم منقادة له تعالى.

---

(١) هو من حديث عائشة المتفق عليه، «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها» (خ ٣٥٦٠، م ٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ونصه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته).

(٣) أخرجه الشيخان (خ ١٦، م ٤٣).



عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظلَّ إلا ظلي)[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانتهم من الله تعالى) قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتقاضونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس) وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2])[3].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله عز وجلَّ: المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور، يغبطهم النبيّون والشهداء)[4].

تلك هي درجة الذين انقادت عواطفهم لطاعة الله، فصدرت عن ذلك، وتحركت لذلك.

ومعنى هذا أن المسلم عندما يحب إنساناً لله، أي لطاعة هذا الإنسان لله تعالى وحبه لله تعالى، فإن هذا الإنسان عندما ينحرف عن ذلك فإنه يهجره لله، وعندما يزداد الانحراف.. فإنه يبغضه لله.

إن عواطفه تتحرك وفق ميزان دقيق مع طاعة الله ورضاه.

ومعنى هذا أنه قد يحب إنساناً ولا يراه ولا يعرفه لما يسمع عنه من التزامه

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦٦).
(٢) سورة يونس، الآية (٦٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠).





وطاعته لله، وقد يقرأ في التاريخ عن إنسان كان محباً لله عاملاً بأوامره.. فيحبه لذلك. ولا مصلحة له مادية مع هذا ولا ذاك.

وهكذا يكون الحب لله والبغض لله.

﴿إنه لا يحب الكافرين﴾:

وكما أن عاطفة الحب لدى المسلم تكون في الله، فكذلك شعور الكره والبغض أيضاً يكون في الله، لا بباعث شخصي دنيوي.

ومع أن الأمر كذلك في شعور المسلم، فإن الله تعالى أكد ذلك في حق الكافرين، فقد جاءت الآية صريحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، فما كان للمؤمن بعد هذا الخبر أن يكون في نفسه أي شعور بالودّ تجاه الكافرين والمحادين لله ولرسوله، لأن هذا الشعور سيأخذ بيده فيجعله في الطرف الثاني بعيداً عن المؤمنين، بل إنه ينفي عنه صفة الإيمان.

ولخطورة هذا الأمر جاءت الآيات الكثيرة واضحة فيه لا تحتمل التأويل.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(٢).

وينبغي أن ننعم النظر في قوله تعالى: ﴿لا تجد..﴾ إنه نفي لوجود هذا الصنف من الناس.. أي إنه لو وجد إنسان في صفوف المؤمنين فيه هذه الصفة، فإنه عندئذٍ لن يكون من المؤمنين، لأن الله تعالى نفى أن يكون ذلك فيهم.

قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية الكريمة: «فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودَّين: ودّاً لله ورسوله،

---

(١) سورة الروم، الآية (٤٥).
(٢) سورة المجادلة، الآية (٢٢).





ووداً لأعداء الله ورسوله، فإما إيمان أو لا إيمان. أما هما معاً فلا يجتمعان»[١].

وإذا كان «الود» غير متصور وجوده في نفس المؤمن تجاه الكافرين وأعداء الله جملة، فمن باب أولى أنه يمتنع على المؤمن أن يتخذ من أعداء الله أولياء ومناصرين وفي هذا المعنى جاءت الآيات الكريمة الكثيرة، ومنها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

هكذا ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وليس هناك بيان فوق هذا البيان ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

وهكذا تكون عواطف المسلم بشكل تلقائي منضبطة من أوامره تعالى[٣].

التشبه بالكافرين:

عندما يقلد إنسان آخر، أو يتشبه به، فإن مبعث ذلك يرجع إلى:

- شعور بالحب نحوه.
- أو شعور بالإعجاب به.

وبناء على ما سبق ذكره من أن العواطف الإيجابية للمسلم ينبغي أن تكون تجاه المؤمنين الذين هم في طاعة الله، فإن أي تقليد لكافر أو تشبه به يعني منح هذا الكافر ما لا ينبغي له، حيث جعله أسوة له يسير على خطاه. وفي هذا ما فيه من خروج على الأصل المقرر السابق.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥١٤).

(٢) سورة المائدة، الآية (٥١).

(٣) هذا لا يمنع أن يتعامل المسلم مع غيره في البيع والشراء والقضايا المادية، فإن هذا الأمر ممكن دون أن يكون هناك عواطف.



وفي ضوء هذا نستطيع فهم الحديث التالي:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من تشبه بقوم فهو منهم)(١).

وقد كثرت أحاديث النبي ﷺ في النهي عن التشبه بالكافرين، في لباسهم وهيئتهم وغير ذلك.

فقد رأى النبي ﷺ على عبدالله بن عمرو ثوبين معصفرين، فقال: (إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها)(٢).

وكتب عمر بن الخطاب رسالة إلى عتبة بن فرقد ـ وكان بأذربيجان ـ «.. وإياكم و التنعم، وزيَّ أهل الشرك، ولبوس الحرير..»(٣).

وجاءت أحاديث أخرى في مخالفتهم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم)(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب)(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (جزوا الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس)(٦).

وقد حرص النبي ﷺ على مخالفتهم حتى في أمر العبادة:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) وأخرجه أحمد. قال محيي الدين عبد الحميد: قال ابن تيمية: سنده جيد، وقال ابن حجر في الفتح: سنده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٦٩).

(٤) متفق عليه (خ ٣٤٦٢، م ٢١٠٣) والمقصود: صبغ الشيب.

(٥) متفق عليه (خ ٥٨٩٢، م ٢٥٩).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٠).

فقد صام رسول الله يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: (فإذا كان العام المقبل، إن شاء الله، صمنا اليوم التاسع).

قال ابن عباس: فلم يأت العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ[(١)].

وهكذا أراد النبي ﷺ أن لا يكون صومنا قاصراً على يوم عاشوراء، حتى لا يكون عملنا مشابهاً لعملهم. ولذا عزم على صوم اليوم التاسع أيضاً.

وإذاً: فقضية عدم التشبه بهم، بل ومخالفتهم أمر من مقاصد الشريعة.

معاملة غير المسلمين:

إن ما قلناه في بغض الكفر وأهله، لا يعني إساءة معاملة غير المسلمين، أو ظلمهم، أو انتقاص حقوقهم.

فقد وردت أحاديث كثيرة تحذر من ذلك أشد التحذير.

عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً)[(٢)].

وقال ﷺ: (ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة)[(٣)].

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[(٤)].

وكان رسول الله ﷺ يتعامل في البيع والشراء مع اليهود، وقد مرت بنا قصة زيد بن سعنة، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢).
(٤) سورة الممتحنة، الآية (٨).



فالمقصود من عدم حب الكافرين، هو بغض الكفر فيهم، وهذا لا يمنع أن نحسن إليهم ونبرهم.

وإنما كان انتشار الإسلام، من جراء حسن معاملة المسلمين وتسامحهم.

ومما ينبغي أن يكون واضحاً. هو عدم خلط الأمرين، فبغض الرسول ﷺ لكفر زيد بن سعنة، لم يمنعه من حلمه عليه وتسامحه معه، مما كان سبباً في إسلامه.

إن بغض الكفر هو اللقاح المضاد للوقوع في المرض، فهو حصانة ضد استحسان المرء الكفر من خلال سلوك الكافرين، الأمر الذي يؤدي شيئاً فشيئاً إلى محبتهم ثم موالاتهم، وهنا تكون الطامة الكبرى.

إن مستعظم النار من مستصغر الشرر، وقد ذكرت بعض الدراسات التي أجريت بشأن انحسار الإسلام عن الأندلس، أن أول نقص دخل على المسلمين هناك هو إعجاب النساء المسلمات بزي النساء الكافرات، حيث بدأن يقلدنهن في لباسهن وسلوكهن..

ومن القواعد الاجتماعية التي سجلها ابن خلدون: أن المغلوب يقلد الغالب، والضعيف يقلد القوي. فكان تقليد المسلمات للكافرات بداية المرض، وبداية الضعف.



الفصل الحادي والعشرون

القناعة وغنى النفس

غريزة حب الجمع:

قال رسول الله ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)(١).

ويتقرر بهذا الحديث ـ والأحاديث في الباب كثيرة ـ أن حب الجمع غريزة موجودة في بنية ابن آدم النفسية، وأنها تستمر معه حتى الموت.

والإسلام لم يأت بإلغاء الغرائز بل بضبطها وتوجيهها.

ولقد ضبط الإسلام هذه الغريزة بنظام الحلال والحرام المدون في أبواب الفقه. فلم يعد باب الجمع مفتوحاً على مصراعيه، بل أصبح وفق نظام واضح المعالم دقيق المآخذ.

﴿لا تمدنَّ عينيك﴾:

وقد ينضبط الإنسان مع نظام الحلال والحرام، ويظل شرهاً، فيضبط يده ولكنه لا يضبط عينه، وسرعة امتداد العين أكبر من سرعة امتداد اليد، ولهذا جاء التوجيه القرآني الكريم:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٣٦، م ١٠٤٩) واللفظ للبخاري.

(٢) سورة طه، الآية (١٣١).

فقد بينت الآية الكريمة أن تلك الأصناف من المال التي أعطيت لبعض الناس إنما هي فتنة وابتلاء.

والذي تمتد عينه إلى ما في أيدي الناس سيظل في فقر دائم، مهما بلغ من الغنى، لأن كل غني فهناك من هو أغنى منه.

ومن هنا، كنا بحاجة إلى تحديد مفهوم الغنى.

وقد جاء ذلك على لسان رسول الله ﷺ عندما قال:

(ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)(١).

إن السعي وراء كثرة العرض ـ المال ـ أمر لا نهاية له، فالساعي في ذلك، في فقر دائم، طالما يقيس نفسه بالآخرين ويحاول إدراكهم أو مسابقتهم.

إن الإسلام لا يمنع التمتع بالطيبات، بل ولا يدعو إلى عدم السعي، ولكنه لا يريد للنفوس المسلمة أن تتهاوى أمام زينة الثراء، وتفقد اعتزازها بالقيم أمام الزخارف الزائلة.

فالغني من ترفعت نفسه عن التطلع لما في أيدي الناس، فكان غنياً بما رزقه الله تعالى، قانعاً به.

وفي هذا يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

(قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه)(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم:

(طوبى لم هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٤٦، م ١٠٥١).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩).

القناعة:

وإذا استطاع الإنسان أن يلتزم بأوامر الله في الكسب من الحلال.

وأن لا يطمع بما لم يقسم له، راضياً بما قسم الله له.

وأن لا تمتد عينه لما في أيدي الناس ولا يطمع فيه.

فعندئذٍ يكون غني النفس قانعاً.

ولا بد للإنسان حتى يكون كذلك من إرادة قوية تضبطه ضمن هذه المعاني.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه ناساً من الأنصار، سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: (ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفَّ يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر)(١).

وواضح من قوله ﷺ: (ومن يستعف) (ومن يستغن) (ومن يتصبر) أنه لا بد للإرادة من أن تأخذ دورها، فتعزم على الاستعفاف والاستغناء والصبر، فإذا كانت الإرادة من الإنسان أعانه الله على الوصول إلى مراده من العفة..

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال:

(يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس(٢) بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ١٤٦٩، م ١٠٥٣).

(٢) أي يطيب نفس من المعطي، وكان عطاؤه ابتداء بغير طلب من الآخذ، ولا استشراف نفس منه.

(٣) متفق عليه (خ١٤٧٢، م ١٠٣٥).

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً، حتى أفارق الدنيا.

وقد وفى بما التزم رضي الله عنه.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل)(١).

(كي لا تزدروا نعمة الله عليكم):

وقد أوضح ﷺ السبيل الموصل إلى القناعة والرضى فقال: (إذا نظر أحدكم إلى من فضِّل عليه في المال و الخَلْق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضِّل عليه).

وفي رواية: (انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)(٢).

إن الرواية الأولى من الحديث ترشد إلى إحداث توازن في النفس عندما تنظر إلى من هو فوقها في الثراء والجمال، فربما شعرت بالأسف والحزن، والذي يعدل الموقف ويعيد التوازن، هو نظرة أخرى إلى الجانب الآخر ممن هو أقل منك مالاً وجمالاً...

وبهذا يعود التوازن والاعتدال إلى النفس.

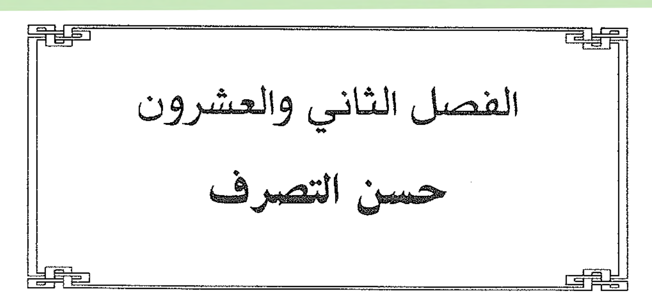
والرواية الثانية توجه إلى أن يكون غالب نظرنا وقياسنا لوضعنا المادي بمن هو أقل منا، وهذا هو السبيل إلى عدم ازدراء نعمة الله علينا.

فنحمد الله تعالى على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى.

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي واللفظ له (د ١٦٤٥، ت ٢٣٢٦).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩٠، م ٢٩٦٣).



الفصل الثاني والعشرون

حسن التصرف

إن سداد الرأي وحسن التصرف، إنما يظهر في المعضلات من الأمور، وفي المواقف الصعبة.

ولقد كان رسول الله ﷺ المقدم في هذا الميدان، كما هو شأنه في كل ميدان.

ونعرض في هذا الفصل بعض المواقف والأمثلة، وإن كانت كل تصرفاته أمثلة في هذا الباب، فقد كانت حياته ﷺ مليئة بالأحداث، مزدحمة بالمواقف.

١ - **الحجر الأسود**: عن عبدالله بن السائب قال: كنت فيمن بنى البيت.. وإن قريشاً قد اختلفوا في الحجر حيث أرادوا وضعه، حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف.

فقالوا: اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله ﷺ، وكانوا يسمونه في الجاهلية: «الأمين» فقالوا: قد دخل الأمين.

فقالوا: يا محمد، قد رضينا بك، فدعا بثوب فبسطه، ثم وضع الحجر فيه، ثم قال لجميع البطون من قريش: ليأخذ كل رجل من كل بطن منكم بناحية من الثوب، فرفعوه، فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه[1].

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٥٥) قال الحافظ الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٩) رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب، وهو ثقة [عن كتاب «الصحيح المسند من دلائل النبوة» (ص ٢٥٧) للوادعي.

وقد يبدو هذا الحل في غاية السهولة، ولكنا إذا تذكرنا أن ذوي الأحلام من قريش كانوا يومئذٍ أمام هذه المشكلة، ولم يجدوا لها حلاً حتى كادوا يحتكمون إلى السيوف، أدركنا مكانة فعله ﷺ وحصافة رأيه، بداهة دون رويَّة.

٢ - **صلح الحديبية**: كانت شروط صلح الحديبية ـ في ظاهرها ـ مجحفة في حق المسلمين، وكأن قريشاً يومئذٍ أملت من الشروط ما تريد. وهذا ما جعل المسلمين غير راضين عن ذلك. وكان لعمر بن الخطاب يومئذٍ دور في محاولة رد ذلك.

ومما يدلنا على مدى تأثر المسلمين وعدم رضاهم، أن رسول الله ﷺ أمرهم أن يتحللوا من عمرتهم. . فلم يفعل ذلك منهم أحد.

كانت نظرتهم يومئذٍ نظرة مؤقتة بالزمن الذي هم فيه، ولم تكن نظرة مستقبلية، وقد تبين فيما بعد أن ما فعله ﷺ هو الصواب.

وقد كان الشرط الذي أثار حفيظة المسلمين: أن من جاء من المشركين مسلماً رده رسول الله ﷺ، ومن ذهب من المسلمين إلى المشركين لم يردوه.

وقد كان لرسول الله ﷺ حكمته في قبول هذا الشرط. حيث لم ير القضية من المساواة الظاهرة، وإنما نظر إلى حقائق الأمور: فقال: بعد أن قال الصحابة أنكتب هذا؟ متعجبين لقبول هذا الشرط:

(نعم، إنه من ذهب منا إليهم، فأبعده الله. ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)[١].

إن الذي يذهب من المسلمين مرتداً فلا ردَّه الله. .

وأكبر دليل على حسن تصرفه ﷺ أن الله تعالى سماه فتحاً، فنزلت سورة الفتح عند عودته من صلح الحديبية.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٤).

ولقد اعترف الصحابة رضي الله عنهم، بقصر نظرتهم يومئذٍ وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب، ومنهم سهل بن حنيف؛ الذي قال: أيها الناس، اتهموا رأيكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل، لو استطيع أن أرد أمر النبي ﷺ لرددته[١].

٣ - **المنافقون**: في غزوة بني المصطلق، حصل شجار بين أجير لعمر بن الخطاب وحليف للخزرج على الماء فسمع ذلك عبدالله بن أبي فقال: أوَقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وعنده عمر بن الخطاب. فقال عمر: مر به عباد بن بشر فليقتله. فقال له: (فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. ولكن أذِّن بالرحيل).

وسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس. فلم يلبثوا أن جلسوا إلى الأرض حتى ناموا جميعاً من شدة التعب.

لقد أراد ﷺ شغل الناس عن الحديث الذي تكلم به عبدالله، خوفاً من حدوث شرخ في جسم الجماعة المسلمة، فكان السير المتتابع المتعب وسيلة ناجعة لما أراده ﷺ، فشغل كل إنسان بنفسه، ثم لما وجد مسَّ الأرض ذهب نائماً..

ونزلت الآيات بعد ذلك في سورة المنافقين..

٤ - **خالد بن سفيان**: بلغ النبي ﷺ أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع الجموع ليسير إلى النبي ﷺ في المدينة، فدعا عبدالله بن أنيس وقال: إنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١) وانظر التفصيل الكامل في «من معين السيرة» ص (٣٣٦-٣٤١).



قد بلغني أن ابن سفيان يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بنخلة أو بعرفة، فائته فاقتله.

وانطلق عبدالله بن أنيس، حتى انتهى إليه، فقال: من الرجل؟ قال عبدالله، قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاء لذلك. قال: أجل إني لفي ذلك.

قال: فمشيت معه ساعة، حتى إذا أمكنني علوته بسيفي فقتلته، ثم خرجت[١].

وبهذا جنب النبي ﷺ المسلمين حرباً، هم في غنى عن خوضها.

٥ - **جيش أسامة**: جهز النبي ﷺ جيش أسامة، وعقد لواءه بيده، ثم مرض، فتوقف الجيش، وكان ﷺ يؤكد على إنفاذ جيش أسامة.

وتوفي ﷺ فكانت رغبة كثير من الصحابة عدم إنفاذ الجيش لتغير الموقف، ولكن أبا بكر أصر على إنفاذ الجيش.. وسار الجيش.

وكان في ذلك كل البركة والخير، فقد كانت كثير من القبائل على وشك الارتداد فلما رؤوا الجيش. قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم..

ورجع الجيش سالماً مظفراً، فثبتت تلك القبائل.

إنها النظرة إلى عواقب الأمور منه ﷺ.

كما أنها الدليل على أن التزام أوامره ﷺ وتنفيذها، هو طريق النجاة مهما كانت الأحوال.

نكتفي بهذه الأمثلة القليلة على حسن تصرفه ﷺ، وتقديره الأمور وحسابها.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٢٤٩) وهو في سيرة ابن هشام (٢/٦١٩).




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE



المقصد الرابع

طهارته ﷺ من سيئ الأخلاق



سبق القول: بأن الإنسان يكون حسن الأخلاق عندما تتطهر نفسه من الأخلاق السيئة، وتتحلى بالأخلاق الحسنة.

فهناك عملان:

- الطهارة.

- الزينة.

وسبق القول: بأن التلازم قائم بين الزينة والطهارة، إذ لا تكون الأولى حتى تكون الثانية، فلا يوجد الصدق إلا حيث ينتفي الكذب، فلا يوصف إنسان بالصدق إلا إذا انتفى الكذب من سلوكه.

ومن جراء هذا التلازم فقد سبق الحديث عن:

الرياء، والكذب، والغدر، والخيانة، والجبن، والبخل، والفحش، والكبر، والعجب بالنفس، والغلظة، وقسوة القلب، والغضب، والظلم، والخوض في الشبهات..

سبق الحديث عنها عند الحديث عن أضدادها من الفضائل.

ونقصر الحديث في هذا المقصد عن نماذج من سيء الأخلاق وهي ما ابتعد عنه صلى الله عليه وسلم، وحذَّر منه.

وقد يستغرب مثل هذا في الشمائل، ولكنه جزء منها، وإن أغفل ذكره أصحاب كتب الشمائل.

وقد كان فيما نقل الصحابة رضي الله عنهم، من شمائله ذكر بعده عن الأخلاق السيئة، فهي جزء من السلوك السلبي الذي تكتمل به الصورة.

فعن عبدالله بن عمرو قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً[١].

وعن عائشة قالت: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٢].

وهكذا عدَّ كل من ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما، الصفات السلبية، والتي هي في دائرة الامتناع عن الفعل من الشمائل. فقد امتنع ﷺ عن الفحش والتفحش والصخب في الأسواق.

بل إن القرآن الكريم نفى عنه ﷺ الفظاظة وقسوة القلب فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

وقد كان من دعائه ﷺ حين يفتتح صلاته قوله: (.. اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقني سيء الأعمال، وسيء الأخلاق، لا يقي سيئها إلا أنت)[٤].

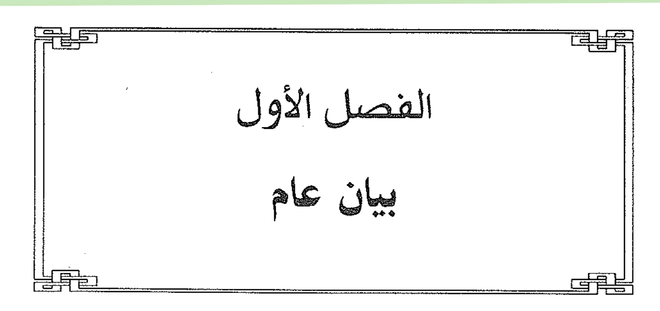
وكان من دعائه ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء)[٥].

ولنذكر بعض النماذج..

---

(١) متفق عليه (خ ٣٥٥٩، م ٢٣٢١).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٠١٦).
(٣) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).
(٤) أخرجه النسائي برقم (٨٩٥).
(٥) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٩١).





الفصل الأول
بيان عام

وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها، رسول الله فقالت: كان خلقه القرآن.

ومعنى ذلك: أنه ﷺ كان ملتزماً بما أمر به القرآن، مبتعداً عما نهى عنه وبهذا كان ﷺ مبيناً للسلوك الذي يطلبه القرآن في جانبيه: الإيجابي والسلبي.

وقد وردت آيات في سورة الأنعام تبين الخط العام فيما ينبغي الابتعاد عنه، والخط العام فيما ينبغي الالتزام به.

قال تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

---

(١) سورة الأنعام، الآيات (١٥١-١٥٣).





قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات[١].

«وننظر في هذه الوصايا، فإذا هي قوام هذا الدين كله.

إنها قوام حياة الضمير بالتوحيد، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة. وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات. وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات، مرتبطة بعهد الله..»[٢].

وهكذا تقرر الآيات الكريمة أن الامتناع عن الشر من الشرك والقتل وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.. ضرورة من الضرورات التي بها تستكمل الفضائل.

وقد كان ﷺ، القدوة والأسوة في البعد عما نهي عنه. وبهذا استحق الوصف بالخلق العظيم[٣].

---

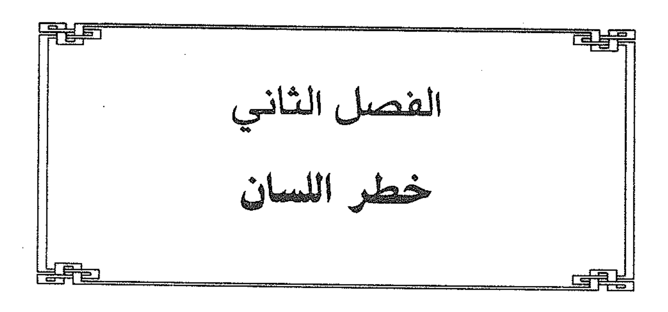
(١) تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآيات الكريمة.

(٢) في ظلال القرآن، عند الحديث عن هذه الآيات.

(٣) ذكرت هذا الموضوع للدلالة على أن الابتعاد عن الشر، هو الجانب الآخر في بنيان الأخلاق الكريمة.







الفصل الثاني

خطر اللسان

على الرغم من صغر حجم اللسان بالنسبة لأعضاء الإنسان الأخرى، فإنه أعظم هذه الأعضاء خطراً على الإنسان، فهو المقود الذي يوجه الإنسان، فبه يستقيم، وبه ينحرف. وبه تقال كلمة التوحيد، وبه يكون إعلان الكفر، وقد سجل الحديث الشريف هذه الحقيقة.

فعن أبي سعيد الخدري ـ مرفوعاً ـ قال: (إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن عوججتَ اعوججنا)[١].

ولما لهذا العضو من خطر كانت أحاديث الرسول ﷺ كثيرة في الحث على ضبطه ومحاسبته، وبيان جزاء من استطاع فعل ذلك.

فعن سهل بن سعد، عن رسول الله ﷺ قال: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من وقاه الله شر ما بين لحييه، وشر ما بين رجليه دخل الجنة)[٣].

وقد نبه ﷺ على ضرورة محاسبة الإنسان نفسه على ما يتلفظ به لسانه، فربَّ كلمة لم يلق لها بالاً كانت سبباً في هلاكه.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٠٧). ومعنى تكفر اللسان: أي تذل له وتخضع.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٤).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٠٩).



ففي الحديث المتفق عليه: أن أبا هريرة رضي الله عنه، سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرقين)(١).

ومن هنا كان إمساك اللسان فضيلة ينبغي الحرص عليها.

قال ﷺ: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)(٢).

وعن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك)(٣).

ونجد في حديث معاذ رضي الله عنه، الذي تناول كليات الإسلام أن أمر اللسان يأخذ مساحة غير صغيرة من الموضوع، مما يدل على مدى عنايته ﷺ بهذا الأمر.

ويحسن بنا أن نسوق الحديث بكامله، لما فيه من بيان لمكانة اللسان وحظره وعظم أمره.

عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.

قال: (لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت).

ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل) قال: ثم تلا ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يُنفِقُونَ﴾(٤).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٧) ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٠٦).

(٤) سورة السجدة، الآية (١٦).

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده وذروة سنامه)؟.

قلت: بلى، يا رسول الله.

قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد).

ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله)؟.

قلت: بلى، يا رسول الله.

فأخذ بلسانه، قال: (كفَّ عليك هذا).

فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون مما[1] نتكلم به؟.

فقال: (ثكلتك[2] أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)[3].

والأمر الذي يستوقف الإنسان في هذا الحديث الشريف:

أنه ﷺ تحدث عن أركان الإسلام.

وأتبع ذلك بالحديث عن أبواب الخير.

ثم أخبرنا عن رأس الأمر، وعموده وذروة سنامه.

ثم عقب على ذلك كله بقوله: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله).

قال الشراح في معنى هذه الجملة: أي ألا أخبرك بما يملك الإنسان به ذلك كله..

وكل ماسبق شيء عظيم وكبير..

ويحصل بكف اللسان، كما أخبر الصادق المصدوق.

ألا يجعل هذا الحديث الشريف أمر كف اللسان في ذروة الأعمال؟ بلى.

---

(١) وفي رواية ابن ماجه: (بما نتكلم به).

(٢) أي فقدتك، وهي كلمة لا يقصد بها معناها، وإنما المقصود التعجب من غفلته عن هذا الأمر.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣).



الفصل الثالث

بعض آفات اللسان

تبينا في الفصل السابق خطر اللسان، من خلال الأحاديث الشريفة، وعرفنا فضل ضبطه وكفِّه.

وفي هذا الفصل نذكر بعض آفاته، وقد سبق في الفصول السابقة من المقصد السابق، الحديث عن الكذب والرياء والفحش..

فمن ذلك:

الغيبة:

الغيبة معول من معاول الهدم في بناء الأمة ووحدتها، وعامل فعال في تفريق الخوة، وقد جاء النهي عنها في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١].

وقال ﷺ: (كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)[٢].

والغيبة مما يتناول العرض.

وقد عرف النبي الكريم ﷺ الغيبة، فقال ـ كما في رواية أبي هريرة ـ: (أتدرون ما الغيبة)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (ذكرك أخاك بما يكره).

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته)(١).

أما عِظَم هذا الذنب فتبينه الأحاديث التي وردت في بيان عقوبة فاعل ذلك.

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لما عرج بي مررت بقوم، لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)(٢).

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)(٣).

وعن أبي بكرة قال: مرَّ النبي ﷺ بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة)(٤).

النميمة:

والنميمة أخت الغيبة، بل هي أعظم إثماً، فالنمام رجل يتحرك بالشر ويسعى من أجله. فهي نقل الكلام على وجه الإفساد.

وقد جاء ذم ذلك في القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٩).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٧٨، ٤٨٧٩).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٨٠).
(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٤٨).

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾(١).

وينقل لنا حذيفة رضي الله عنه، ما سمعه من النبي ﷺ في بيان عقوبة ذلك حيث قال ﷺ: (لا يدخل الجنة نمام)(٢).

وعن ابن عباس قال: مرَّ النبي ﷺ على قبرين فقال: (إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير) ثم قال: (بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله)(٣).

وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال النبي ﷺ (ألا أخبركم بخياركم)؟ قالوا: بلى، قال: (الذين إذا رؤوا ذكر الله، أفلا أخبركم بشراركم)؟ قالوا: بلى، قال: (المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون البرآء العنت)(٤).

فضول الكلام:

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع)(٦).

وإذا عرف المسلم أنه محاسب على كلامه، قلَّ كلامه.

---

(١) سورة القلم، الآيات (١٠-١٢).
(٢) متفق عليه (خ ٦٩٥٦، م ١٠٥) واللفظ لمسلم.
(٣) متفق عليه (خ ١٣٧٨، م ٢٩٢).
(٤) الأدب المفرد للبخاري برقم (٣٢٦).
(٥) سورة ق، الآية (١٨).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٥).

قال عمر بن عبد العزيز: من عدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه[1].

وكثيراً ما يؤدي فضول الكلام إلى الخوض في الباطل، وفيما لا ينبغي، ولهذا كثيراً ما أكد ﷺ على (فليقل خيراً أو ليصمت) كما سبق.

ذو الوجهين:

ذو الوجهين، هو ذو اللسانين، فاللسان هو الذي يعطي الوجه صورته المعنوية، من استقامة أو انحراف.

فذو الوجهين الذي يتردد بين متعاديين، فيكلم كلاً منهما بما يوافقه.

وقد عدَّ الرسول ﷺ من يفعل ذلك شرَّ الناس فقال:

(تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه)[2].

وعن عمار قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار)[3].

ومن آثار وجود هذه الصفة عند إنسان انتفاء الأمانة وذهابها عنه.

فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً)[4].

اللعن:

نهى الرسول الكريم ﷺ في أحاديث كثيرة عن اللعن، وبيَّن أن المؤمن لا يكون لعاناً.

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين. ٢/٦٦.

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٥٨، م ٢٥٢٦ م).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٧٣) والدارمي (٢٧٦٤).

(٤) أخرجه في الأدب المفرد للبخاري برقم (٣١٦).



فعن عبدالله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: (لا يكون المؤمن لعاناً)[1].

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش، ولا البذيء)[2].

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)[3].

وحدث عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: (خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة).

قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد[4].

وقد ترجع اللعنة إلى قائلها، إذا لم يكن من وجهت إليه أهلاً لها.

فقد أخرج أبو داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (إن العبد إذا لعن شيئاً، صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعِنَ، فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها)[5].

وعن ابن عباس: أن رجلاً لعن الريح ـ وفي رواية: إن رجلاً نازعته الريح رداءه على عهد النبي ﷺ فلعنها ـ فقال النبي ﷺ: (لا تلعنها فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل، رجعت اللعنة عليه)[6].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠١٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (١٩٧٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٨).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٥).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٠٥).

(٦) أخرجه أو داود برقم (٤٩٠٨) والترمذي (١٩٧٨).





وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: (إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة)[1].

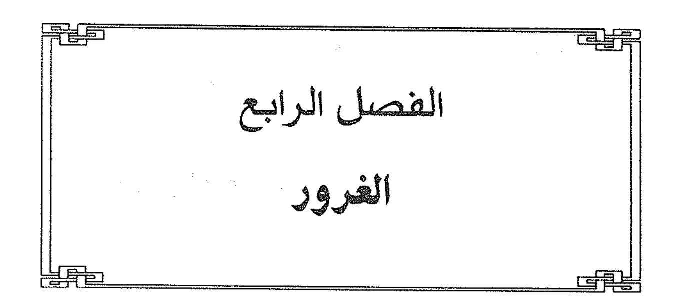
وهكذا لم تجرِ اللعنة على لسانه ﷺ حتى في حق المشركين.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٩).







الفصل الرابع
الغرور

الغرور من سيء الأخلاق، التي ينبغي للمسلم أن يبذل جهده للتخلص منها.

وهناك عدد غير قليل من الآيات، حذر الله تعالى فيها من الغرور.

ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[3].

وأخرج البخاري عن عثمان رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: (لا تغتروا)[4].

ويحسن بنا أن نتعرف على الغرور حتى نبتعد عنه.

«فالغرور: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في

(١) سورة لقمان، الآية (٣٣) وفاطر (٥).
(٢) سورة آل عمران، الآية (١٨٥) والحديد، الآية (٢٠).
(٣) سورة الانفطار، الآية (٦).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٤٣٣).



الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور»[(١)].

فالمغرور معجب بنفسه، مطمئن لما هو عليه.

وقد كان ﷺ يحذر أصحابه والمسلمين من بعدهم من هذا الخلق السيء، لما يجره من بلاء ووبال على صاحبه.

فعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله)[(٢)].

وأخرج البخاري عن خارجة بن زيد الأنصاري: أن أم العلاء ـ امرأة من نسائهم قد بايعت النبي ﷺ ـ أخبرته: أن عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في السكنى، حين أقرعت الأنصار سكنى المهاجرين.

قالت أم العلاء: فسكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله.

فقال لي النبي ﷺ: (وما يدريك أن الله أكرمه).

فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٣.
ويوضح الإمام الغزالي معنى الغرور فيقول:
«الرجاء: هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدَّ وأن يكون له سبب.
فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم «الرجاء» صادق عليه.
وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم «الغرور» و «الحمق» عليه أصدق من اسم الرجاء».
(المهذب من إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه برقم (٤٢٦٠) وضعفه الألباني.



فقال رسول الله ﷺ: (أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي)[1].

ويستوقفنا في الحديث أمران:

الأول: أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، والذي أثنت عليه أم العلاء، هو من المسلمين الأوائل، وممن هاجر الهجرتين، وممن شهد بدراً، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة..

الثاني: قوله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: (والله ما أدري ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بي).

إنه أمر يستحق الوقوف أمامه طويلاً وإمعان النظر فيه:

فلا يغتر عالم بعلمه.

ولا عامل بعمله.

ولا عابد بعبادته.

ولا منفق بنفقته.

والغرور أمر مذموم، سواء أكان في أمور الدنيا أو أمور الآخرة. وإنما ينتج الغرور عن الجهل، بل هو الجهل.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً[2].

وللغرور بواعث كثيرة، ويكون علاج كل نوع بالنظر إلى باعثه.

فمن كان غروره بعلمه، فليقس علمه إلى علم العلماء.. وعندها يصغر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٤٣، ٢٦٨٧).

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٨.





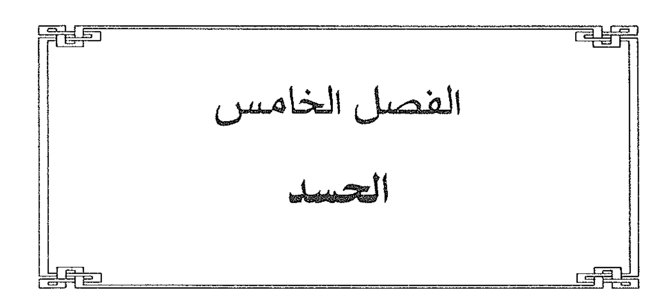
عنده علمه، وتصغر كذلك نفسه. والعالم الحق، هو الذي كلما زاد علمه، زادت معرفته بجهله.

وهكذا يعالج كل غرور، بالنظر إلى باعثه[1].

---

(١) انظر ـ إن رغبت ـ المهذب من إحياء علوم الدين ٢/ ٢٢٣-٢٤١ حيث استوفى الإمام الغزالي بيان أنواع الغرور وكيفية علاجها.





الفصل الخامس

الحسد

الحسد مرض خبيث، يفتك بالجماعة فيفرقها، ويذكي نار الحقد والغيظ والعداوة في النفوس.

وقد وصف آثاره النبي ﷺ فقال: إنه يحلق الدين.

عن الزبير بن العوام، أن النبي ﷺ قال: (دبَّ إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[(١)].

وقد نهى النبي ﷺ عن التحاسد في أكثر من حديث فقال:

(.. ولا تحاسدوا..)[(٢)].

«والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده، مع تمني زوالها، وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال»[(٣)].

وإذا كان هذا وضع الحسد، فإنه لا يمكن أن يجد له مكاناً في قلب المؤمن، ذلك أن التضاد قائم بين الإيمان الذي هو خلاصة الخير، وبين الحسد الذي هو ثمرة الشر.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة (خ ٦٠٦٦، م ٢٥٦٣) وأنس (خ ٦٠٦٥، م ٢٥٥٩).

(٣) في ظلال القرآن. عند تفسير سورة الفلق.





وهذا ما قرر الحديث الشريف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد)[1].

وقد طلب من المسلم أن يتعوذ من شر الحاسد قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[2].

وإذاً فلا بد للمسلم من أن يطهر قلبه من الحسد، حتى يكون متأسياً بالنبي صلّى الله عليه وسلّم.

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٣١٠٩).
(٢) سورة الفلق، الآية (٥).




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE



المقصد الخامس

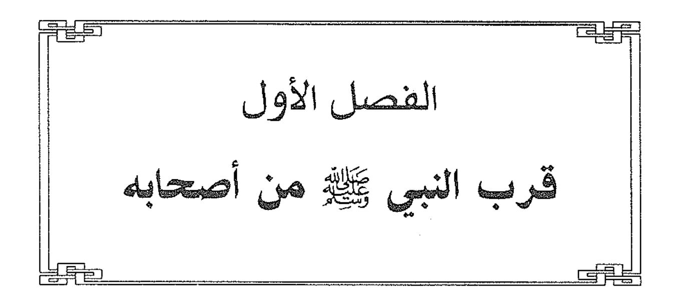
مِنْ آدابه صلى الله عليه وسلم











الفصل الأول

قرب النبي ﷺ من أصحابه

قربه ﷺ من أصحابه

كان ﷺ، مع أصحابه في كل وقت، فليس هناك من حواجز تمنعه منهم، يطرقون بابه ليلاً ونهاراً.

عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم(١).

وكان يقبل بوجهه وحديثه على أشرِّ القوم، يتألفهم بذلك، حتى يظنَّ أنه خير القوم(٢).

فكان كل صحابي يشعر بمكانته عند رسول الله ﷺ، حتى كأنه المقرب دون غيره ولعل ما حصل لعمرو بن العاص خير مثال على ذلك.

أسلم عمرو في مطلع العام الثامن الهجري، وبعد خمسة أشهر عقد له ﷺ لواء وأرسله أميراً في سرية ذات السلاسل، على ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار.

ثم أمدَّه بأبي عبيدة في مائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، جميعاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل، مختصر الشمائل للألباني برقم (٢٩٥).



وقام عمرو بالمهمة، وعاد إلى المدينة، وهو معجب بمكانته عند رسول الله ﷺ، فهو ـ وهو حديث عهد بالإسلام ـ يقود جيشاً فيه أبو بكر وعمر.

وهذا ما دفعه إلى أن يعرف مكانته عند النبي ﷺ. قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة) فقلت: من الرجال؟ فقال: (أبوها) قلت: ثم من قال: (عمر بن الخطاب) فعدَّ رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم[1].

والذي نتوقف عنده من هذه الحادثة. وهي ذات أبعاد متعددة الجوانب في الأدب النبوي الكريم[2]. أن عمرو بن العاص ظن نفسه أنه أضحى من أقرب الناس إليه ﷺ، وهذا مما يدل على بشر النبي ﷺ ورحابة صدره التي وسعت جميع أصحابه.

وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، في شأن الراية يوم خيبر، قال ﷺ: (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله).

قال سهل: لما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها[3].

وتطاول لها عمر بن الخطاب، وتطاول لها سعد بن أبي وقاص.. وتطاول لها بريدة بن الحصيب.

قال بريدة: فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها[4].

---

(١) متفق عليه: (خ ٣٦٦٢، ٤٣٥٨، م ٢٣٨٤).
(٢) انظر تفصيل ذلك في «من معين السيرة» ص (٣٨٠-٣٨٢).
(٣) متفق عليه (خ ٤٢١٠، م ٢٤٠٦).
(٤) فتح الباري (٧/٤٧٧).

أرأيت كيف كان كل صحابي يشعر بقربه من رسول الله ﷺ، فيرشح نفسه لهذا العمل، لأنه يحب الله ورسوله، ويشعر بحب رسول الله له. حتى قال بريدة. معبراً عما في نفس كل صحابي.: حتى تطاولت أنا لها.

وهذا جرير بن عبدالله يقول: ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي[1].

والحقيقة أن هذا كان سلوك النبي ﷺ مع كل أصحابه، فما حجب أحداً منهم في يوم من الأيام، وكانت ابتسامته في وجوه أصحابه دائمة. ولكن جرير يتحدث عما حصل له.

تفقده ﷺ أصحابه:

كان النبي ﷺ يتفقد أصحابه في الحضر والسفر، ويسأل عنهم، وإذا أخبر بمرض أحدهم سارع إلى زيارته.

وكثيرة هي الأحاديث التي سجلت عيادته لمن مرض من أصحابه.

وكثيراً ما يكون في سفر فيغيب عنه واحد من أصحابه، فيسأل عنه.

ففي غزوة تبوك التي تغيب عنها كعب بن مالك، وعدد المسلمين يومئذٍ كثير وما من رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى عن النبي ﷺ..

ومع ذلك، لما وصل النبي ﷺ إلى تبوك وجلس فيها قال: (ما فعل كعب)؟ كما سأل عن غيره، فلم تكن كثرة العدد لتنسيه واحداً منهم.

ويومها قال للذي جاء متأخراً ولا يعلم من هو: (كن أبا خيثمة) فإذا هو أبو خيثمة.

وعن أبي برزة، أن النبي ﷺ كان في مغزى له، فأفاء الله عليه. فقال لأصحابه: (هل تفقدون من أحد)؟ قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً وفلاناً، ثم

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٣٥، م ٢٤٧٥).

قال: (هل تفقدون من أحد)؟ قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً وفلاناً، ثم قال: (هل تفقدون من أحد)؟ قالوا: لا، قال: (لكني أفقد جليبيباً، فاطلبوه) فطلب في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه[١]..

وعن أبي هريرة: أن أسود ـ رجلاً أو امرأة ـ كان يقم[٢] المسجد، فمات ولم يعلم النبي ﷺ بموته، فذكره ذات يوم فقال: (ما فعل ذلك الإنسان)؟ قالوا: مات يا رسول الله، قال: (أفلا آذنتموني)[٣]..

وهكذا كان لكل فرد من المسلمين مكانته في نفس رسول الله ﷺ يسأل عنهم جميعاً، ويتتبع أخبارهم، بغية الاطمئنان على أحوالهم وأمورهم.

ومن سيرته ﷺ في السفر والجهاد: أنه كان يتخلف في المسير، فيزجي[٤] الضعيف، ويردف، ويدعو لهم[٥].

وهكذا لم تمنع هيبته ﷺ، أن يكون قريباً من أصحابه، وأن يكونوا قريبين منه، بل إنه كان يمازحهم، ويمزحون أمامه وهو ما نتحدث عنه في الفقرة الآتية.

مزاحه ﷺ

حينما ظن حنظلة أن الحياة ينبغي أن تكون باستمرار في حال من الجد، بعيداً عن اللهو، وظن نفسه أن نافق بمداعبته زوجته وأولاده، وجاء يشكو ذلك إلى الرسول ﷺ قال له النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٢).
(٢) يقم: أي يكنس، القمامة: الكناسة.
(٣) متفق عليه (خ ١٣٣٧، م ٩٥٦).
(٤) يزجي: أي يسوق.
(٥) أخرجه أبو داود (٢٦٣٩).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٠).



وهكذا أعلمه ﷺ، أنه لا بد من ترويح النفوس بين الفينة والفينة حتى تستعيد نشاطها.

والمزاح من اللهو المباح، وقد كان ﷺ يمازح أصحابه.

عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله، إنك تداعبنا، قال: (إني لا أقول إلا حقاً)(١).

وهكذا كان مزحه ﷺ لا يخرجه عن قول الحق والصدق.

عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، احملني، قال النبي ﷺ: (إنا حاملوك على ولد ناقة) قال: وما أصنع بولد ناقة؟ فقال النبي ﷺ: (وهل تلد الإبل إلا النوق)(٢)؟.

وعن أنس رضي الله عنه. قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا ذا الأذنين) قال أبو أسامة: يعني يمازحه(٣).

وفي تفسير ابن كثير عن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: (يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز)، قال: فولت تبكي، قال: (أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾(٤))(٥).

ومج رسول الله ﷺ في وجه محمود بن الربيع مجة، وهو ابن خمس سنين، يمازحه(٦).

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، كان

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٩٩٠).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٩٨) والترمذي (١٩٩١).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٠٢) والترمذي (١٩٩٢).
(٤) سورة الواقعة، الآية (٣٥، ٣٦).
(٥) تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة.
(٦) أخرجه البخاري برقم (١٨٩).





يهدي للنبي ﷺ من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: (إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضروه) وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه النبي ﷺ، يوماً وهو يبيع متاعه، فاحتضنته من خلفه وهو لا يبصره، فقال الرجل: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ يقول: (من يشتري العبد)؟ فقال: يا رسول الله، إذاً والله تجدني كاسداً، فقال النبي ﷺ: (لكن عند الله لست بكاسد)[١].

وهكذا كان ﷺ يداعب أصحابه ويمازحهم، حينما تكون مناسبة، أو تسنح فرصة.

وإذا كان المزح مطلوباً في بعض الأوقات، فقد سنَّ له رسول الله ﷺ آداباً ينبغي مراعاتها، منها:

أنه ينبغي ألا يكون فيه ما يسيء إلى مسلم أو يروعه، ففي الحديث قوله ﷺ: (لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً)[٢] وقال ﷺ: (لا يأخذنَّ أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً)[٣].

كما ينبغي أن لا يخرج عن دائرة الصدق، كما كان شأنه ﷺ، وقد حذر ﷺ من الكذب لإضحاك الناس فقال: (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٦١.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٠٤).
(٣) أخرجه أبو دواد برقم (٥٠٠٣) والترمذي (٢١٦٠).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٩٠) والترمذي (٢٣١٥) والدارمي (٢٧٠٢).





الفصل الثاني
الشفاعة

قال الله تعالى:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾(١).

فالشفاعة نوعان:

- شفاعة حسنة.

- شفاعة سيئة.

وقد كان ﷺ يشفع للإصلاح بين الناس، والتأليف بينهم.

فقد توفي عبدالله ـ والد جابر ـ وترك ديناً عليه ليهودي، فاستنظره جابر فأبى أن ينظره، فجاء جابر إلى رسول الله ﷺ وكلمه ليشفع له إلى ذلك اليهودي، وقام معه رسول الله ﷺ ومشى إلى اليهودي وكلمه(٢)..

وتخاصم كعب بن مالك مع ابن أبي حدرد في دين كان له عليه، فناداه رسول الله ﷺ: (يا كعب) قال: لبيك يا رسول الله، قال: (ضع من دينك هذا) وأومأ إليه: أي الشطر، قال: قد فعلت يا رسول الله، فقال لابن أبي حدرد: (قم فاقضه)(٣).

وكان مغيث عبداً أسود، وكانت زوجته أمة اسمها بريرة، وحدث أن

(١) سورة النساء، الآية (٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٩٦).
(٣) متفق عليه (خ ٤٥٧، م ١٥٥٨).



أعتقت بريرة، ففسخت نكاحها[١]، وكان مغيث يحبها، يطوف خلفها في سكك المدينة وهو يبكي.

فشفع رسول الله ﷺ في مغيث، وقال لبريرة: (لو راجعتِه) قالت: يا رسول الله، أتأمرني؟ قال: (إنما أنا أشفع) قالت: لا حاجة لي فيه[٢].

هذه نماذج من شفاعاته ﷺ وهي في ميدان أعمال الخير والإصلاح.

وقد حض النبي ﷺ على المبادرة إلى الشفاعة في هذه الميادين الخيرة وطلب من أصحابه أن يفعلوا ذلك.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ، إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة قال: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء)[٣].

فقد تكون الشفاعة سبباً في إحسان، أو تيسير على مسلم، أو دفع ظلامة فيكون للشافع الأجر في ذلك.

وإن من البخل، أن يبخل إنسان بشفاعته، وهو يعلم أنه ييسر على معسر فيها.

وقد وعى الصحابة رضي الله عنهم، هذا الدرس عن رسول الله ﷺ.

قال معاوية: اشفعوا تؤجروا، فإني لأريد الأمر فأؤخره كيما تشفعوا فتؤجروا، فإن رسول الله ﷺ قال: (اشفعوا تؤجروا)[٤].

تلك هي الشفاعة الحسنة.

---

(١) من حق الأمة الرقيقة إذا أعتقت وأصبحت حرة، وكان زوجها عبداً رقيقاً أن تفسخ نكاحها، إذا رغبت، لأن هذا النكاح حينما عقد لم يكن حسب رغبتها، وإنما برغبة سيدها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

(٣) متفق عليه (خ ١٤٣٢، م ٢٦٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود والنسائي (د ٥١٣٢، ن ٢٥٥٦).



أما الشفاعة السيئة، فهي التي تكون في حدود الله، كما فعل أسامة بن زيد عندما جاء يشفع في المرأة التي سرقت[1].

وكذلك كل شفاعة يترتب عليها، ظلم لإنسان، مهما كان شأن هذا الظلم، فإن هذا مما منعه الشرع المطهر.

(١) متفق عليه (خ ٣٤٦٥، م ١٦٨٨).





الفصل الثالث
الشورى والاستخارة

الشورى

قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

نزلت هذه الآية في مكة، في سياق تعداد أوصاف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ونزول الآية في مكة، قبل أن يكون للمسلمين دولة، وقبل أن يكون بين المسلمين وغيرهم قتال، يعني أن هذا الأمر الاجتماعي أمر ضروري، في السلم والحرب، في مجال قيادة الأمة، وفيما هو أصغر من ذلك، وحتى في الأمور الخاصة للإنسان يحسن أن يستشير من يثق به..

وقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه(١).

ولو ذهبنا نسوق الأمثلة والوقائع في ذلك لطال بنا المقام، ولكنا نكتفي بذكر بعضها باختصار.

١ - استشار النبي ﷺ أصحابه يوم بدر وقال: (أشيروا علي أيها الناس) وتكلم عدد من الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم كان القرار.

ثم أخذ بمشورة الحباب بن المنذر في موقع أرض المعركة.

ثم كانت المشورة في الغنائم.

(١) أخرج الترمذي عن أبي هريرة تعليقاً: ما رأيت أحداً أكثر مشورة من رسول الله ﷺ (برقم ١٧١٤).



٢ - وفي غزوة أحد، استشار ﷺ أصحابه وكان رأيهم الخروج، وكان رأيه البقاء في المدينة وأخذ برأيهم وترك رأيه. وكان ما كان.. ومع ذلك جاءت الآيات لتؤكد أمر الشورى على الرغم مما حدث. قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١].

٣ - وفي غزوة الخندق استشار النبي ﷺ، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ في أن يجعل لغطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع، فقالا: إن كنت أمرت بشيء فامض لأمر الله، قال: (لو كنت أمرت بشيء، ما استأمرتكما) ولكن هذا رأي أعرضه عليكما، قالا: فإنا نرى أن لا نعطيهم إلا السيف. وأخذ ﷺ برأيهما[٢].

وفي هذه الغزوة أخذ برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه، بشأن حفر الخندق.

٤ - وفي عمرة الحديبية، بلغ النبي ﷺ أن قريشاً جمعت له الجموع.. فقال ﷺ:

(أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت..) فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: (امضوا على اسم الله)[٣].

وأخذ ﷺ بمشورة أبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٧٣).
(٣) أخرجه البخاري (٤١٧٨، ٤١٧٩).

الحزم وعدم التردد

إن المشورة تكون قبل العزم والتصميم على فعل الشيء، وهذا ما يفهم من الآية الكريمة السابقة الذكر ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وفي غزوة أحد بعد أن استشار النبي ﷺ أصحابه، وأخذ برأيهم، ندم أصحابه وشعروا أن رغبته كانت في غير ما ذهبوا إليه فقالوا: لعلنا استكرهناك فإن شئت فاقعد، فقال: (لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل).

وبهذا قطع عليهم أمر التردد، فإنه بعد العزم. يكون ضعفاً يؤدي إلى الفشل. وعلى هذا: فالمشورة أولاً ثم يكون العزم بعد ذلك.

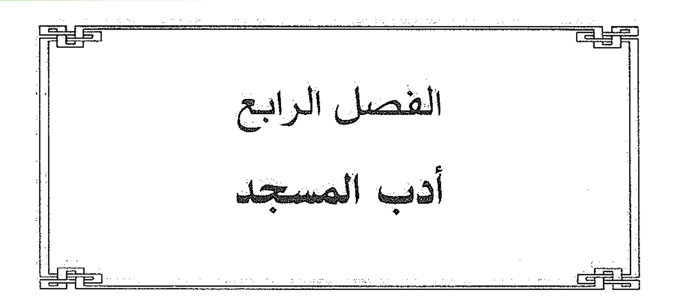
الاستخارة

عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: (إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به. قال: ويسمي حاجته)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٦).





الفصل الرابع
أدب المسجد

المساجد أماكن العبادة، وهي بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وللمسلم ارتباط وثيق بهذه البيوت، فهو يتردد عليها في اليوم خمس مرات.

ولدخولها والذهاب إليها، والمكوث فيها، والخروج منها آداب، يحسن بالمسلم أن يلتزم بها، لأنه بذلك يتأسى بفعله ﷺ، أو ينفذ أمره ﷺ.

الذهاب إلى المسجد:

جعل الإسلام للوسائل حكم الغايات، فالمسجد مكان العبادة، والذهاب إليه، ذهاب إلى عبادة.

والعبادة اطمئنان وسكينة، ولهذا كان على الذاهب إلى المسجد أن يكون مشيه بهدوء وسكينة، ولا يستعجل من أجل إدراك الصلاة.

قال ﷺ: (إذا أقيمت الصلاة، فلا تأتوها تسعون، وائتوها تمشون، عليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا).

زاد الإمام مسلم في روايته: (فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في صلاة)[1].

وواضح من نص رواية مسلم: أن طلب السكينة في الطريق، لأن للمشي إلى الصلاة حكم الصلاة.

---

(١) متفق عليه (خ ٩٠٨، م ٦٠٢).



دخول المسجد:

فإذا وصل المسجد بدأ دخوله برجله اليمنى[١]، ثم يسلم على النبي ﷺ ثم يقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتك.

عن أبي حميد أو عن أبي أسيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ، ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، فإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك)[٢].

تحية المسجد:

فإذا صار إلى داخل المسجد، فإنه لا ينبغي له أن يجلس حتى يصلي ركعتين.

عن أبي قتادة السلمي: أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس)[٣].

كراهة تخطي الرقاب:

وإذا كان النبي ﷺ قد بين فضيلة الصف الأول، وحثَّ على السعي إليه، فذلك معناه الحث على التبكير إلى الصلاة، ليحصل عل مكان في الصف الأول، لا أن يأتي في آخر الناس، ثم يتخطى الناس بغية الوصول إلى الصف الأول.

عن عبدالله بن بسر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب، فقال له النبي ﷺ: (اجلس فقد آذيت)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً: كان ابن عمر يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى [كتاب الصلاة، باب ٢٧].

(٢) أخرجه مسلم (٧١٣) وأبو داود (٤٦٥) والنسائي وابن ماجه والدارمي، ولم يذكر مسلم الصلاة على النبي ﷺ في أوله.

(٣) متفق عليه (خ ٤٤٤، م ٧١٤).

(٤) أخرجه أبو داود برقم (١١١٨) والنسائي (١٣٩٨).

آداب المكوث في المسجد:

وللمسجد حرمته التي ينبغي أن تراعى:

فلا ترتفع الأصوات فيه. قال السائب بن يزيد: كنت قائماً في المسجد، فصحبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئته بهما. قال: من أنتما، أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟[(١)].

ولا يدخله مَن أكل ثوماً أو بصلاً.. والأحاديث في ذلك كثيرة[(٢)].

ولا تنشد فيه ضالة.

والمكوث في المسجد عبادة سواء كان ذلك في انتظار الصلاة أو بعدها.

الخروج من المسجد:

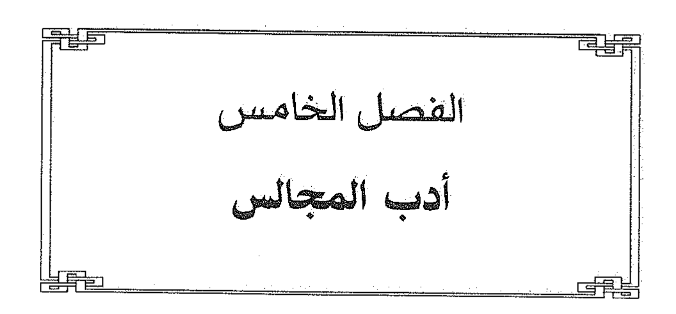
فإذا خرج من المسجد بدأ برجله اليسرى، كما سبق ذكره.

ويقول: اللهم إني أسألك من فضلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠).

(٢) ومثل آكل الثوم والبصل: شارب الدخان، ومن جاء إلى المسجد بثياب مهنته، وبخاصة ثياب بعض المهن ذات الروائح الخبيثة كالدهان، ومن يعمل في محلات الزيوت والشحوم، وما يشبه ذلك، إذ الحكمة الحفاظ على نظافة المسجد، والحفاظ على الرائحة الطيبة والجو العطر.
والأفضل لمن كان كذلك، أن يصلوا في بيوتهم، أو أماكن عملهم، حتى لا يؤذوا المسلمين والملائكة.



الفصل الخامس
أدب المجالس

كان ﷺ قدوة لأصحابه في كل عمل يقوم به، عبادة كان أو أدباً.. وكانوا يقتفون أثره في كل صغيرة وكبيرة.. ونخص هذا الفصل بالحديث عن أدبه ﷺ في مجالسة أصحابه رضي الله عنهم:

حيث انتهى المجلس

كان ﷺ إذا جاء إلى أصحابه سلم وجلس حيث انتهى به المجلس، ولهذا كان يأتي الرجل الغريب فلا يميزه من أصحابه حتى يسأل عنه.

ففي البخاري عن أنس بن مالك قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد، دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء[1]..

وعن أبي ذر وأبي هريرة قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو، حتى يسأل[2]..

وقد تعلم ذلك الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا يفعلون ذلك.

عن جابر بن سمرة قال: كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٩٨) والنسائي (٥٠٠٦).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٢٥) والترمذي (٢٧٢٥).

وقد نهى الرسول ﷺ أن يفرق الرجل في جلوسه بين اثنين إلا بإذنهما.

عن عبدالله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما)[1].

كما نهى ﷺ أن يقيم الرجل رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه.

فقد روى الشيخان وغيرهما، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه)[2].

وعن ابن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقام له رجل من مجلسه، فذهب ليجلس فيه، فنهاه رسول الله ﷺ[3].

لا يُقام للقادم:

وكان ﷺ يكره أن يقوم له أصحابه.

قال أنس رضي الله عنه: لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك[4].

وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سرَّه أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوَّأ مقعده من النار)[5].

الرجل أحق بمجلسه:

وإذا خرج رجل من مجلس لحاجة، وفي نيته أن يعود، فهو أحق بمجلسه.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٤٤) والترمذي (٢٧٥٢).

(٢) متفق عليه (خ ٦٢٦٩، م ٢١٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٢٨).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٧٥٤) والبغوي في شرح السنة. وفي الأنوار برقم (٣٩٢).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٥٢٢٩) والترمذي برقم (٢٧٥٥).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (من قام من مجلسه، ثم رجع إليه، فهو أحق به)(١).

التناجي:

نهى رسول الله ﷺ إذا كان في المجلس ثلاثة أن ينفرد بالحديث اثنان يتساران، يخفيان حديثهما عن الثالث، لما في ذلك من أثر نفسي على الثالث، حيث يرى نفسه ـ من وجهة نظرهما ـ أنه ليس أهلاً لسماع ما يدور بينهما. فيحزن لذلك، وربما طوى في نفسه الحقد عليهما والكره لهما.

عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث)(٢).

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه)(٣).

أما إذا كانوا أكثر من ذلك فلابأس، لأنه ينتفي عندها وجود الحزن في نفس الثالث لوجود رابع معه أو أكثر من ذلك.

أدب الحديث:

ومن أدب الحديث في المجالس، أن لا يتقدم الإنسان على من هو أكبر منه سناً.

والرسول ﷺ يقول: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا)(٤).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٧٩).
(٢) متفق عليه (خ ٦٢٨٨، م ٢١٨٣).
(٣) متفق عليه (خ ٦٢٩٠، م ٢١٨٣).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٩٤٣) والترمذي (١٩٢٠).

وفي قضية مقتل عبدالله بن سهل جاء حويِّصة ومحيِّصة إلى رسول الله ﷺ فذهب محيصة ليتكلم وهو الأصغر، فقال النبي ﷺ له: (كبِّر كبِّر) فتكلم حويصة[١]..

وقد تأدب الصحابة الكرام رضي الله عنهم، بهذا الأدب الكريم.

فهذا عبدالله بن عمر يقول: إن رسول الله ﷺ قال: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي)؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة.. ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم... وإذا أنا أصغر القوم فسكت.

فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ: (هي النخلة)[٢].

وهكذا دفع الأدب والحياء عبدالله إلى عدم الكلام وفي المجلس من هو أكبر قدراً وسناً منه.

وهذا عبدالله بن عباس في مجلس عمر ـ وهو فتىً ـ مع أشياخ بدر رضي الله عنهم جميعاً.

وقال عمر: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ حتى ختم السورة.

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وقال بعضهم: لا ندري..

فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول يا ابن عباس؟.

قال ابن عباس: قلت: لا.

قال: فما تقول؟.

قال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

(١) متفق عليه (خ ٧١٩٢، م ١٦٦٩).
(٢) متفق عليه (خ ٧٢، ١٣١، ٤٦٩٨، م ٢٨١١).

فتح مكة، فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم(١).

وهكذا لم يتكلم ابن عباس في مجلس فيه من هو أكبر منه حتى سئل، التزاماً بالأدب الإسلامي.

العطاس:

والعطاس أمر لا إرادي يحدث للإنسان فجأة، وربما حدث ذلك وهو في مجتمع من الناس.

وقد سنَّ رسول الله ﷺ أدباً قولياً وآخر فعلياً عندما يحدث ذلك.

فعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس، وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض بها صوته(٢).

هذا من حيث الفعل.

وفي مجال القول: قال ﷺ: (إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم)(٣).

فإذا تكرر العطاس من الإنسان، شمت ثلاثاً، فما زاد فهو مزكوم.(٤) أي أنه لا حاجة لتشميته بعد ذلك.

والمسلم يلتزم بهذا الأدب. ولو كان منفرداً، فإذا عطس حمد الله، ووضع يده على فمه وغض بها صوته، لأنه يطبق سنة من سنن رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٩٤).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٢٩) والترمذي (٢٧٤٥).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٢٢٤).
(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٧١٤) بلفظ: (يشمت العاطس ثلاثاً، فما زاد فهو مزكوم) وأصله عند مسلم وغيره من حديث سلمة بن الأكوع.

فليس هو أمام أدب اجتماعي يتحرر منه عندما يكون منفرداً، وكذلك آداب الإسلام كلها.

التثاؤب:

التثاؤب غير العطاس، وهو دليل على الكسل.

ومطلوب من الإنسان أن يرده ما استطاع. ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإن أحدكم إذا قال: ها، ضحك الشيطان)(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإن الشيطان يدخل)(٢).

ووضع اليد على الفم يخفض صوت التثاؤب، كما يمنع انفتاح الفم إلى آخر مداه، ثم هو يستر هذه الصورة غير المستحسنة لوجه الإنسان في هذه الحالة.

الجشاء:

والجشاء: ريح يخرج من الفم مع صوت عند الشبع، وهو فعل مذموم اجتماعياً. وعلى الإنسان أن يجتنب حصوله باجتناب حصول أسبابه، وإذا كان الشبع والامتلاء هو الباعث له، فليتجنب الإنسان ذلك. وقد نهي الإنسان أن يملأ بطنه.

قال ابن عمر: تجشأ رجل عند النبي ﷺ فقال: (كفَّ عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ٣٢٨٩، م ٢٩٩٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٩٥).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٧٨) وابن ماجه (٣٣٥٠).



ويكون كف الشجاء بوضع اليد على الفم كما في التثاؤب، فإن ذلك يخفض الصوت ويمنع رائحة الفم من الانتشار.

الذكر في المجالس:

لا ينبغي لقوم أن يشغلوا وقت مجلسهم كله بفضول الكلام، فلا يذكرون الله تعالى فيه.

وقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك فقال:

(ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة)[١].

كفارة المجلس:

عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول: بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)[٣].

الانصراف من المجلس:

وكما يبدأ الإنسان بالسلام إذا دخل على قوم، فإنه إذا أراد الانصراف يسلم أيضاً.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٥٥).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٥٩) والدارمي (٢٦٥٨).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٥٨) والترمذي (٣٤٣٣) واللفظ له.

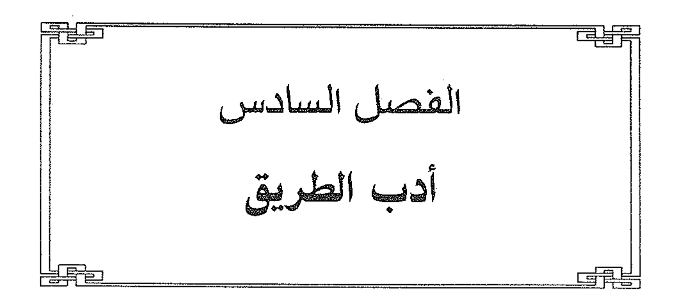




عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة)[١].

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٢٠٨) والترمذي (٢٧٠٦).





الفصل السادس

أدب الطريق

الطرقات مكان لاجتماع الناس واختلاطهم، وللإسلام فيها آداب، بينها النبي ﷺ بقوله وفعله.

طريقة المشي:

سبق الحديث عن مشية النبي ﷺ في الفصل الثاني من المقصد الثاني.

السلام:

قال ﷺ: (حق المسلم على المسلم ست..) وذكر منها: (إذا لقيته فسلم عليه)[(١)].

فالمجتمع الإسلامي مجتمع الإخاء والتوادّ والتحابب، وتحية السلام بين الناس، وسيلة لتأكيد هذه المعاني، وتوثيق هذه الروابط.

قال ﷺ: (والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[(٢)].

ولهذا جاء التوجيه الكريم منه ﷺ بالسلام على من عرفت ومن لم تعرف.

عن عبدالله بن عمرو: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣١٤٩) وأبو داود (٥١٩٣) وغيرهما، واللفظ لأبي داود.

(٣) متفق عليه (خ ١٢، م ٣٩).



وللسلام قواعد تضبط شؤون التعامل به.

قال ﷺ: (يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير)[1].

وقال ﷺ: (يسلم الصغير على الكبير)[2].

وكان ﷺ إذا مر على صبيان سلم عليهم[3].

لا يؤذي الناس بما يحمل:

والطريق ملك للعموم، فلا يحق لأحد أن يؤذي أحداً بما يحمله أو ينقله.

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: (إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نبل، فليمسك على نصالها، أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء)[4].

وقد فصل الفقهاء الأحكام بشأن مسؤولية من أساء استعمال الطريق، فربط دابته في طريق ضيق، أو وضع حطبه فيه..

عزل الأذى عن الطريق:

وإذا كان الطريق من المرافق العامة، فمن واجب كل فرد أن يسعى جهده في المحافظة على نظافته وعزل الأذى عنه.

عن أبي برزة قال: قلت: يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به. قال: (اعزل الأذى عن طريق المسلمين)[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٢٣٢، م ٢١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٢٣١).
(٣) متفق عليه (خ ٦٢٤٧، م ٢١٦٨).
(٤) متفق عليه (خ ٧٠٧٥، م ٢٦١٥).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٦١٨) وابن ماجه (٣٦٨١).



وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له، فغفر له)[١].

وفي الحديث قوله ﷺ: (.. وتميط الأذى عن الطريق صدقة)[٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من الإساءة أن يضع المسلم أو يلقي في طريق المسلمين ما يسيء إليهم.

وقد بلغ من فقه المسلمين لهذا الأمر، أن عدَّه أئمتهم واحداً من واجباتهم، فهذا أبو موسى الأشعري يقول لأهل البصرة حين قدمها: بعثني إليكم عمر ابن الخطاب، أعلمكم كتاب ربكم، وسنتكم، وأنظف طرقكم[٣].

واذن فمن واجبات الدولة فعل ذلك، والأشراف عليه، وتعليم الناس أداء واجبهم تجاه المرافق العامة.

أدب الجلوس على الطريق:

ليست الطرق مكاناً للجلوس عليها، ولكن يحدث ذلك في الطرق التي يقل فيها المرور، وتكون عادة في أطراف البلد..

وقد نهى ﷺ عن ذلك، ثم أذن بشروط.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إياكم والجلوس على الطرقات): قالوا: ما لنا بدّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: (فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها) قالوا: وما حق الطريق؟ قال: (غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر)[٤].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٥٢، م ١٩١٤ م).

(٢) متفق عليه (خ ٢٩٨٩، م ١٠٠٩). ومن إماطة الأذى، أن لا يلقي ببصاقه ومخاطه على الطريق. وإذا اضطر لذلك فلا أقل من أن يمسحه بحذائه بحيث يذهب أثره.

(٣) أخرجه الدارمي برقم (٥٦٠).

(٤) متفق عليه (خ ٢٤٦٥، م ٢١٢١).



وزاد في رواية عن أبي هريرة: (وإرشاد السبيل)[1].

وزاد في رواية عن عمر بن الخطاب: (وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال)[2].

وبهذا وجههم ﷺ بحيث أصبح جلوسهم عاملاً إيجابياً في المساهمة بأعمال الخير، فيما يحتاج إليه المارة في الطريق.

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١٦).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١٧).



الفصل السابع

عيادة المريض

قال رسول الله ﷺ:

(إن الله عز وجل يقول، يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني قال: يا رب، كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنه لوعدته لوجدتني عنده؟..)[١].

عيادة المريض سنة من سنن الإسلام المؤكدة، فقد كان ﷺ، كلما بلغه مرض واحد من أصحابه، سارع لزيارته. وقد سجلت السنة كثيراً من هذه الزيارات.

وعاد ﷺ، غلاماً يهودياً كان يخدمه، وكان ذلك سبباً لإسلامه[٢].

وقد كان فعله كافياً في الحض على هذا العمل، الذي يخفف من وقع الألم على المريض، ولكنه ﷺ حث على ذلك بقوله أيضاً.

عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: (إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم، لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع)[٣].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من عاد مريضاً، نادى مناد من السماء، طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً)[٤].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٩).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٥٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٨) وخرفة الجنة: جناها.
(٤) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٠٨) وابن ماجه (١٤٤٣).



أما سلوك العائد عند المريض فتنقله لنا عائشة رضي الله عنها. قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتى مريضاً قال: (أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً)[١].

وعن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: (لابأس، طهور إن شاء الله)[٢].

---

(١) متفق عليه (خ ٥٦٦٥، م ٢١٩١).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦١٦).



الفصل الثامن
شكر المعروف ومكافأته

قال الله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[1].

إن من دوافع استمرار فعل الخير وصنع المعروف في المجتمع، أن يذكر لصاحب المعروف معروفه وأن يشكر عليه.

وقد جعل الرسول الله الثناء على صاحب المعروف والاعتراف بفضله نوعاً من الشكر لله تعالى.

فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (من لا يشكر الناس، لا يشكر الله)[2].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (من لم يشكر الناس، لم يشكر الله)[3].

وقد حرص الرسول ﷺ على مكافأة المعروف والشكر لصاحبه. وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم، منه هذا الخلق الكريم طول حياته ﷺ، فكان يقبل الهدية وكان يهدي في مقابلها ما هو أكبر منها.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[4].

---

(١) سورة الرحمن، الآية (٦٠).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (١٩٥٥).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٥٦٨).



وقد شفع ﷺ فعله بقوله فحض على ذلك.

عن جابر بن عبدالله قال: قال النبي ﷺ: (من صُنِع إليه معروف فليجزه فإن لم يجد ما يجزه، فليثنِ عليه، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره)[1].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (... ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا، فادعوا له حتى يعلم أن قد كافأتموه)[2].

وبهذا يوجه ﷺ، إلى المكافأة المادية حيث أمكن ذلك، فإن لم يكن، فالدعاء مكافأة وأي مكافأة.

عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: (من صُنِع إليه معروف، فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء)[3].

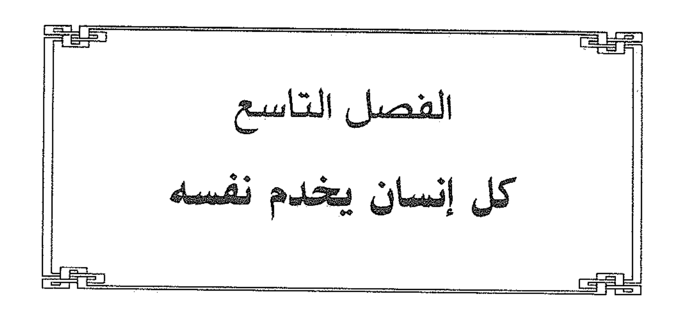
---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨١٣) والترمذي (٢٠٣٤) والبخاري في الأدب المفرد (٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٢١٦).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٣٥).





الفصل التاسع

كل إنسان يخدم نفسه

التعاون سنة من سنن الحياة، ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بشؤون نفسه جميعها، ويبدأ هذا التعاون من الأسرة، حيث يؤدي كل فرد فيها دوره تجاه الآخرين.. ثم يتوسع حتى يكون بين أفراد المجتمع.

ومع هذا فقد حرص النبي الكريم ﷺ، على أن يقوم كل إنسان بما يستطيع من خدمة نفسه وقضاء حاجاتها، فلا يلجأ إلى طلب معاونة غيره، بل لا يقبل معاونة غيره إلا عند الحاجة.

وبهذا يُخَفَّفُ العبء عن بقية أفراد الأسرة ضمن الأسرة، وعن أفراد المجتمع ضمن المجتمع.

وقد رأينا كيف كان ﷺ يخدم نفسه، ولا شك بأنه كان هناك من يخدمه لو أراد.

وقد كان توجيهه الكريم إلى أن لا يسأل الإنسان الناس شيئاً إذا استطاع. ولا شك بأنه من الصعب ذلك كلية، ولكنه توجيه إلى الاعتماد على الذات قدر المستطاع.

وفي ضوء ذلك نفهم الحديث التالي:

عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة ـ أو ثمانية أو سبعة ـ.

فقال: (ألا تبايعون رسول الله)؟ وكنا حديث عهد ببيعة.

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله)؟.

فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله.

ثم قال: (ألا تبايعون رسول الله)؟.

قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟.

قال: (على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا ـ وأسر كلمة خفية ـ ولا تسألوا الناس شيئاً).

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه(١).

وعن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً، وأتكفل له الجنة)؟ فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً(٢).

ولننظر في هذه الصورة التي ينقلها لنا أنس رضي الله عنه، من واقع حياة الصحابة رضي الله عنهم، والنبي ﷺ بينهم.

قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: (ذهب المفطرون اليوم بالأجر)(٣).

إن الصيام أضعف الصائمين عن القيام بنصيبهم، وما يخصهم من العمل، فقام به المفطرون. وذهبوا بالأجر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٤٣) وكذا أبو داود والنسائي وابن ماجه.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (١٦٤٣) وكذا النسائي وابن ماجه.
(٣) متفق عليه (خ ٢٨٩٠، م ١١١٩).

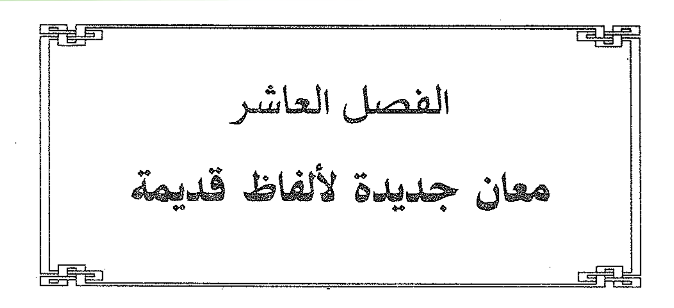
إن خدمة الإنسان نفسه مقدمة على الصيام حيث يمكن الفطر. وهذا تعليم منه ﷺ: كيف يكون ترتيب الأولويات.

ومما يؤكد هذا المعنى ما أخرجه النسائي عن أبي هريرة قال: أُتِيَ النبي ﷺ، بطعام بمر الظهران. فقال لأبي بكر وعمر: (ادنيا فكلا) فقالا: إنا صائمان، فقال: (ارحلوا لصاحبيكم، اعملوا لصاحبيكم)[1].

وهكذا لفت الرسول ﷺ نظرهما: إلى أن صيامهما سيجعل بقية الصحابة يتحملون عبء القيام بما كان ينبغي أن يقوموا به من أعمال، فيقول بعضهم لبعض: ارحلوا لصاحبيكم، اعملوا لصاحبيكم.

وتصبح مقولة «اخدم نفسك» أدباً من آداب الإسلام.

(١) أخرجه النسائي برقم (٢٢٦٣).



الفصل العاشر

معان جديدة لألفاظ قديمة

من جملة الأساليب التي استعملها النبي ﷺ في تأديب أصحابه، أن جعل للألفاظ المتداولة معان جديدة، أو لفت النظر إلى معان خفية لم يكن يفطن إليها.

ونذكر في هذا الفصل نماذج من ذلك:

١ - الغنى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)[١].

حرص النبي ﷺ أن يقوِّم الإنسان في المجتمع الإسلامي من خلال أخلاقه وسلوكه، لا من خلال انتفاخ جيوبه وكثرة أمواله.

وهذا هو الميزان الحق الذي ينبغي أن يقوم به الإنسان: ميزان الفضائل والقيم.

والحديث السابق تقرير لهذا المعنى.

ولم يكتف ﷺ بذلك بل ضرب لأصحابه مثلاً من واقعهم الذي يعيشونه فعن سهل بن سعد قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: (ما تقولون في هذا)؟.

قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع. وإن قال أن يستمع.

قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: (ما تقولون في هذا)؟

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٤٦، م ١٠٥١).

قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع.

فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)[1].

أراد ﷺ، أن يبين لهم الخطأ في تقويم الناس من خلال أموالهم. ولفت نظرهم إلى الطريقة الحقة، وهي النظر إلى دين الإنسان وخلقه.

فليس المقياس هو الفقر والغنى، فقد يكون الغني صالحاً فاضلاً، ويكون الفقير سيئاً، وقد يكون العكس.

فقد كان الخطأ في أسلوب التقويم.

٢ - الإفلاس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(أتدرون ما المفلس)؟.

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: (إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل ما هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[2].

أجل. ذلكم هو الإفلاس.

٣ - القوة:

عندما نذكر القوة، يتبادر للذهن: الأجسام الضخمة والعضلات المفتولة، والبنية القوية.. وتلك ولا شك قوة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٠٩١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨١).



ولكنه ﷺ، أراد أن يلفت نظر أصحابه إلى معنى آخر من معاني القوة، وهو معنى أدق وأحق بأن يحمل أحرف هذه اللفظة فقال لأصحابه: (ما تعدون الصرعة فيكم)؟.

قالوا: الذي لا يصرعه الرجال.

قال: (ليس بذلك: ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)[١].

إن التحكم بالنفس وضبطها في حالة هيجان الغضب، هو القوة فعلاً.

وهذا أمر مشاهد، فقليل جداً أولئك الذين يستطيعون ضبط أنفسهم في هذه الحالة، وهم أهل لأن يوصف الواحد منهم بالصرعة.

٤ - بقيت إلا الكتف:

عن عائشة رضي الله عنها: أن شاة ذبحت في بيت رسول الله ﷺ ووزع منها على الجيران والفقراء.

فلما جاء رسول الله ﷺ سأل عنها فقال: (ما بقي منها)؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها.

فقال ﷺ: (بقي كلها غير كتفها)[٢].

إن الباقي حقيقة هو ما ادخر عند الله تعالى من أجر وثواب. وهكذا، وبهذا المعنى بقيت الشاة كلها غير كتفها.

٥ - مال الوارث:

عن عبدالله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله)؟.

قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٧٠).



قال: (فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخر)[1].

يجمع الإنسان المال طول حياته، ثم يموت ويتركه، فالذي تركه هو مال الوارث.

واذن فمال الإنسان هو الذي يقدمه أمامه مدخراً له عند الله تعالى أما ما حرص على عدم التصرف فيه وتركه حتى جاءه الموت، فهو مال وارثه.

والرسول ﷺ يلفت النظر إلى أن أكثر الناس يكون مال وارثهم أحب إليهم، بمعنى أنهم يدخرون المال ولا ينفقون منه حتى يكون للوارث.

وهذا ما أوضحه حديث أبي هريرة حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى. أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[2].

٦ - انصر أخاك:

كانت النصرة في الحياة الجاهلية قائمة على أساس قبَلي، فالقبيلة تنصر أفرادها على كل حال، ومن هذا جاء قولهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

«ذكر المفضل الضبي في كتابه «الفاخر» أن أول من قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، وأراد بذلك ظاهره، وهو ما اعتادوه من حمية الجاهلية. وفي ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخي وهو ظالم على القوم لم أنصر أخي حين يظلم»[3]

وجاء الإسلام وقال ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤٤٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٩).
(٣) فتح الباري ٥/٩٨.



مظلوماً) قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: (تأخذ فوق يديه).

وفي رواية: (تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره)[1].

لقد تخلص الصحابة الكرام رضي الله عنهم، من المعنى الجاهلي، ولذلك سألوا كيف تكون نصرته وهو ظالم؟.

فبين ﷺ، معنى ذلك بالمفهوم الإسلامي، إن نصره أن تمنعه من الظلم فإنك بذلك ترده إلى الصواب، وتبعده عن المعصية، وأي نصر أكبر من ذلك.

إنه ﷺ، لم يقبل من الآخرين في مثل ذلك الموقف العمل السلبي، وهو عدم مناصرة الظالم والبعد عنه، بل أراد أن نكون إيجابيين فنساهم في منع الظلم، وذلك بمنعه عن ظلمه.

وأصبحت (انصر أخاك ظالماً أو مظلوما) حديثاً نبوياً شريفاً، بعد أن لبست حلتها الجديدة المنسوجة من مفاهيم هذا الدين.

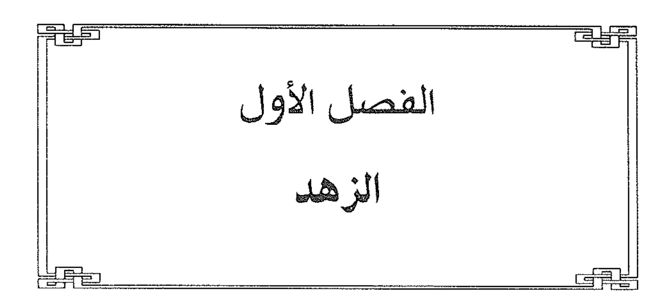
(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٤، ٦٩٥٢).




المقصد السادس

سيرته ﷺ بشأن تلبية الحاجات الضرورية





الفصل الأول
الزهد

الحقيقة المتيقنة:

قال الله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾[(٣)].

«الحياة الدنيا» و «الحياة الآخرة» حقيقتان ثابتتان.

وقد تكرر ذكرهما في عشرات الآيات من القرآن الكريم، وكان المحور الثابت الذي تدور حوله هذه الآيات، هو تقرير ضآلة الحياة الدنيا عندما تقاس بالآخرة، وإذا كان مقدراً على الإنسان أن يعيش هاتين الحياتين فينبغي أن يكون الاهتمام بكل منهما بحسب المدة التي يقضيها الإنسان في كل منهما.

ومن هنا نجد توجيهات الرسول الكريم ﷺ، في هذا الصدد متكررة، ومتعددة، وبأساليب متنوعة، حتى يفهم جميع الناس هذه الحقيقة.

قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[(٤)].

---

(١) سورة التوبة، الآية (٣٨).
(٢) سورة الرعد، الآية (٢٦).
(٣) سورة الضحى، الآية (٤).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

وقال ﷺ: (ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)[1].

وقال ﷺ: (والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار بالسبابة ـ في اليم، فلينظر بم ترجع)[2].

تلك هي حقيقة الدنيا بالنسبة للآخرة، إنما هي (قليل) كما قال الله تعالى، وشرح النبي ﷺ هذا القليل ببيان عملي، فكان هو الماء الذي يبقى على الإصبع إذا أدخلت البحر بالنسبة إلى ماء البحر.

وليس في هذا التمثيل أي مبالغة، ولكنه الواقع والحقيقة، التي تؤيدها لغة الأرقام[3].

ومن هذه الحقيقة ينطلق مفهوم الزهد الإسلامي، وهو الاهتمام بما يبقى.

مفهوم الزهد:

فالزهد «عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه».

وهو بالتالي: «ترك المباحات التي هي حظ النفس، أما ترك المحظورات فلا يسمى زهداً، وأن تكون هذه المباحات مقدوراً عليها، فإن ترك ما لا يقدر عليه فلا يسمى زاهداً»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).
(٣) من المعروف في الرياضيات أن $\frac{\text{رقم}}{\infty}$ = صفر وهذا يعني أن أي رقم مهما كبر إذا كان في «الصورة» والمخرج هو ما لا نهاية فإن هذا الرقم يساوي الصفر. والمراد أن الحياة الدنيا رقم والحياة الآخرة تمثل ما لا نهاية وبهذا تكون النسبة صفراً.
(٤) المهذب من إحياء علوم الدين للمؤلف (٢/ ٣٣٧).

أخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: (ما بقي منها)؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: (بقي كلها غير كتفها)[(١)].

وأخرج البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ: أتى بيت فاطمة، فلم يدخل عليها، وجاء علي فذكرت له ذلك، فذكره للنبي ﷺ، قال: (إني رأيت على بابها ستراً موشياً) فقال: (مالي وللدنيا) فأتاها علي فذكر ذلك لها، فقالت: ليأمرني فيه بما شاء، قال: (ترسل به إلى فلان، أهل بيت بهم حاجة)[(٢)].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله)؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: (فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر)[(٣)].

وفي ضوء هذه الأحاديث الشريفة يتضح مفهوم الزهد، الذي هو الاهتمام بالدار الآخرة وتقديمها على الدنيا. فالشاة، بقي منها ما وزع على الفقراء فاستقر رصيداً في الباقية.

وستر فاطمة، كان سيبقى في الدنيا لو بقي ستراً، أما وقد سدت به حاجة محتاج، فقد استقر في الخالدة.

ومال الإنسان حقاً هو ما سجل باسمه عملاً خيِّراً عند الله تعالى، وأما ما يبقى بعده فقد أضحى ملكاً لغيره.

تلك معان متضافرة، يؤيد بعضها بعضاً، لأنها تخرج من مشكاة واحدة.
ومن خلالها نستوضح مفهوم الزهد.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٣).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

الزهد سلوك إيجابي:

حقيقة أن«الحياة الدنيا» سريعة الزوال..

وحقيقة أن «الحياة الآخر» خالدة باقية..

واستقرار ذلك إيماناً في نفوس المؤمنين، يدفعهم إلى العطاء، وترتقي النفوس هنا بالعطاء بمقدار توقد الإيمان بها.. حتى يصل إلى درجة أن يجود الإنسان بكل ما يملك فيكون على طريقة الصديق رضي الله عنه، في قوله: «تركت لهم الله ورسوله»[1] أو يجود بنفسه كما فعل الذين استحقوا من الله شهادة ﴿صَدَقُواْ﴾[2] وكلٌّ قد لبى نداء ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾[3].

فهل هناك إيجابيات في العمل أكبر من ذلك؟!.

ذلك هو الزهد الحق.

وحينما يتحول الزهد إلى سلوك سلبي فهو زهد دعيّ، لا صلة له بالإسلام.

فليس الزهد ـ إذن ـ ترك العمل باسم «ترك الدنيا» والركون إلى البطالة.. والرسول ﷺ، يقول: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول)[4]

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: أمرنا يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي. فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: (ما أبقيت لأهلك)؟ قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: (ما أبقيت لأهلك)؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. [أخرجه أبو داود ١٦٧٨ والترمذي ٣٦٧٥ والدارمي ١٦٦٠].

(٢) قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ سورة الأحزاب، الآية (٢٣).

(٣) قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ سورة آل عمران، الآيتان (١٣٣-١٣٤).

(٤) متفق عليه (خ ١٤٢٧، م ١٠٣٤).

ويقول: (اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة)[١].

وكيف يكون عطاء وإنفاق بغير عمل، وكيف ينفق ويعطي من ترك الدنيا؟!.

وليس هو البعد عن الناس واعتزالهم، والرسول ﷺ يقول: (ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)[٢].

وليس الزهد احتقار المال وعدم السعي في طلبه والرسول ﷺ يقول: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[٣].

وإذا كان الزهد ليس سلوكاً سلبياً، فإن الذين تركوا العمل، وقنعوا من اللباس والطعام بالأدنى، ومن المسكن بالمساجد، وظنوا أنهم بهذا يدركون رتبة الزهاد[٤]، فقد أخطؤوا الطريق، كما أخطأوا الفهم[٥].

الوسائل والغايات:

إن من الفقه في الدين التفريق بين الوسائل والغايات، ومن الفقه في الدين أن تقدر الوسائل بقدرها، وتقدر الغايات بقدرها. أما عندما تتحول الوسائل إلى غايات فذلك هو الخطأ الفادح.

---

(١) متفق عليه (خ ١٤٢٩، م ١٠٣٣).
(٢) متفق عليه (خ ٢٤٤٢، م ٢٥٨٠).
(٣) متفق عليه (خ ٦٠٠٧، م ٢٩٨٢).
(٤) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٢٣٤).
(٥) أخطأ كثيرون من فهم الزهد، وظنوا أنه ترك الدنيا وتوفير الوقت كله للصلاة والدعاء، وعدُّوا ذلك اقتداء بأهل الصفة. وقد بينت سيرة أهل الصفة تفصيلاً، وخطأ ما نسب إليهم في كتاب «أهل الصفة بعيداً عن الوهم والخيال» طبع دار القلم بدمشق.



الطهارة وسيلة لأداء الصلاة، ولكن عندما يذهب وقت الصلاة كله بالوسوسة في الطهارة، فذلك هو المرض العضال.

ومن استأجر داراً ريثما يستكمل بناء دار أقامها، ثم ينصرف إلى تزيين الدار المستأجرة وينفق فيها أمواله، وينسى الدار التي أقامها، فهو مخطئ ومفرط.

فالصواب أن نتعامل مع الوسيلة على أنها وسيلة.

والدنيا في المفهوم الإسلامي «وسيلة» الآخرة، وهي الطريق إليها.

والعاقل كل العاقل من اكتفى بالبلغة والكفاف في الدار المستأجرة، ووفر الزينة والأثاث والرياش لتكون في الدار التي يملكها ويستقر فيها.

الفرق بين الفقر والزهد:

قد يكون الفقر والزهد متشابهان من حيث المظهر الخارجي ولكن الفرق بينهما كبير.

«فعندما تنزوي الدنيا عن العبد وتبتعد عنه، فذلك هو «الفقر».

وعندما ينزوي العبد عن الدنيا ويبتعد عنها، فذلك هو «الزهد»[(١)].

وقد كان الرسول الله زاهداً ولم يكن فقيراً، بل كان يكرر في دعائه الاستعاذة من الفقر.

فقد كان من دعائه دبر كل صلاة:

(اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر)[(٢)].

وإن نظرة واحدة متفحصة إلى هذا الدعاء الذي كان ﷺ يكرره عقب الصلوات لتبين مدى كرهه له، فقد قرنه بالكفر، وفي الجمع بينهما ما فيه من الدلالة على موقف الإسلام من الفقر.

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٤٦، ٥٤٨٠).



وفي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول:

(اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم)(١).

وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات:

(اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، ومن عذاب النار، ومن شر الغنى والفقر)(٢).

فلو كان الفقر أمراً مطلوباً، أو حالاً فاضلة، لما استعاذ منه النبي ﷺ.

ويخطىء كثير من الناس حينما يظنون أن الفقر حالاً ممدوحة، بل إننا كثيراً ما نقرأ في بعض الكتب عناوين مثل: «فضل الفقر» ويستدلون بأحاديث لا دليل فيها ومن ذلك على سبيل المثال:

ما أخرجه البخاري عن سهل رضي الله عنه، قال: مرَّ رجل على رسول الله ﷺ فقال: (ما تقولون في هذا)؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع.

قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: (ما تقولون في هذا)؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا)(٣).

وليس في الحديث ما يدل على فضيلة الفقر.

وإنما الحديث وارد في خطأ تقويم الناس بعضهم بعضاً على أساس الغنى والفقر، وإنما يقوم الإنسان بدينه وأخلاقه وسلوكه.

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه (د ١٥٤٤، ن ٥٤٧٥، جه ٣٨٤٢).
(٢) أخرجه أبو داود (١٥٤٣).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩١).

وقد بين ﷺ، للناس خطأهم ببيان عملي، ثم قال إن الفقير خير من ملء الأرض من مثل ذاك الغني، لا لأن الفقير اتصف بصفة الفقر، وإنما لما يحمل من المقومات الفاضلة.

فالرسول ﷺ، يريد من الصحابة أن يصححوا مسلكهم في نظرتهم إلى الناس فلا يكون تقويم الإنسان على أساس الغنى والفقر، فهذا المبدأ في التقويم منطلق فاسد.

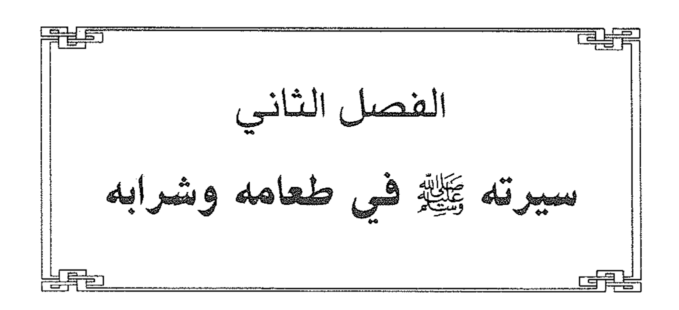
وأما الأحاديث التي يفهم منها فضيلة الفقر، فهي أحاديث في بيان فضيلة «الصبر على الفقر» لا فضل «الفقر» ولا شك بأن الصبر فضيلة، كثيراً ما نوه القرآن بذكرها.

ونعتقد أنه وضح الفرق بين الفقر والزهد، والحمد لله.

* * *

كان لا بد من التقدم بهذا الفصل بين يدي الحديث عن سيرة النبي ﷺ في طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه، حتى نكون أمام تفسير واضح لمسلكه ﷺ في ذلك.

والموفق من وفقه الله تعالى للتأسي به واتباع هديه ﷺ.



الفصل الثاني

سيرته ﷺ في طعامه وشرابه

ليس الطعام غاية بذاته، بل هو وسيلة لتلبية حاجات الجسم، كي يستمر في أداء مهمته في هذه الحياة، ومن هنا كان تناول الأطعمة بقدر الحاجات ضرورياً على تكرار الأوقات.

وعلى الرغم من كون الطعام ضرورة وحاجة، فإن الإسلام لم يترك للإنسان حرية تناوله كما يريد، فعلَ الحيوان، بل جعل له دائرة الحلال يتناول منها، وجعل لتناوله آداباً يلتزم بها.. وبهذا ترتقي الضرورة والحاجة لتصبح عبادة، تنفذ فيها أوامر الشرع في هذا الجانب من جوانب الحياة.

الطعام الطيب:

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟)[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥) ومعنى يطيل السفر: أي في فعل العبادات كالحج، وصلة الرحم وغير ذلك.

والحديث الشريف يذكر صفتين لا بد منهما حتى يكون الطعام طيباً.

١ - أن يكون الطعام حلالاً، أي من دائرة ما أباح الله تناوله، ولا خلاف بين المفسرين أن قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ﴾ أن معنى الطيبات: الحلال.

٢ - أن يحصل عليه الإنسان بطريق مشروع، شراء بمال حلال، أو هبة.. وهو ما تشير إليه الفقرة الأخيرة من الحديث، فالذي أكل من حرام.. لا يستجاب دعاؤه.

وهكذا يدخل الطعام في تحديد علاقة الإنسان بخالقه تعالى، في قبول دعائه أو رده.

سيرته ﷺ بشأن الطعام:

قال ابن القيم: «كان هديه ﷺ وسيرته في الطعام: لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم..

وأكل الحلوى والعسل، وكان يحبهما، وأكل لحم الجزور، والضأن، والدجاج، والأرنب، وطعام البحر، وأكل الشواء، وأكل الرطب والتمر.

وشرب اللبن خالصاً ومشوباً، والسويق، والعسل بالماء، وشرب نقيع التمر، وأكل القثاء بالرطب. وأكل التمر بالزبد وكان يحبه.

وكان معظم مطعمه يوضع على الأرض في السفرة، وهي كانت مائدته.

وكان أكثر شربه قاعداً، بل زجر عن الشرب قائماً، وشرب مرة قائماً.

وكان إذا شرب ناول من على يمينه، وإن كان من على يساره أكبر منه»[١].

---

(١) زاد المعاد (١/١٤٧-١٥٠).

ذكر طرف من معيشته ﷺ:

نذكر في هذه الفقرة بعض الأحاديث التي تلقي لنا الضوء على معيشته ﷺ، وكيف أنه لم يمتلىء جوفه شبعاً قط:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض[١].

وعنها أنها قالت لعروة: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، كانت لهم منائح[٢]، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها، فيسقينا»[٣].

وعن أبي هريرة: أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية[٤]، فدعوه، فأبى أن يأكل، وقال: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع خبز الشعير»[٥].

وقالت عائشة: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين»[٦].

وعن النعمان بن بشير قال: «لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل[٧] ما يملأ به بطنه»[٨].

---

(١) متفق عليه (خ ٥٤١٦، م ٢٩٧٠).
(٢) منائح: هي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها، ثم يردها إذا انقطع لبنها، ثم أطلق على كل عطاء.
(٣) متفق عليه (خ ٢٥٦٧، م ٢٩٧٢).
(٤) مصلية: أي مشوية.
(٥) أخرجه البخاري (٥٤١٤).
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٧٤).
(٧) الدقل: رديء التمر ويابسه.
(٨) أخرجه مسلم (٢٩٧٧).

وعن أنس قال: «ما أعلم النبي ﷺ، رأى رغيفاً مرققاً، حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطاً[(١)] بعينه قط»[(٢)].

تلك كانت معيشته ﷺ، ولعل معظم المهاجرين كانت حياتهم قريباً من ذلك، وبعد أن فتحت خيبر، وسع الله فيها على المسلمين. ولكن عيشته ﷺ استمرت على ما كانت عليه، الأمر الذي دعا زوجاته ـ أمهات المؤمنين ـ للمطالبة بشيء من التوسعة، ونزلت بسبب ذلك آيات التخيير[(٣)]. ثم بقيت الحال على ما كانت.

هديه ﷺ في آداب الطعام:

أخرج الشيخان عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك)[(٤)].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: «ما عاب النبي ﷺ، طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه». وفي رواية لمسلم: «وإن لم يشتهه سكت»[(٥)].

وقال ﷺ: (لا آكل متكئاً)[(٦)].

وعن كعب بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يأكل بثلاث أصابع، ويلعق يده قبل أن يمسحها»[(٧)].

---

(١) سميطاً: هي التي يزال شعرها بالماء المسخن ثم تشوى بجلدها أو تطبخ، وتكون في الصغير الطري.
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٢١).
(٣) انظر تفصيل حادثة التخيير في «من معين السيرة» ص (٤٦٥-٤٧٥).
(٤) متفق عليه (خ ٥٣٧٦، م ٢٠٢٢).
(٥) متفق عليه (خ ٥٤٠٩، م ٢٠٦٤).
(٦) أخرجه البخاري (٥٣٩٨).
(٧) أخرجه مسلم (٢٠٣٢) وربما لو كانت الملاعق موجودة لاستعملها، فقد استعمل السكين كما في الخبر التالي.

واستعمل النبي ﷺ، السكين في طعامه، فقطع بها اللحم[1] وقطع بها الجبن[2].

وقال ﷺ: (إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء)[3].

ونهى ﷺ عن الشرب من فم السقاء[4].

ولم يأكل ﷺ الثوم والبصل والكراث لكراهة ريحها، ونهى مَنْ أكلها أن يقرب المسجد[5].

ذلك بعض هديه ﷺ، في شأن آداب الطعام.

حمد الله بعد الطعام:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[6].

وعن أبي أمامة: أن النبي ﷺ، كان إذا فرغ من طعامه، قال: (الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي[7]، ولا مكفور[8])[9].

قلة الأكل:

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء)[10].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨١٩).

(٣) متفق عليه (خ ١٥٣، م ٢٦٧) والمعنى أنه إذا أراد التنفس فليبعد الإناء.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٢٩).

(٥) ورد ذلك في أحاديث كثيرة صحيحة منها الحديث المتفق عليه (خ ٨٥٥، م ٥٦٤).

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

(٧) غير مكفي: فالله سبحانه هو الكافي لا المكفي.

(٨) ولا مكفور: أي مجحود فضله ونعمته.

(٩) أخرجه البخاري (٥٤٥٩).

(١٠) متفق عليه (خ ٥٣٩٣، م ٢٠٦٠).

وقد روي هذا الحديث أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة، وأبي موسى الأشعري، وجابر بن عبدالله.

ولا خلاف بين العلماء في أن ظاهر الحديث غير مقصود، وأن المعنى: قلة أكل المؤمن وكثرة أكل الكافر، وخير ما يفسر به الحديث. هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾(١) فهم ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون لاهون كالأنعام، لا يفرقون بين حلال وحرام.

وخلاصة القول: أن المؤمن قليل الأكل، لأن الأكل عنده وسيلة وليس غاية بحد ذاته كما هو في مفهوم الكافرين.

وقد جاء في حديث المقدام ما يوضح هذا.

قال المقدام بن معد يكرب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، حسب الآدميَّ لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن غلبت الآدميَّ نفسُه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَّفَس)(٢).

غسل اليدين من الدسم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من نام وفي يده غمر - وفي رواية: ريح غمر - ولم يغسله، فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه)(٣).

والغمر: هو الدسم، والزهومة من اللحم.

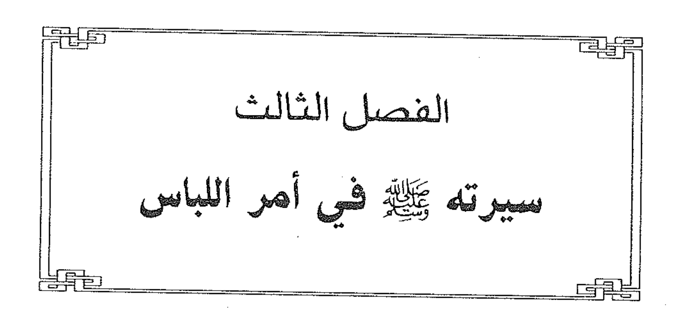
---

(١) سورة محمد، الآية (١٢).

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه (ت ٢٣٨٠، جه ٣٣٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي [د ٣٨٥٢، ت ١٨٦٠، جه ٣٢٩٧، مي ٢٠٦٣].





الفصل الثالث

سيرته ﷺ في أمر اللباس

الحاجة إلى اللباس:

اللباس ـ كالطعام ـ حاجة من الحاجات الضرورية، وليس هو غاية بذاته، وإنما هو وسيلة لثلاثة مقاصد:

- ستر العورة.
- الزينة والتجمل.
- الوقاية من الحر والبرد.

وقد أشار القرآن إلى الأمرين الأول والثاني عند قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[1].

وأشار إلى الأمر الثالث بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[2].

وفي حدود هذه المقاصد كان النبي ﷺ يختار لباسه.

لبس ﷺ لباس قومه:

ومن المعلوم أن النبي ﷺ، كان يلبس كما كان قومه يلبسون، وحتى بعد بعثته لم يحدث أمراً جديداً من حيث شكل اللباس.

---

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٨١).





وإنما جاء عنه ﷺ تحريم لبس الحرير على الرجال.

كما نهى عن تشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال[١].

ثياب الجمال وثياب الشهرة:

سبق القول: بأن التجمل بالثياب، هو واحد من مقاصدها، وقد أقر الإسلام ذلك وأذن به، بل وحث عليه.

فقد روى عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)[٢].

وعن مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دون، فقال: (ألك مال)؟ قال: نعم، قال: (من أي المال)؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: (فإذا آتاك الله مالاً، فَلْيُر أثرُ نعمة الله عليك وكرامته)[٣].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[٤].

وهذا يدل على أن الإسلام يطلب إلى الناس التجمل.

ولكنه ينهى عن ثياب الشهرة، التي تقصد للاشتهار بين الناس بسبب نفاستها وتميزها، والتي إنما تلبس تفاخراً بالدنيا وزينتها.

قال رسول الله ﷺ: (من لبس ثوب شهرة، ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٨٨٥).
(٢) أخرجه مسلم (٩١).
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي (د ٤٠٦٣، ت ٢٠٠٦، ن ٥٢٣٨).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٨١٩).



وفي رواية: (ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة، ثم تلهب فيه النار)[1].

وواضح أن هذا الثوب إنما يدفع إليه الكبر والتعالي على الناس.

وربما كانت الحكمة في النهي عن تطويل الثوب هذا المعنى نفسه. فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار)[2].

لباس النبي ﷺ:

كان ﷺ يلبس ما تيسر له، فقد لبس الصوف تارة، ولبس القطن، ولبس الكتان.

وقد لبس الخشن والغليظ، ففي حديث مسلم، عن عائشة قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مُرَحَّل[3] من شعر أسود»[4].

وأخرج الشيخان عن أبي بردة قال: «أخرجت إلينا عائشة كساءً وإزاراً غليظاً، فقالت: قبض روح النبي ﷺ في هذين»[5].

ولبس ﷺ الناعم والجميل، فعن البراء بن عازب قال: «رأيته ﷺ في حلة حمراء[6]، لم أر شيئاً قط أحسن منه»[7].

وكان ﷺ يحب ثياب الحبرة، قال أنس: «كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة[8]»[9].

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه (د ٤٠٢٩، ٤٠٣٠، جه ٣٦٠٦، ٣٦٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٧).
(٣) المرط: كساء يؤتزر به، والمرحل: الذي فيه خطوط.
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٨١).
(٥) متفق عليه (خ ٥٨١٨، م ٢٠٨٠).
(٦) حمراء: قال الشراح: هو أحمر مخطط بدلالة الأحاديث الأخرى.
(٧) متفق عليه (خ ٣٥٥١، م ٢٣٣٧).
(٨) الحبرة: ثياب من كتان أو قطن محبرة، أي مزينة.
(٩) متفق عليه (خ ٥٨١٣، م ٢٠٧٩).





وقالت أم سلمة رضي الله عنها: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص»[(١)].

قال ابن القيم: «ولبس ﷺ البرود اليمانية، والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص، والسراويل، والإزار والرداء، والخف والنعل»[(٢)].

التيمن في اللباس وغيره

كان ﷺ يعجبه أن يبدأ باليمين في شأنه كله.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله[(٣)]، وطهوره، وفي شأنه كله»[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمن، وإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمنى أولهما تنعل وآخرهما تنزع).

وفي رواية: (لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، ليحفهما جميعاً، أو لينعلهما جميعاً)[(٥)].

وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه»[(٦)].

التقشف أحياناً:

وإذا كان الإسلام يأمر بالتجمل والعناية بالمظهر، فإن ذلك لا ينبغي أن يصبح شغل الإنسان الدائم، بل ينبغي أن يكون للتقشف والبذاذة مكان في حياته.

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه (د ٤٠٢٥، ت ١٧٦٢، جه ٣٥٧٥).
(٢) زاد المعاد (١/١٤٣).
(٣) ترجله: أي ترجيل شعره، وهو تسريحه ودهنه.
(٤) متفق عليه (خ ١٦٨، م ٢٦٨).
(٥) متفق عليه (خ ٥٨٥٥، ٥٨٥٦، م ٢٠٩٧).
(٦) أخرجه الترمذي (١٧٦٦).





عن عبدالله بن بريد: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ زار فضالة بن عبيد وهو يومئذٍ أمير مصر، فرآه شعثاً فقال: مالي أراك شعثاً وأنت أمير الأرض؟ قال: إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه، قال: فمالي لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحياناً[١].

وفي الحديث قوله ﷺ: (البذاذة من الإيمان)[٢].

إن كثرة الإرفاه، وهي الانغماس في التنعم، والاستمرار في ذلك أمر مكروه لما يورث القلب من قسوة، ولذلك كانت البذاذة وهي التقشف والتجوز في الثياب، من الإيمان.

ولا تعني البذاذة والتقشف ترك الطهارة والنظافة، فإنهما من الدين.

دعاء:

عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً، سماه باسمه، إما قميصاً، أو عمامة، ثم يقول: (اللهم، لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له)[٣].

ألوان الثياب:

يمكن القول بعد استعراض ما ورد في الأحاديث من ألوان الثياب، أنه ﷺ لبس كل الألوان باستثناء ما نهى عنه وهو المعصفر والمزعفر.

فعن عبدالله بن عمرو قال: رأى النبي ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين فقال:

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي (د ٤١٦٠، ن ٥٠٧٣، ٥٢٥٤) ورواية النسائي مختصرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه (د ٤١٦١، جه ٤١١٨).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي (د ٤٠٢٠، ت ١٧٦٧).





(أأمك أمرتك بهذا)؟ قلت: اغسلهما؟ قال: (بل أحرقهما) وفي رواية: (إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها)(١).

وفي حديث علي رضي الله عنه أنه ﷺ نهى عن المعصفر(٢).

والمعصفر: هو ما صبغ بالعصفر ويكون أحمر اللون(٣) وكذا المزعفر، وهو ما صبغ بالزعفران.

وحديث ابن عمرو يقرر أمراً آخر، وهو أن المسلم لا يلبس ما كان من ثياب الكفار خاصة بحيث يكون من هيئتهم ولباسهم، ولا يشاركهم فيه غيرهم.

لبس الخاتم:

أباح الإسلام للرجل لبس خاتم الفضة، وقد لبسه رسول الله ﷺ وحرم خاتم الذهب.

عن عبدالله بن عباس: أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: (يعمد أحدكم إلى جمرة من النار فيجعلها في يده) فقيل للرجل، بعدما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله، لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ(٤).

زينة النساء:

زينة النساء أمر مطلوب ضمن بيوتهن، ومطلوب من المرأة أن تتزين لزوجها، والزينة تكون بأنواع الثياب وتكون بالحلي.

ويعد الذهب في مقدمة وسائل التجمل بالنسبة للنساء. وقد جاءت الأحاديث تبيح ذلك لهن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٧٨).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٣٠٥).
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٩٠).





عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: (حرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم)[1].

وعن علي قال: إن نبي الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ثم قال: (إنَّ هذين حرام على ذكور أمتي) زاد ابن ماجه في روايته: (حلّ لإناثهم)[2].

وفي النصين دلالة واضحة على الإباحة.

والإباحة: تعني المساواة بين الفعل والترك، فلا ثواب على الفعل ولا عقاب على الترك.

وإذا كان هذا حكم الشرع. فهل آثر أهل بيت النبي ﷺ الفعل أم الترك؟.

لقد نزلت آية التخيير[3] في أواخر العهد المكي تخير أزواج النبي ﷺ بين زينة الحياة الدنيا وبين البقاء عنده بغير زينة، وقد آثرن جميعاً البقاء بغير زينة رضي الله عنهن.

وإذا رجعنا نستطلع حياتهن قبل آية التخيير لا نجد ما يدل على أن إحداهن كان لها أي قطعة من ذهب تتحلى بها[4].

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي (ت ١٧٢٠، ن ٥١٦٣، ٥٢٨٠).
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه (د ٤٠٥٧، ن ٥١٥٩-٥١٦٢، جه ٣٥٩٥).
(٣) آية التخيير هي الآية ٢٧ من سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.
[وانظر قصة التخيير كاملة في «من معين السيرة» للمؤلف ص (٤٦٥-٤٧٥).
(٤) نعم أخرج أبو داود برقم (١٥٦٤) عن أم سلمة قالت: كنت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ فقال: (ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي، فليس بكنز) أ. هـ.
قال المنذري في إسناده عتاب بن بشير أبو الحسن الحراني، وقد أخرج له البخاري وتكلم فيه غير واحد. وقال الألباني: حسن المرفوع منه فقط.
وإذا كان الأمر كذلك فهذا لا يعكر ما ذهبت إليه.



وكل ما نجده أن عائشة رضي الله عنها كانت مع الرسول ﷺ في سفر فأضاعت عقداً كانت استعارته من أسماء . . وكان البحث عنه سبباً لنزول آية التيمم(١) .

وهذا الحديث أخرجه الستة باستثناء الترمذي، وكذا أخرجه الدارمي وليس في أي من روايات الحديث ما يبين نوعية العقد.

وفي الحادثة الأخرى في غزوة بني المصطلق، فقدت عائشة أيضاً عقداً من جزع ظفار وكان طلبه سبباً لحادثة الإفك(٢) .

وسواء أكان عقد أسماء من الذهب . وما نعتقد ذلك . أو من غيره، فهو ليس مما ملكته عائشة.

وأما العقد الآخر فهو من خرز يماني يصنع في قرية في اليمن اسمها ظفار.

ونعتقد أن بقية أزواج النبي ﷺ مثلهن مثل عائشة في هذا.

وإذا انتقلنا إلى فاطمة رضي الله عنها، فإنا نجد الخبر التالي:

عن ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة، فوجد في يدها سلسلة من ذهب ـ كان أهداها إليها علي ـ فقال: (يا فاطمة، أيغرك أن يقول الناس: ابنة رسول الله، وفي يدها سلسلة من نار) ثم خرج ولم يقعد، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها، واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته، فحدِّث بذلك فقال: (الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار)(٣) .

وفي رواية أحمد: (يا فاطمة، بالعدل أن يقول الناس: فاطمة بنت محمد، وفي يدك سلسلة من نار) ثم عزمها عزماً شديداً . . وذكر الحديث(٤) .

---

(١) أخرجوه (خ ٣٧٧٣، م ٣٦٧، د ٣١٧، ن ٣٠٩، ٣٢٢، جه ٥٦٨، مي ٧٤٦).
(٢) متفق عليه (خ ٤١٤١، م ٢٧٧٠).
(٣) أخرجه النسائي (٥١٥٥، ٥١٥٦).
(٤) الفتح الرباني (١٧/ ٢٦٠ الحديث ٩٠).



وعن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحرير، ويقول: (إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها، فلا تلبسوها في الدنيا)(١).

وهكذا نجد حديثي ثوبان وعقبة يبينان أن الرسول ﷺ اختار لأزواجه وابنته عدم التحلي بالذهب، بينما لم يلم عائشة على تحليها بالعقد الذي كان من جزع ظفار الأمر الذي يبين رغبته ﷺ بالميل إلى الحلي ذي القيمة اليسيرة.

وإذا كانت المرأة المسلمة مخيرة بين ما هو مباح، وبين ما اختاره ﷺ لابنته وأزواجه، فنعتقد أنها ستأخذ بالأمر الثاني، فهو ﷺ الأسوة في نفسه وفيما اختاره لأهله(٢).

وينبغي أن نذكر ـ ونحن نتحدث عن زينة النساء ـ ما سبق في فقرة سابقة مما يتعلق بثوب الشهرة، فإن النساء أحرص على هذا الأمر من الرجال، والجمال والتجمل يمكن أن يكون بالثياب التي يلبسها الناس عادة، من غير أن يكون متميزاً بحيث تتعالى صاحبته على بقية النساء، الأمر الذي يبث فيها الكبر المؤدي إلى الهاوية.

إن التعالى إنما يكون بسمو النفس وارتفاع الروح ـ لا بالثوب والحلي والمظهر ـ وهذا السمو النفسي إنما يكون بالتواضع لله، وبالنظر إلى الآخرين من زاوية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٣) وطالما أنه لا يعرف أحد من هو الأتقى، فليتواضع في نفسه وليحترم كل الناس. ولا يحاول الترفع أو التميز عليهم.

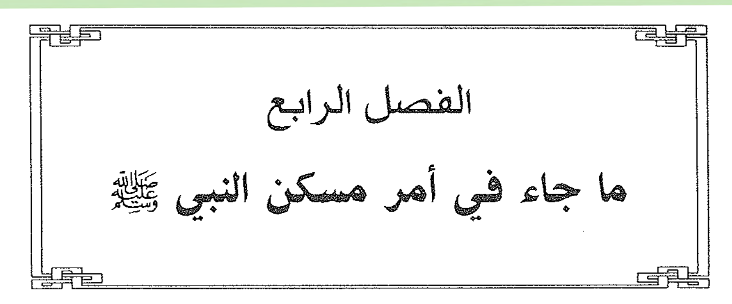
---

(١) أخرجه النسائي (٥١٥١) وهو عند الإمام أحمد.

(٢) ليس معنى هذا تحريم الحلال، وإنما هو ارتقاء نحو الأحسن والأعلى، ومثل ذلك ما جاء في حكم أكل الضب. فقد أباحه الشرع، ولكن الرسول ﷺ لم يأكل منه، ووجد نفسه تعافه وقال: (إنه ليس في بيئة قومي).
وهنا ليس المراد تحريم الزينة بالذهب، ولكنه توجيه نحو الأفضل والأحسن وما اختاره ﷺ هو دائماً الأحسن والأفضل.

(٣) سورة الحجرات، الآية (١٣).





الفصل الرابع
ما جاء في أمر مسكن النبي ﷺ

الحاجة إلى المسكن:

يعد المسكن من الضروريات التي تأتي بعد الطعام والشراب واللباس.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

فالمسكن ضرورة في حالتي الاستقرار والترحل، وقد هيأ الله للإنسان في حال تنقله بيوتاً يسهل إقامتها كما يسهل حملها، وهذا من منن الله تعالى على عباده.

وأولى مهمات البيت وفوائده: ما يؤمنه من «السكن» الذي ذكرته الآية الكريمة.

فالسكن يعني الاستقرار والهدوء النفسي، ومكان الراحة للجسم، حيث يبتعد الإنسان عن أعين الناس، ويتحلل من الشكليات القائمة بينهم، ويخلو لنفسه أو يكون مع أسرته، بعيداً عن القيود.

والبيت أيضاً هو المكان الذي يتقي فيه الإنسان الحر والبرد فيجد فيه المأوى الذي يكنّه ويحفظه.

ولما لهذه المعاني من مكانة، كان المسكن واحداً من الضروريات التي رعاها الإسلام وجعل لها حرمتها وحصانتها.

---

(١) سورة النحل، الآية (٨٠).



بيت النبي ﷺ في المدينة:

ليس بين أيدينا ما نرجع إليه بشأن سكن النبي ﷺ في مكة، ذلك أنه بعد هجرته ﷺ باع عقيل الدار التي كان يسكنها النبي ﷺ، ولذلك لما سأل أسامة ابن زيد رسول الله ﷺ في حجة الوداع: أين تنزل غداً؟ قال: (وهل ترك لنا عقيل منزلاً)(١).

ولذا فسوف يكون حديثنا قاصراً على بيته ﷺ في المدينة.

لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بنى غرفتين بجانبه من مؤخرته من قبل المشرق وكانت القبلة يومئذٍ إلى بيت المقدس.

وبعد أن تحولت القبلة إلى الكعبة أصبحت هاتان الغرفتان حذاء جدار القبلة إلى يسار المصلي عندما يتوجه إلى القبلة.

وكانت واحدة منهما لزوجته سودة بنت زمعة، والثانية أعدت لعائشة وكان قد عقد عليها.

أما بقية الحجرات فلم تبنَ إلا عند الحاجة إليها، فكان النبي ﷺ إذا أحدث زواجاً بنى غرفة.

قال ابن الجوزي: «قال محمد بن عمر: كانت لحارثة بن النعمان منازل قريبة من المسجد وحوله، فكلما أحدث رسول الله ﷺ أهلاً تحوَّل له حارثة عن منزله، حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ وأزواجه»(٢).

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٥٨، م ١٣٥١)، وعقيل: هو ابن أبي طالب.

(٢) ما نشك في أن النبي ﷺ كافأ حارثة بن النعمان رضي الله عنه، على ذلك إن فعله هدية، فقد كان يكافئ على الهدية بأضعافها، أو أنه كان يعطيه ثمنها، ويشكر له فعله حيث يتيح له أن تكون بيوت أزواجه قريباً من المسجد. وقد رأينا كيف أنه ﷺ لم يقبل أرض المسجد هبة وإنما دفع ثمنها.

وقد قال ﷺ: (ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة) [الترمذي ٣٦٦١] وهذا يؤكد أنه ﷺ، كافأ النعمان رضي الله عنه.

وكانت هذه البيوت كلها في شرقي المسجد على يسار المصلي إذا اتجه إلى الكعبة، وكان بعضها في قبلة المسجد يفصلها عن جداره طريق عرضه خمسة أذرع.

أما بناؤها فكان من اللبن، وسقفها من الجريد. وكانت تسعة أبيات.

وكان لأربعة منها حجر من جريد، والمقصود بالحجر: الفسحة تكون أمام الغرفة محجرة أي محاطة بشيء يمنع دخول الناس إليها. وكان السور لهذه الغرف من الجريد المقوى بالطين.

ونجد أن الروايات تذكر الأبواب والستور لهذه الغرف والحجرات. فقد روي أن باب غرفة عائشة كان بمصراع واحد من خشب العرعر أو الساج، كما روي أن باب النبي ﷺ كان يقرع بالأظافر.

وفي آخر نظرة نظرها النبي لأصحابه، أنه رفع الستر، كما في الصحيح.

والذي يبدو لي أن البيوت كان لها أبواب من خشب، وأما الحجرات التي أمام الغرف، فكانت أبوابها الستور.

وأما هذه الستور فكانت من مسوح الشعر، وقد ذرع عمر بن أبي أنيس واحداً منها فكان ثلاثة أذرع في ذراع.

وأما مساحة هذه البيوت فكانت غير واسعة، وقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا أراد السجود في صلاة الليل غمز عائشة فكفت رجليها ريثما يسجد فإذا قام بسطتهما. وهذه الصورة يمكن أن توضح لنا ما كانت عليه تلك البيوت. وأما ارتفاع السقف فقد قال: الحسن البصري في بيانه كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقفها بيدي.

وكانت أم سلمة قد بنَتْ حجرة بيتها من اللبن، وذلك أثناء غياب رسول الله ﷺ في غزوة دومة الجندل، فلما قدم رسول الله ﷺ نظر إلى اللبن،

فدخل عليها أول نسائه فقال: (ما هذا البناء)؟ فقالت: أردت يا رسول الله، أن أكف أبصار الناس، فقال: (يا أم سلمة إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان).

تلك هي بيوت رسول الله ﷺ، التي كان ينزل فيها الوحي، ويعيش فيها خير خلق الله ﷺ.

هدم الغرف:

ظلت هذه الغرف قائمة إلى أن كان عهد الوليد، حيث ضاق المسجد النبوي بالمصلين وكان لا بد من توسعته، وكانت بيوت رسول الله ﷺ، هي أول ما يجاور المسجد، فكان لا بد من هدمها من أجل ذلك.

قال عطاء الخراساني: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ، يأمر بإدخالها في المسجد، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.

ليتها لم تهدم:

قال عطاء: سمعت سعيد بن المسيب يقول يوم هدمت: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر.

وقال عمر بن أبي أنس: لقد رأيتني ـ يوم هدمت ـ في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، منهم: أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف. وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتى اخضل لحاهم الدمع، وقال يومئذٍ أبو أمامة:

«ليتها تركت فلم تهدم، حتى يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله



لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده»[1].

أثاث بيوت النبي ﷺ:

بعد أن وصفنا هذه البيوت، يمكننا أن نقدر نوعية الأثاث والفرش الذي كان فيها.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان فراش رسول الله ﷺ، الذي ينام عليه من أدم، وحشوه ليف، وكانت وسادة رسول الله ﷺ، التي يتكىء عليها من أدم حشوها ليف»[2].

وفي قصة إسلام عدي بن حاتم قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها إليَّ فقال: (اجلس على هذه) قال: قلت بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض[3].

ويصف لنا عمر بن الخطاب الغرفة التي اعتزل النبي ﷺ فيها نساءه فيقول: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال (ما يبكيك)؟

---

(١) مراجع هذه الفقرة واللتين قبلها.
- طبقات ابن سعد (١/ ٤٩٩-٥٠١).
- الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي (١/ ٤٠٥-٤٠٦).
- خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، للسمهودي (٢١٩-٢٢٢).
- البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٢٠).
- شرح الزرقاني على المواهب (١/ ٣٧٠).
- مرآة الحرمين، لابراهيم رفعت (١/ ٤٦٢).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٥٦، م ٢٠٨٢) واللفظ لمسلم.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٨٠) وهو عند الترمذي (٢٩٥٣) ولكن عنده أن الرسول ﷺ، جلس على الوسادة.

فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة)[١].

وكان للنبي ﷺ خمرة يصلي عليها[٢].

استكمال ملامح الصورة:

تلك بعض ملامح الصورة لمعيشته ﷺ يستطيع القارىء أن يستكمل ما بقي منها. حجرات وبيوت في غاية البساطة من حيث البناء، قليلة المساحة، قليلة الارتفاع، فرش ما يكاد يفي بالحاجات الضرورية.

طعام يسد الرمق تارة.. وتارة يكون الجوع.

واللباس كذلك..

وهكذا بقيت الوسائل في حياته ﷺ في وضعها الصحيح، ولم ترتق لتصبح غايات، وهو القائل: (إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[٣].

ولو أراد ﷺ لكان له من الدنيا ما شاء، وقد رأينا من كرمه أنه يعطي عطاء من لا يخشى فاقة، وأخرج البيهقي من حديث عائشة قال: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: (ما هذا يا عائشة)؟ قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فبعثت إليَّ بهذا، فقال: (ردِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة)[٤].

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩١٣، م ١٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨١). والخمرة: مصلى صغير يعمل من سعف النخل.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٧٧)، وكذا أحمد وأبو داود الطيالسي (انظر فتح الباري ١١/ ٢٩٢).

(٤) المواهب اللدنية للقسطلاني (٢/ ٤٧١).



إنه ﷺ، بمسلكه هذا، يوجه القلوب إلى حقائق الأشياء، ويفتح الأعين لتبصر ـ من خلال عيشه ـ الأمور في وضعها الصحيح. ونحن مع سعيد بن المسيب وأبي أمامة بن سهل فيما ذهبا إليه من رغبتهما في بقاء حجر أزواج النبي ﷺ وعدم هدمها، ليرى الناس ما اكتفى به ﷺ، ولقد كان هدمها خطيئة من الوليد لم يدر عظمها، وكان بقاؤها للمسلمين خيراً من توسعة المسجد، لو أدرك ما يعنيه بقاؤها[1]؟!.

بين التأسي والعزاء:

وبعد: فهل يستطيع الناس أن يكونوا على الأثر ويسلكوا هذا الطريق؟.

ما من شك أن هذا هو المسلك القمة، الذي ينبغي أن يتطلع إليه كل المسلمين، والمطلوب منهم الاقتراب منه قدر المستطاع..

وما من شك أن كثيراً من فقهاء الأمة وعلمائها. وهم الخلاصة. قد ساروا في هذا الطريق تأسياً به ﷺ.

وإمعان النظر في فقه سلوكه ﷺ في طريقة عيشه يضعنا أمام فوائد لا يمكن حصرها في بناء الأمة والأفراد. ونكتفي بذكر حكمين، أحدهما مما يمسّ الأمة في مصالحها الكبرى، والثاني في مجال الأفراد:

١ - فهم الخلفاء الراشدون، ومن جاء بعدهم ممن سلك طريقهم، كعمر ابن عبد العزيز، ونور الدين، وصلاح الدين: أن الرسول ﷺ بمسلكه هذا هو أسوة لحكام المسلمين خاصة، لأن الذي يتولى هذا المنصب ينبغي له أن يفطم نفسه عن الدنيا، وأن يسير على هدي سيرة النبي ﷺ في هذا الجانب من معيشته.. وبفقههم هذا، وفهمهم هذا، كانوا خلفاء راشدين.

---

(١) ومما يعنيه بقاؤها ـ سواء قصد الوليد ذلك أم لم يقصده ـ أنها ستكون إصبع الاتهام الموجهة إلى سكان القصور من الخلفاء، ومنهم الوليد، بأنهم انحرفوا عن الطريق السوي طريق الخلافة الراشدة.



ويلفت علي رضي الله عنه نظرنا إلى الحكمة من ذلك فيقول: «إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام، لئلا يشنع على الفقير فقره».

وعلي رضي الله عنه يري في ذلك فرضاً، وليس هو من باب الفضائل كما هو واضح من عبارته وهو من أئمة البلغاء.

فكم هو عزاء جميل أن يعيش الفقير في مستوى رئيس الدولة، طعاماً ولباساً وسكناً(١).

٢ - إنه عزاء لكل فقير من المسلمين على مرور الأيام، ودعوة له للتأسي به ﷺ في صبره، وشد الحجر على البطون، وعدم مد الأيدي إلى الآخرين، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم.

جاء ثلاثة نفر إلى عبدالله بن عمرو بن العاص، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله ما نقدر على شيء، لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً) قالوا: فإنا نصبر، لا نسأل شيئاً(٢).

إن هؤلاء وهم يسمعون الحديث تمثلوا حياة قائله ﷺ فوجدوا فيها حياة الفقراء، فبعث ذلك فيهم روح الصبر وعدم السؤال.

وفي هذا ما فيه من تربية الأمة على الصبر في أوقات الشدة، تأسياً به ﷺ.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب «من معين السيرة» ص (٤٦٥-٤٧٥) تحت عنوان تخيير النبي ﷺ أزواجه. وفي كتاب: «هكذا فهم السلف»، للمؤلف تحت عنوان «الفقر الملتزَم» وهو العنوان الذي اخترته لهذا الموضوع.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).

وبعد:

«إننا لا ندعو الناس لأن يخرجوا من بيوتهم وأثاثهم، ويبحثوا عن بيوت من الجريد وفراش من الليف، فما أمر بذلك النبي ﷺ وأصحابه، وإنما الذي نقوله على ضوء فهمنا لهديه ﷺ: إن للمسلم أن يعيش واقعه وحياته وبيئته، على أن يكون في ذلك مقتدياً بالنبي ﷺ، فلا يجعل متع هذه الحياة همه، ويتركها تستحوذ على فكره ويصير يملأ عينيه من فراشه وأثاثه، وبيته وحجراته، ويشغل قلبه بصوره وألوانه، حتى يملأ ذلك ركناً من قلبه ويمتلك جانباً من نفسه.

والطامة الكبرى حين يجعل ذلك مصدر مباهاة ومفاخرة، وتعالٍ وتكاثر.

إن من استطاع أن يسمو فوق رغباته، ويعلو على شهواته، بحيث يكتفي من المسكن والأثاث والفراش بما يحفظ عليه حياته وصحته، ويعينه على أداء واجبه.. ويحفظ عليه هيبته ومكانته، فلا شك أنه أصاب السنة واستقام على الجادة»[1].

---

(١) عن بحث للدكتور عبد العظيم الديب، مقدم إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية في قطر عام ١٤٠٠ هـ. مطبوع ضمن البحوث والدراسات للمؤتمر الثالث (٥/ ٣٠٤).

الفصل الخامس

هديه ﷺ بشأن البيوت

حرمة البيوت وأمر الاستئذان:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[1].

هكذا تقرر الآيتان الكريمتان حرمة البيوت، إذ بغير هذه الحرمة لن تكون المكان الآمن الذي يجد الإنسان فيه راحته من العناء المادي والنفسي.

وجاءت السنة المطهرة لتبين كيف يكون الاستئذان وطلب السماح بالدخول إليها.

١ - أما كيفية الاستئذان، فهي كما جاء عند أبي داود: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: ألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: (اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم، أأدخل)؟[2]..

٢ - ويكون الاستئذان ثلاثاً كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع)[3].

---

(١) سورة النور، الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي (د ٥١٧٦ ـ ٥١٧٩، ت ٢٧١٠).

(٣) متفق عليه (خ ٦٢٤٥، م ٢١٥٣).



وقد جاء رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة زائراً، فوقف فقال: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فرد سعد رداً خفياً، فعل ذلك رسول الله ﷺ ثلاثاً، ثم رجع، فتبعه سعد وقال: كنت أرد عليك رداً خفياً لتكثر علينا السلام(١).

وهكذا رجع الرسول ﷺ بعد الثالثة.

وعندما يكون للباب حلق يدق بها، فيدق مرة ثم ينتظر.. فإذا دق الثالثة، ولم يسمع رداً انصرف، حتى ولو أحسَّ بوجود الناس داخل البيت. فإن عدم الردِّ هو بمثابة ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾(٢).

٣ - ولا يقف المستأذن في مواجهة الباب. فعن عبدالله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن عن ركنه الأيمن أو الأيسر(٣).

وجاء رجل يستأذن فوقف على باب النبي ﷺ مستقبلاً الباب، فقال له النبي ﷺ: (هكذا. عنك. أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر)(٤).

٤ - وإذا قيل للمستأذن: من؟ فليقل اسمه. قال جابر رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ فدققت الباب، فقال: (من ذا)؟ فقلت: أنا، فقال: (أنا، أنا) كأنه كرهها(٥).

٥ - يحرم النظر إلى البيوت من خلال الشقوق والجحور.

عن سهل بن سعد: أن رجلاً اطلع من جحر في دار النبي ﷺ، والنبي ﷺ

(١) أخرجه أبو داود (٥١٨٥).
(٢) سورة النور، الآية (٢٨).
(٣) أخرجه أبو داود (٥١٨٦).
(٤) أخرجه أبو داود (٥١٧٤، ٥١٧٥).
(٥) متفق عليه (خ ٦٢٥٠، م ٢١٥٥).



يحك رأسه بالمدرى، فقال: (لو علمت أنك تنظر، لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الإبصار)(١).

سلامة البيوت ونظافتها:

يقضي الرجل في بيته نصف حياته، وتقضي المرأة فيه معظم وقتها، ولذا فقد حرص الإسلام على أن يكون البيت نظيفاً، عطراً، وقد أرشد النبي الكريم إلى بعض الأمور الأساسية التي تسهم في أمان البيت وجماله.

١ - أمر النبي ﷺ بنظافة البيوت من الحشرات والمؤذيات، حيث أمر بقتلها، ومن ذلك: ما روت عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور)(٢).

كما أمر بقتل الحية(٣) وقتل الأوزاغ(٤) وغير ذلك.

وقد ذكرت بعض الأحاديث أضرار هذه الحشرات والحيوانات.

وقد نهى ﷺ عن اتخاذ الكلاب في البيوت فقال: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير)(٥).

وإذا كان الإسلام يدعو إلى التخلص من هذه المؤذيات، فإنه يدعو إلى اتخاذ الأسباب ببذل الجهد في نظافة البيت من الأوساخ والأقذار، فهي أول جالب لتلك المؤذيات.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٩٢٤، م ٢١٥٦).
(٢) متفق عليه (خ ١٨٢٩، م ١١٩٨) واللفظ لمسلم.
(٣) متفق عليه (خ ١٨٣٠، م ٢٢٣٤).
(٤) متفق عليه (خ ٣٣٠٧، م ٢٢٣٧) والوزغ: هو سام أبرص ويسمونه في بلاد الشام (أبو بريص).
(٥) متفق عليه (خ ٥٩٤٩، م ٢١٠٦).

٢ - أمر ﷺ في أحاديث كثيرة بتغطية أواني الطعام والشراب ومن ذلك: (غطوا الإناء، وأوكوا السقاء)(١).

وجاء رجل من أصحابه بإناء من لبن، فقال له: (ألا خمرته، ولو أن تعرض عليه عوداً)(٢).

٣ - وأمر ﷺ بإطفاء النار ليلاً إذا نام الإنسان، فقال: (إن هذه النار إنما هي عدوكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم)(٣).

وكذلك ينبغي للإنسان إذا غاب عن بيته ألاّ يترك فيه ناراً ولو كان نهاراً.

٤ - وأمر ﷺ أيضاً. بنظافة البيوت وعدم ترك أو تجميع الأوساخ فيها. فقال: (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود)(٤).

وقد مر ـ في بحث الطعام ـ كيف أمر النبي ﷺ بغسل اليدين من الدسم وزهومة اللحم.

ويحسن بنا أن نختم هذه الفقرة بالحديث الجامع في هذا الباب، الذي أخرجه الشيخان من حديث جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(إذا كان جنح الليل، أو أمسيتم فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذٍ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحلوهم. فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليه شيئاً، واطفئوا مصابيحكم).

وفي رواية لمسلم: (فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناءً)(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٤) ومعنى أوكو: اربطوا، والوكاء: الرباط.
(٢) متفق عليه (خ ٥٦٠٦، م ٢٠١١) ومعنى ألا خمرته: ألا غطيته.
(٣) متفق عليه (خ ٦٢٩٤، م ٢٠١٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) وضعفه الألباني.
(٥) متفق عليه (خ ٥٦٢٣، م ٢٠١٢).

٥ - وقد كانت بيوته ﷺ تعبق بالطيب، من طيب ذاته ﷺ ومن الطيب الذي كان يتطيب به، وحبه ﷺ للطيب أمر لا يحتاج لشهرته إلى الأدلة.

ما جاء في فرش البيوت وأثاثها:

لا بد للإنسان في بيته من وجود الوسائل التي تؤمن له الراحة في تلبية حاجاته من راحة الجسم، وإعداد الطعام، وتأمين الدفء في فصل الشتاء.

وكل هذا مما يقره الإسلام ضمن خطين عامين:

- تلبية الحاجات، بحيث تظل هذه الوسائل في إطار الوسائل ولا تنتقل لتصبح هي الغاية.

- التوسط في الأمور.

ونحن نذكر ما ورد من السنة هذا الصدد.

١ - جاء في حديث جابر بن عبدالله: أن رسول الله ﷺ قال: (فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان)[١].

والحديث وإن كان يتحدث عن الفراش، ولكنه يقرر قاعدة عامة في شأن كل الحاجيات وأنواع المتاع الأخرى. فهناك حاجة أفراد الأسرة بحسب عددها ويحسب للضيف حسابه، وما زاد فهو للشيطان.

إن زيادة الأثاث عن الحاجة، ينتج عنه، الحاجة إلى المكان في البيت، مما يضيق به البيت على أهله، ثم هو إنفاق للمال بلا فائدة.. الأمر الذي يكون له أسوأ الأثر في اقتصاد الفرد، واقتصاد الأمة.

٢ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ في غزاته، فأخذت نمطاً[٢] فسترته على الباب، فلما قدم فرأى النمط، عرفت الكراهية

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨٤).
(٢) نمطا: المراد بالنمط هنا بساط ليف له خمل.



في وجهه، فجذبه حتى هتكه أو قطعه[1] وقال: (إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين) قالت: فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفاً، فلم يعب ذلك عليَّ[2].

وإذا تأملنا الحديث الشريف فهمنا أن ستر الباب لم يكن حاجة أصلاً لوجود الباب، أما ما ورد بوجود الستور في الأحاديث الأخرى في بيوته ﷺ، فإن هذه الستور إما أنها كانت حيث لا يوجد باب، أو أنها كانت للحجرات التي كانت أمام البيوت، ولم يكن لهذه الحجرات أبواب كما رأينا فيما سبق قريباً.

والذي يفهم من الحديث: أنه لا مانع من الستر حيث توجد الحاجة، كستر النوافذ لحجب الرؤية أو تقليل كمية النور..

وإن الستر يكون بقدر الحاجة، فإذا كان لنافذة مثلاً، فيكون بقدرها ولا يتجاوز ذلك لستر الجدار كله، وذلك واضح من نص الحديث. في قوله ﷺ: (إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين) إذ لا حاجة أصلاً في ذلك، فهو من باب إضاعة المال والترف الزائد.

ولم يكن هتك الستر لنوعية الستر، ذلك أنه ﷺ لم يقل شيئاً عندما جعلته عائشة رضي الله عنها وسادتين.

وهنا ربما قال بعضهم ربما كان ستر الجدران من باب التجميل. والإسلام يطلب الجمال ويقره.

وأقول: لا مانع أن يكون الجمال في الحاجة التي تلبي ضرورة، لا أن تكون الحاجة للجمال. وفرق كبير بين الأمرين. وأضرب مثالاً على ذلك.

الكأس التي يشرب بها الإنسان حاجة، ولا مانع أن تكون مزينة، وأما أن

---

(١) هتكه أو قطعه: ليس المراد أتلفه وإنما أنزله من مكانه بقوة وقسوة.
(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٧).



يكون الكأس في أصل تصنيعه عملية جمالية ولا استعمال له أصلاً فهذا الذي فيه نظر!![1].

٣ - نهى الرسول الكريم ﷺ عن افتراش الحرير والديباج، وكذا افتراش جلود السباع و النمور[2].

كما نهى ﷺ عن استعمال آنية الذهب والفضة.

ففي حديث حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة)[3].

ومما يجدر لفت النظر إليه، أن قدح النبي ﷺ كان من الخشب[4].

زينة البيوت:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت بقرام لي[5] على سهوة[6] لي فيها تماثيل[7]، فلما رآه رسول الله ﷺ

---

(١) وهذا الذي ذهبت إليه ينبني على أصل ذكرته الآية الكريمة على لسان هود عليه السلام مخاطباً عاداً في قوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ [الشعراء ١٢٨] والريع المكان المرتفع عند جواد الطرق، والمعنى: أتبنون هناك بناء محكماً هائلاً، تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج بل لإظهار القوة.

وإذن: فلا مانع أن يزين الإنسان البناء الذي يسكنه، أما أن يكون البناء كله لا لحاجة بل لمجرد إظهار القوة والفن، فهذا الذي سماه القرآن عبثاً. وهذا ينسحب على بقية الأشياء كالكأس التي مثلت بها.

(٢) ما جاء بشأن جلود السباع والنمور أخرجه أبو داود وغيره (د ٤١٢٩-٤١٣٢، ت ١٧٧١).

(٣) متفق عليه (خ ٥٤٢٦، م ٢٠٦٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٣٨).

(٥) القرام: هو الستر الرقيق.

(٦) سهوة: قيل هي الكوة، وقيل هي الرف.

(٧) تماثيل: هي لعب البنات التي كانت عند عائشة.

هتكه وقال: (أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله). قالت: فجعلناه وسادة أو وسادتين، فكان يرتفق بهما في البيت. وكان هذا الستر فيه الخيل ذوات الأجنحة[١].

والذي يفهم من الحديث: أن المنع كان حينما كان معلقاً، فلما أصبح موضوعاً في الأرض حيث مكان الوسائد والمرافق، أقره.

وهذا يعني أنه لا مانع من الصور التي ليس فيها ذوات أرواح، كما جاء في حديث ابن عباس: إذ أتاه رجل فقال: إني إنسان معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعته يقول: (من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً) فربا الرجل ربوة شديدة[٢]، واصفر وجهه، فقال: ويحك، إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر، كل شيء ليس فيه روح[٣].

ومما جاء النهي عنه صور الصلبان، قالت عائشة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه[٤].

وإذاً، فلا مانع من تزيين البيوت بالصور، إذا خلت من صور ذوات الأرواح والتصاليب.

هديه ﷺ في دخول بيته:

مما أرشد إليه النبي ﷺ عند دخول الإنسان بيته أن يذكر الله تعالى.

قال جابر رضي الله عنه، سمعت النبي ﷺ يقول: (إذا دخل الرجل بيته،

---

(١) متفق عليه (خ ٥٩٥٤، م ٢١٠٧).
(٢) ربا الرجل: أي انتفخ، وقيل معناه: ذعر وامتلأ خوفاً.
(٣) متفق عليه (خ ٢٢٢٥، م ٢١١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٢).

فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله. قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[1].

ولم يحدد الحديث صيغة معينة للذكر، فكل ذكر لله تعالى يؤدي الغرض.

ويسلم الداخل بيته على أهله، وقد ورد عنه ﷺ أنه كان يسلم على الصبيان والنساء، فسلام الرجل على زوجته وأبنائه من باب أولى. وإن الألفة بينه وبينهم لا تمنع ذلك، بل إن ذلك عامل من عوامل زيادة الألفة.

وينقل لنا أنس بن مالك رضي الله عنه مشهداً من فعل النبي ﷺ عند زواجه بزينب قال: «فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله) فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك. فتقرَّى[2] حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ»[3].

وهكذا كانت طريقة النبي ﷺ في معاملة أهله، معاملة فيها كل الود والاحترام والتقدير.

هديه ﷺ في النوم:

وإذا كنا بصدد الحديث عن البيت، وهو مكان المبيت والنوم، ناسب أن نتحدث عن كيفية نوم النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم وغيره (م ٢٠١٨).

(٢) تقرَّى: أي تتبع حجر نسائه واحدة بعد الأخرى.

(٣) متفق عليه (خ ٤٧٩٣، م ١٤٢٨).

وأخرج الترمذي عن أنس قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا بني، إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك) [٢٦٩٨] وضعفه الألباني، وما جاء في الصحيح يؤيده.





عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يتوسد يمينه عند المنام، ثم يقول: (ربِّ قني عذابك يوم تبعث عبادك)[1].

وعن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر، فعرَّس[2] بليل، اضطجع على يمينه، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه، ووضع رأسه على كفه[3].

وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[4].

وعن حذيفة قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع يده تحت خده ثم يقول: (اللهم باسمك أموت وأحيا) وإذا استيقظ قال: (الحمد الله الذي أحيانا بعدما أماتنا إليه النشور)[5].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٩٩) وعن حذيفة مثله (٣٣٩٨).
(٢) عرس: التعريس: نزول المسافر للنوم والاستراحة.
(٣) أخرجه مسلم (٦٨٣).
(٤) متفق عليه (خ ٦٣٢٠، م ٢٧١٤).
(٥) أخرجه البخاري (٦٣١٤).





المقصد السابع

النذير العريان









أخرج الشيخان عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال:

(إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوماً فقال:

يا قوم إني رأيت الجيش بعيني

وإني أنا النذير العريان

فالنجاء.

فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا.

وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم.

فذلك مثل من أطاعني، فاتبع ما جئت به، ومثل مَن عصاني وكذب بما جئت به من الحق).

[خ ٧٢٨٣، م ٢٢٨٣]

فهو ﷺ النذير العريان، الذي حذر أمته كل ما ينبغي أن تحذره من عظيم الأمور حتى يسيرها.

فعمَّ وخصَّ:

حذر الأمة كلها على امتداد أجيالها أموراً تتناول كل فرد انتمى إلى هذه الأمة.

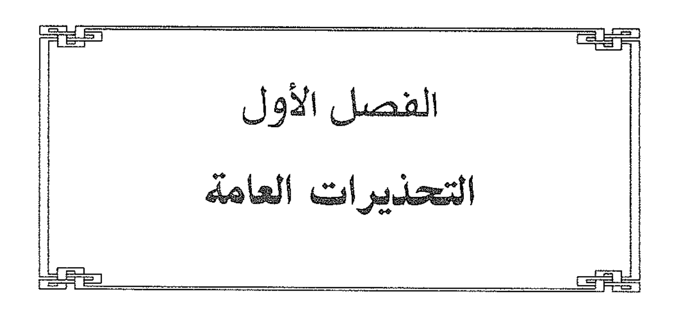
وخصَّ كل فئة بالتحذير مما ينبغي أن تجتنبه، مما هو خاص بها دون غيرها.



وهذا الحذر عاماً كان أو خاصاً، هو في نهاية الأمر بعض ما يتأسى به من فعل النبي ﷺ فيما حَذِره وابتعد عنه.

والنذير العريان: هو طليعة القوم الذي رأى خطراً داهماً، فخاف ألا يصل إلى قومه ليبلغهم، فنزع ثوبه وأشار به إليهم.

وفي هذا المقصد نذكر نماذج من التحذيرات العامة، ونماذج أخرى من التحذيرات الخاصة.



الفصل الأول

التحذيرات العامة

نذكر في هذا الفصل بعض الأمور التي حذر منها ﷺ، مما يخص كل شخص بمفرده، ذكراً كان أو أنثى.

(١)

التحذير من الشيطان

كثيرة هي الآيات الكريمة التي بينت عداوة الشيطان للإنسان. وطلبت الحذر منه، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

وقد قرر القرآن عداوته في آيات كثيرة.

ووراء هذه العداوة هدف يريد الشيطان الوصول إليه، وهو إيصال من تبعه إلى النار، كما نصت الآية الكريمة.

وقد فصل القرآن الكريم قصة هذه العداوة مع آدم عليه السلام، مما هو معلوم لكل مسلم.

---

(١) سورة فاطر، الآية (٦).

(٢) سورة البقرة، الآيتان (١٦٨-١٦٩).



كما سجل الحديث الشريف كيف تبدأ عداوة الشيطان لكل مولود ابتداء من يوم ولادته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسِّ الشيطان، غير مريم وابنها).

ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(١)].

وفي رواية لمسلم: (إلا نخسه الشيطان).

وإذا كانت العداوة بهذا الحجم، كان على المسلم أن يعرف عدوه معرفة تامة، حتى يكون قادراً على أخذ الحيطة والحذر من مخططات الغواية التي ينصبها للناس.

وقد أوضح القرآن السبل التي يسلكها الشيطان كما جاء ذلك على لسان ابليس:

قال تعالى ﴿لَأَقۡعُدَنَّ . . . ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[(٢)].

وهكذا فهي معركة على الجبهات جميعها.

كما أن الشيطان يحرك جنده بسريَّة تامة وفي خفاء وقد لا يشعر الإنسان بهذه الحركة.

قال ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[(٣)].

وهذا مما يزيد المعركة صعوبة، فقدرته على الغواية تجري مجرى الدم، وكما أن الإنسان لا يحس بجريان الدم، فكذلك لا يشعر أنها وسوسة الشيطان، وكما أن الدم يصل إلى أجزاء البدن جميعها، فإن الشيطان كذلك..

---

(١) متفق عليه (خ ٣٤٣١، م ٢٣٦٦) والآية في سورة آل عمران (٣٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢١٧٤).



وهكذا تكفل القرآن والسنة ببيان حجم العداوة والمعركة ليكون الإنسان من حيث اليقظة والتنبه بالقدر الذي يواجه هذا العدو اللدود.

وقد تكفلت السنة بإيجاد الأسلحة اللازمة لذلك في كل ميدان، ونذكر هنا على سبيل المثال:

١ - في ميدان العقيدة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[١].

زاد في رواية أبي داود: (فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد. ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ من الشيطان)[٢].

وعن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: (وقد وجدتموه)؟ قالوا: نعم، قال: (ذاك صريح الإيمان)[٣].

وعن عبدالله بن مسعود قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: (تلك محض الإيمان)[٤].

وعن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه ـ يعرِّض بالشيء ـ لأن يكون حممة[٥] أحب إليه من أن

---

(١) متفق عليه (خ ٣٢٧٦، م ١٣٤).
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٢٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٣٢).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٣١).
(٥) حممة: رماداً، وكل ما احترق بالنار: حممة.

يتكلم به، فقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة)[(١)].

والأحاديث الثلاثة تدور حول ما يلقيه الشيطان من الوسوسة في النفوس وكيف أن المؤمن يرفض قبول ذلك، مما يجعله لا يقبل أن يجري على لسانه. وكما في الحديث الثالث لأن يكون رماداً أحب إليه من أن يتكلم بذلك.

هذه المعركة التي تدور بين الشيطان وبين المؤمن في عملية رفض التكلم بذلك هي محض الإيمان[(٢)].

ولذا كبر رسول الله ﷺ وحمد الله أن رد كيد الشيطان إلى الوسوسة بحيث لم يستطع أن يصل بها إلى النطق..

وكان المانع هو سلاح الإيمان الذي دفع به المسلمُ الشيطانَ.

٢ - في الصلاة:

وقد يعرض الشيطان للإنسان في صلاته، يريد أن يفسدها عليه.

حدث ذلك لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه. فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته، فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً) قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[(٣)].

وفي حديث الشيخين، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، قال: (إن أحدكم إذا قام يصلي، جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس).

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١١٢).
(٢) وليست الوسوسة محض الإيمان كما يتبادر للذهن.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٣).



وفي رواية لهما: (.. حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى)(١).

وهكذا يعالج تلبيس الشيطان بواحد من العلاجين المذكورين.

٣ - في ميدان الأسرة.

ويدخل الشيطان بناء الأسرة يحاول الإفساد، وقد نبه الرسول ﷺ على ذلك حتى يكون كل من الزوجين على بصيرة مما يحاك له، فيفسد على الشيطان خطته.

عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ابليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نِعمَ أنت)(٢).

٤ - ميادين أخرى:

وهناك ميادين كثيرة تتناول كل عمل، أرشد الرسول الكريم ﷺ إلى التصرف الذي ينبغي على المسلم اتخاذه لابعاد الشيطان منها:

- أن يسمي عند دخول بيته.
- أن يسمي عند تناول طعامه وشرابه.
- أن يقول عند الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- أن يبتعد عن استعمال كلمة (لو) فإنها تفتح عمل الشيطان.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٨، ١٢٣١، م ٣٨٩، ٣٨٩ م).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨١٣).



- وفي الحديث: (فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قربكم واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله..)(١).

وهكذا أرشد ﷺ إلى الوسائل التي تبعد الشيطان في كل المواقف.

٥ - معرفة الشيطان:

ولما للشيطان من خطر على نجاة الإنسان، فقد رأى بعض السلف، أن معرفته من الواجبات بغية الحذر منه.

يقول الإمام المحاسبي:

«وأما معرفة عدو الله إبليس، فهو أن تعلم أن الجليل ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ـ قد أمرك بمحاربته ومجاهدته، في السر والعلانية، في الطاعة والمعصية.

وتعلم أنه قد عاند الله تعالى في عبده آدم ﷺ، وضادَّه في ذريته، تنام ولا ينام عنك، وتغفل ولا يغفل، وتسهو ولا يسهو، دائباً مجتهداً في عطبك وهلكتك، في نومك ويقظتك، في سرك وعلانيتك.

وليس راحته في أن يوقعك في المعصية، ولا أن يوقعك في رياء ولا إعجاب، إنما أمنيته أن ترِدَ معه حيث يورد، وهي جهنم أعاذنا الله منها.

فإذا عرفته بهذه الصفة والمنزلة، فألزم قلبك معرفته، والحذر منه في الحق والباطل، بلا غفلة ولا سهو منك.

فحاربه أشد المحاربة، وجاهده أشد المجاهدة.. ولا تدع أن تفزع إلى الله تعالى في حركاتك كلها، فلتستعن به، وتؤدي إليه من نفسك الفقر والفاقة واللجاء إليه، فإنه لا حيلة لك ولا قوة إلا به..»(٢).

---

(١) متفق عليه (خ ٥٦٢٣، م ٢٠١٢).

(٢) شرح المعرفة وبذل النصيحة، للمحاسبي، تحقيق المؤلف. الناشر: دار القلم بدمشق.





(٢)
التحذير من الدنيا

قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[٢].

والآيات الواردة في النهي عن الاغترار بالحياة الدنيا كثيرة.

والأحاديث الواردة في التحذير من الدنيا لا تحصى نذكر منها:

قال ﷺ: (والله، ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار بالسبابة ـ في اليم فلينظر بم ترجع)[٣].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ، بمنكبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٤].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق.. فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم)؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: (أتحبون أنه لكم)؟ قالوا: والله، لو كان حياً، كان عيباً فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: (فوالله، للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم)[٥].

---

(١) سورة الحديد، الآية (٢٠).
(٢) سورة فاطر، الآية (٥).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٨).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٦).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٧) والأسك: صفير الأذنين.



وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر)[1].

وقال ﷺ: (ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)[2].

والأحاديث في هذا كثيرة.. في التحذير من الدنيا.

والإنسان في هذه الحياة، لا بد له من الضروريات التي هي: الطعام والملبس والمسكن، والسعي في سبيل ذلك أمر مشروع،.

وكف النفس عن حاجة الآخرين أمر يطالب به الشرع واليد العليا خير من اليد السفلى.

والمحظور: هو الانغماس بطلب الدنيا، والانهماك في جمع حطامها، مما تهدر به واجبات أخرى كثيرة على الإنسان القيام بها، من أداء العبادات المطلوبة في أوقاتها. والعناية بتربية الأبناء، وأداء حقوق المسلمين...

فالتحذير من سيطرة حبها على القلب. بحيث تنصرف همة الإنسان بكاملها إليها وتنسى الواجبات الأخرى.

ومن هنا كانت مراجعة الحساب بين فترة وأخرى أمراً ضرورياً، يتعرف الإنسان على وضع نفسه، وكم أخذت الدنيا من وقته، وكم بقي للآخرة منه، فإذا فعل ذلك، استطاع أن يعدل مساره، كلما وجد الانحراف قد تطرق إليه.

(٣)
التحذير من النفس

العجب بالنفس من الأمراض الخطيرة، التي ربما كانت سبب هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٧٧).



أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذا خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)[1].

وإذا كان الإعجاب بالظاهر أورد هذا الإنسان ذلك المورد، فإن الإعجاب بالباطن والرضى عن النفس أشد خطراً وأسوأ عاقبة.

والإعجاب بالنفس هو النظر إليها بعين الكمال، وهو الغرور الذي لا يدانيه غرور آخر.

وقد نهى الله عن تزكية النفس ومدحها فقال تعالى:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

وقد رأينا عند بحث الإخلاص ما يطرأ على النفس من الرغبات، التي منها الرياء، وطلب الشهرة، وطلب المدح.. والتي تحتاج إلى مجاهدة مستمرة من الإنسان لنفسه حتى يتخلص منها.

وقد سبق كيف بين ﷺ، الوسائل التي تؤدي إلى الطريق المستقيم وفي مقدمتها التواضع الحقيقي، وعدم الرضى عن النفس.

(٤)
التحذير من النار

وكان ﷺ، شديد الإلحاح في التحذير من النار، وهو الأمر الذي تكرر التحذير منه في القرآن الكريم.

والتحذير من النار، هو التحذير من الأسباب والذنوب والمعاصي المؤدية إليها.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٧٨٩، م ٢٠٨٨).

(٢) سورة النجم، الآية (٣٢).



قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

وعن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب، فقال: (أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار). فما زال يقولها حتى لو كان في مقامي هذا لسمعه أهل السوق، وحتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه[2].

وعن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ، فقال: (عرضت عليَّ الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، قال: غطوا رؤوسهم ولهم خنين[3].

أجل، إن الأمر خطير، فهو إما الجنة وإما النار.

وكان ﷺ، (النذير العريان).

(٥)
التحذير من الدجال

حذر النبي ﷺ أمته من الدجال في أحاديث كثيرة، نذكر واحداً منها:

أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قام رسول الله ﷺ، في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: (إني

---

(١) سورة التحريم، الآية (٦).

(٢) أخرجه الدارمي برقم (٢٨١٢) وقال محققه (الزمرلي): رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٦٨) ورواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٨٧) وقال: صحيح على شرط مسلم. ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٧)، وقال في مجمع الزوائد (٢/ ١٨٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) متفق عليه (خ ٧٢٩٤، م ٢٣٥٩) واللفظ لمسلم.

لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور).

وفي رواية لمسلم: وقال: (تعلَّموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)[1].

(٦)
التحذير من اتباع الأمم السابقة

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم) قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمن)؟[2].

هذا وصف لواقع سيصيب المسلمين، وتحذير من ذلك، وقد حذر الرسول الكريم ﷺ المشرك إذا أسلم من البقاء بين المشركين خوفاً من التأثر بهم قال ﷺ: (لا يقبل الله عز وجل من مشرك بعدما أسلم عملاً، أو يفارق المشركين إلى المسلمين)[3].

وعن جرير بن عبدالله قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، وفراق المشرك[4].

فالمطلوب من المسلم المفارقة المادية والأخلاقية والاجتماعية للمشركين حتى يبتعد عن تأثيرهم المباشر وغير المباشر.

وما ذلك إلا خوفاً من أن يصل إلى الإعجاب بهم، والإعجاب يؤدي إلى الموادة، وهنا يكمن الخطر:

---

(١) متفق عليه (خ ٣٣٣٧، م ١٦٩).
(٢) متفق عليه (خ ٧٣٢٠، م ٢٦٦٩) وهو عند ابن ماجه عن أبي هريرة برقم (٣٩٩٤).
(٣) أخرجه النسائي برقم (٢٤٣٥) وابن ماجه (٢٥٣٦).
(٤) أخرجه النسائي برقم (٤١٨٦).

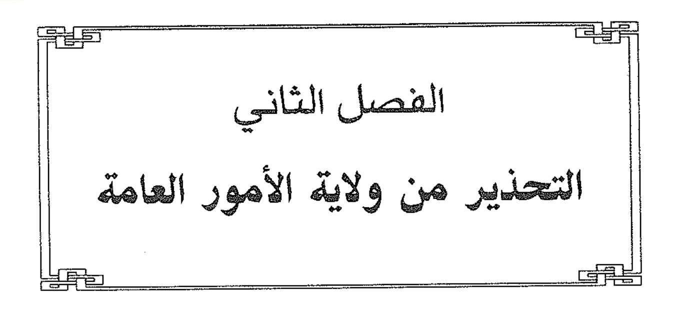
قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(١).

تلك نماذج من الأمور العامة التي حذر منها ﷺ، مما ينبغي على كل فرد مسلم، ذكراً كان أو أنثى. أن يضعها في سلم أولوياته، حتى يبتعد عن عذاب الله ويزحزح عن النار، ويكون بفضل الله ورحمته من أهل الجنة، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) سورة المجادلة، الآية (٢٢).





الفصل الثاني

التحذير من ولاية الأمور العامة

لا بد في كل أمة من أناس يتولون إدارة الأمور العامة فيها، فيكون منهم الولاة، والقضاة، والمسؤولون عن ادارة الشؤون المالية، والمسؤولون عن توجيه الأمة..

وهي مسؤوليات تتعلق بالأمة، وخطرها كبير. وكان في جملة ما حذر منه ﷺ تولي هذه المسؤوليات لمن لم يكن أهلاً لها. ونذكر أمثلة على ذلك:

تحذير الأئمة:

وجه ﷺ، إلى عدم طلب هذا المنصب لما فيه من المسؤولية العامة. فقال لعبد الرحمن بن سمرة:

(يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها)[١].

وقال ﷺ: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة)[٢].

وعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)[٣].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٦٢٢، م ١٦٥٢).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٧١٤٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٥).





وقال له: (إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين..)(١).

هذا ما بينه ﷺ بشأن طلب الإمارة، ونصيحته بالابتعاد عنها إلا من كان أهلاً لقيام بمسؤولياتها.. وقد بين بعض ذلك بأحاديثه الكثيرة في الموضوع، منها:

قال ﷺ: (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته..)(٢).

وقال ﷺ: (ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة)(٣).

وقال ﷺ: (ما من وال يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة)(٤).

وقال ﷺ: (من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره)(٥).
وقال ﷺ: (ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة، مغلولة يداه إلى عنقه، أطلقه الحق، أو أوبقه)(٦).

أليس في هذا أو بعضه تحذير وإنذار من الإقدام على هذا الأمر، كما أن فيه ترغيباً بالاستقامة لمن وليه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٦).
(٢) متفق عليه (خ ٧١٣٨، م ١٨٢٩).
(٣) متفق عليه (خ ٧١٥٠، م ١٤٢).
(٤) أخرجه البخاري برقم (٧١٥١).
(٥) أخرجه أبو داود برقم (٢٩٤٨) والترمذي (١٣٣٢).
(٦) أخرجه الدارمي برقم (٢٥١٥).



تحذير القضاة:

مهمة القضاء هي إقامة العدل بين الناس، وهي مهمة الأنبياء من قبلهم وليس كل إنسان أهلاً للقيام بهذه المهمة، ولذا فمن تولاها وهو ليس أهلاً لها فقد تجرأ على النار.

قال ﷺ: (القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[1].

ولعظيم مسؤولية القاضي، امتنع كثير من سلف هذه الأمة عن تولي هذه المهمة بل إن الإمام أبا حنيفة حبس على أن يتولى القضاء فأبى وآثر الحبس.

وقد قال ﷺ: (من ولي القضاء، فقد ذبح بغير سكين)[2].

وبهذا يتضح خطر هذا المهمة ويكون المتقدم إليها على بصيرة من أمره.

تحذير العلماء:

رفع الإسلام من درجة العلم، وكرَّم العلماء.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[4].

ونكتفي بذكر حديث واحد من أحاديث رسول الله ﷺ. وهي كثيرة: قال ﷺ: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة.

وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم.

وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٥٧٣) والترمذي (١٣٢٢) وابن ماجه (٢٣١٥).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه. (د ٣٥٧١).

(٣) سورة المجادلة، الآية (١١).

(٤) سورة فاطر، الآية (٢٨).

وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً. ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1].

تلك هي منزلة العلماء.

إنهم ورثة الأنبياء، الذين هم خيرة الله من خلقه.

فهم حملة الهداية، الآمرون بالمعروف. الناهون عن المنكر.

وهم الذين يعلِّمون الناس بلسان حالهم، ولسان قالهم.

فهم يدعون الناس إلى الخير، وهم القدوة فيه، وينهون الناس عن الشر، وهم له مجانبون.

ولما كانت هذه منزلة العلماء كانت مسؤوليتهم عند الله كبيرة، تتناسب مع فضل مكانتهم.

ومن هنا جاء تحذير النبي ﷺ لهم واضحاً بيناً:

قال ﷺ: (من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)[2] يعني ريحها.

وقال ﷺ: (من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار)[3].

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل. . ، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن؟ قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) والدارمي (٣٤٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤).

وقرأت القرآن، ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار..)[١].

ذلك مصير الذين ينحرفون بعلمهم عن خط وراثة النبوة، ابتغاء بعض حظوظ الدنيا من المال والشهرة والمنصب..

وانحراف العالم أمر خطير، لأنه يلبس على العامة أمور دينهم، والناس ينظرون إلى سلوك العالم قبل النظر إلى أقواله.

ومن هذا المنطلق، كانت زلة العالم هدماً للدين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢].

والخلاصة: إنه لما للعالم من أثر في تربية الأمة وتوجيهها، كانت مكانته العالية وثوابه الجليل. فإذا استخدم هذه المكانة في غير ما أعدت له استحق العقوبة، فكان تحذيره ﷺ، بياناً وطلباً لاستقامة العلماء على المنهج القويم.

تحذير المتخوضين في مال الأمة:

وممن حذرهم النبي ﷺ، الذين يتولون الإشراف على تصريف الأمور المالية للأمة، جمعاً وإنفاقاً..

والأصل أن يتولى هذا الجانب من أمور الأمة أهل الأمانة الموثوق بدينهم ومراقبتهم لله تعالى.

وإغلاقاً لمنافذ الشيطان إلى نفوس هؤلاء كان تحذيره ﷺ.

عن خولة الأنصارية قالت: سمعت النبي ﷺ، يقول: (إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الدارمي عن زياد بن حدير قال: قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين» برقم ٢١٤. وسنده صحيح كما في تخريج المشكاة ١/ ٨٩.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣١١٨).



وعن عدي بن عميرة الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من استعملناه منكم على عمل. فكتمنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة) قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك، قال: (وما لك)؟ قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: (وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى)[1].

وعن خولة بنت قيس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن هذا المال خضرة حلوة، من أصابه بحقه بورك له فيه، وربَّ متخوض فيما شاءت به نفسه من مال الله ورسوله، ليس له يوم القيامة إلا النار)[2].

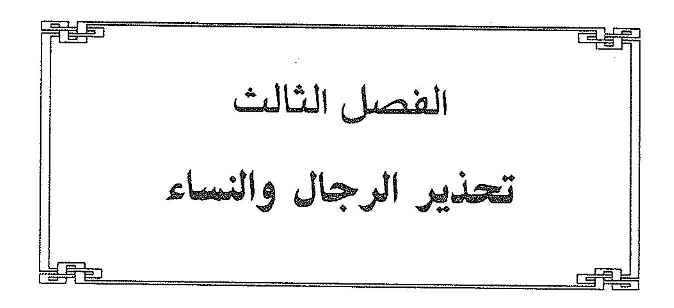
إن تحذيره ﷺ، الناس من أمر، إنما الدافع إليه الخوف عليهم مما ينتظرهم من العقوبة.

ومال الله ـ مال الأمة ـ فيه حق الضعيف، والأرملة والمسكين، واليتيم وغير ذلك، فهو مال حدد الشرع مصارفه، فإذا استولى عليه إنسان وصرفه في شهواته ومآربه، ضاعت كل تلك الحقوق.

ومن هنا لم يجبر رسول الله أحداً على تولي هذا العمل، فهذا أبو مسعود الأنصاري يستعفي رسول الله ﷺ، من هذا العمل بعد أن كلفه به فقال له: (إذاً لا أكرهك)[3].

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٣٣) وأبو داود (٣٥٨١).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٧٤).
(٣) أخرجه أبو داود برقم (٢٩٤٧).





الفصل الثالث
تحذير الرجال والنساء

الرجال والنساء قوام كل مجتمع، وقد ضبط الإسلام العلاقة بين الطرفين بما يكفل لكل منهما الحياة السعيدة، وإنما يحصل الخلل عندما تترك شرائع الله.

وقد حذر ﷺ، كلاً من الطرفين من الطرف الآخر.

تحذير الرجال من النساء:

جعل الإسلام القوامة في إطار الأسرة للرجل، وهذا لا يعني انتقاص المرأة، وإنما لا بد لكل مجتمع صغر أو كبر من نظام يضبطه، فكانت القوامة مسؤولية الرجل.

ومعنى القوامة: هو ضبط شؤون الأسرة وفق ما أمر به الله تعالى وما جاء به رسوله ﷺ.

وللحفاظ على هذا الانضباط حذر ﷺ، من تأثير المرأة على الرجل في جعله ينحرف عن المسار الصحيح، وفي هذا جاءت الأحاديث الكثيرة ومنها:

قال ﷺ: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء)[1].

وقال ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)[2].

---

(١) متفق عليه (خ ٥٠٩٦، م ٢٧٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢).

وقد بين ﷺ، مدى سلطان المرأة وقوة تأثيرها على الرجل فقال: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)(١) هذا التحذير هو بيان لجانب الضعف في شخصية الرجل حتى لا يؤتى من قبل ذلك.

إن هذا لا يعني احتقار المرأة، ولا الإساءة إليها، ولا عدم تكريمها، ولا الحيلولة بينها وبين ما أناط الله بها من مسؤوليات.

وقد سبق بيان بعض ما كرمها الإسلام به في الفصول السابقة.

وإنما الخوف أن يقع الرجل تحت تأثير المرأة، فيما يخالف أمر الله تعالى كما حدث لوالد النعمان بن بشير رضي الله عنه، عندما وقع تحت تأثير إحدى نسائه فمنح ابنه منها ما لم يمنح بقية أبنائه، وذهب يشهد رسول الله ﷺ، على ذلك فقال ﷺ: (لا تشهدني على جور)(٢).

أو تضعه المرأة تحت كثرة طلباتها في أمر دنياها، مما يجعله ينشغل عن أداء أمور دينه في سبيل تلبية متطلباتها..

على أن الإسلام وهو يفعل ذلك، فإنما يصون للمرأة حقوقها من اعتداء بنات جنسها عليها.

فحينما يوصي الرجل بالخوف من فتنة النساء، فإنما يصون لزوجته كرامتها ويحفظ عليها زوجها.. والأحاديث التي تؤكد ذلك كثيرة. منها:

قال ﷺ: (إياكم والدخول على النساء) فقال رجل من الأنصار، يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: (الحمو الموت)(٣).

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٤، م ٨٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٠).
(٣) متفق عليه (خ ٥٢٣٢، م ٢١٧٢).
والحمو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج. والمعنى أن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر، لتمكنه من الوصول إلى المرأة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب، إلا أن يكون ناكحاً أو ذا محرم)[١].

إن هذه الشرائع إنما هي في صالح المرأة، ديناً وأخلاقاً وسمعة، كما هي في صالح الرجل لأنها تحذره من الانزلاقات التي تؤدي به إلى غضب الله سبحانه وتعالى.

تحذير النساء:

حذر النبي ﷺ النساء من أمور تخصهن.

وإنما الغاية من التحذير السعي لنجاتهن، وإنما مثله ﷺ، في ذلك مثل طبيب عرف أدواء مريضه فعرَّفه بها، ليراعي في طعامه وشرابه أمر تلك الأدواء، حتى لا يسرع بنفسه إلى الهلاك.

ونورد طائفة من الأحاديث الشريفة التي وردت في ذلك.

● عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء)[٢].

● وعن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ، في أضحى ـ أو فطر ـ إلى المصلى، فمرَّ على النساء فقال:

(يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكنَّ أكثر أهل النار).

فقلنا: وبمَ يا رسول الله؟.

قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن).

قلنا: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟.

قال: (أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل)؟.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٧١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٢٤١) وأخرجه مسلم برقم (٢٧٣٧) من حديث ابن عباس.



قلنا: بلى.

قال: (فذلك نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم)؟.

قلنا: بلى.

قال: (فذلك نقصان دينها)[1].

● وعن ابن عمر مثله، وفيه (يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار..) وفيه: (أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدين)[2].

● وعن جابر بن عبدالله قال: قام النبي ﷺ، يوم الفطر فصلى.. ثم مضى، حتى أتى النساء، فوعظهن، وذكرهنَّ فقال: (تصدَّقنَ، فإن أكثركنَّ حطب جهنم) فقامت امرأة من سطة النساء، سفعاء الخدين، فقالت: لِمَ؟ يا رسول الله! قال: (لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير) قال فجعلن يتصدقن[3]..

● وفي حديث صلاة الكسوف عن عبدالله بن عباس قال: قال ﷺ: (إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء) قالوا: بمَ يا رسول الله؟ قال: (بكفرهن) قيل: يكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط)[4].

● وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٤، م ٨٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٩) ومثله عن أبي هريرة برقم (٨٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٨٥).

(٤) متفق عليه (خ ١٠٥٢، م ٩٠٧).



عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[1].

والأحاديث الشريفة السابقة تقرر الأمور التالية.

١ - أن أكثر أهل النار من النساء.

٢ - وأن أسباب دخولهن النار تعود إلى.

أ - كثرة اللعن.

ب - كفران العشير الذي هو الزوج.

ج - كثرة الشكوى.

د - كفران الإحسان.

٣ - أمرهن بالصدقة والاستغفار.

٤ - تقرير نقصان عقلهن ودينهن، وبيان سبب ذلك.

ونوضح الأمر بعض التوضيح فنقول:

إن كون النساء أكثر أهل النار، هو بيان للحقيقة منه ﷺ، كما بين أن أكثر أهل الجنة الفقراء.

وقد بينت الأحاديث أسباب دخولهن النار، فليس دخولهن لكونهن نساء، وإنما لما يتصفن به مما ذكرته الأحاديث.

وإذا كان الأمر كذلك، فقد بين ﷺ، هذه الأمور حتى تلاحظ كل امرأة نفسها وتضبط سلوكها، وتبتعد عما كان سبباً في دخول النار فلتحاول كل واحدة: أن تعوِّد لسانها الابتعاد عن كلمة اللعن وأن تذكر عشيرها بما فيه من خير فلا تجحد ذلك.

وأن تقل الشكوى وتتحدث بنعم الله عليها وما أكثرها.

وأن لا تجحد الإحسان.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!!.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٢٨).



وما الأمر لهن بالصدقة والاستغفار إلا لتعويض ما بدر منهن من ذلك، إن الحسنات يذهبن السيئات.

واذن فذكر هذه الصفات التي تكثر في النساء للتحذير منها، وليست الغاية من ذكرها التحقير للنساء أو انتقاصهن.

وأما ما جاء في نقصان عقلهن ودينهن، فليس ذلك على إطلاقه، كما يحلو لبعض الجهلة فهمه.

وما كان لأحد أن يفهمه على إطلاقه بعد أن فسره رسول الله ﷺ، وقيده بالبيان الشافي.

فليس النقص في بنية عقل المرأة، وهو من صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه، وإنما هو في إطار الشهادة فقط كما أوضحه ﷺ.

وإلا لما أخذ الرسول ﷺ، بمشورة أم سلمة رضي الله عنها في صلح الحديبية.

ولما روى أحد من الصحابة والتابعين شيئاً من الأحاديث التي روتها عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن جميعاً. بحجة نقص عقلهن.

ولم يطلب أحد من عائشة أو غيرها الإتيان بشاهدة أخرى تؤكد ما تقول مما ترويه عنه ﷺ، والصحابة يومئذٍ متوافرون..

كل هذا يدل على أن ذلك النقصان مقيد ومحدود بما قيده به ﷺ، ومن فهمه على إطلاقه، فهذا دليل على جهله.

ونقصان الدين أمر لا يد لهن فيه. وما قوله ﷺ، في ذلك إلا البيان للواقع.

ونعود إلى قوله ﷺ: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن).

فهذه شهادة منه ﷺ، على قدرة المرأة ـ على الرغم من ضعفها ـ على الهيمنة على عقل الرجل القوي، وتسييره فيما تريد.



وكما في هذه الجملة من تنبيه الرجل وتحذيره، فهي أيضاً تحذير للمرأة من أن تستخدم إمكاناتها فيما لا يرضي الله تعالى. بل عليها أن تستخدم ذلك في توجيه الرجل إلى الخير ومساعدته عليه.

أما حديث الكاسيات العاريات، فهو من معجزاته ﷺ، في الإخبار عن المغيبات التي أخبر بحدوثها..

وقد رأى الناس جميعاً هذين الصنفين الذين أخبر بهما ﷺ.

رجال يضربون الناس بأمثال أذناب البقر.

ونساء كاسيات عاريات..

إنه إخبار منه ﷺ، المراد به التحذير للرجال أن يكونوا من الفريق الأول. وتحذير النساء أن يكنَّ من الفريق الثاني.

والمرأة التي تكون بهذه الصفة، إنما هي دعوة سافرة للفحش والرذيلة، وعامل من عوامل الفساد في بناء الأمة.

على أنه ينبغي أن نعرف: أن كل امرأة من هذا الفريق تجر معها رجلاً إلى جهنم إضافة إلى الرجال الذين أفسدتهم.

ذلك هو وليها، أباً كان أو أخاً. أو عماً..

فهذا الولي لم يقم بواجبه ولم يحسن الرعاية، والنبي ﷺ، يقول: (والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته)[(١)].

وهو الديوث الذي جاء ذكره في حديث النبي ﷺ، حين قال:

(ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة. والديوث)[(٢)].

والديوث: هو الذي لا غيرة له على أهله.

---

(١) متفق عليه (خ ٧١٣٨، م ١٨٢٩).
(٢) أخرجه النسائي برقم (٢٥٦١).







المقصد الثامن

طرف من عبادته صلى الله عليه وسلم




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
الحصري
NEW & EXCLUSIVE

لن نتحدث في هذا المقصد عن عباداته ﷺ، في ميدان الصلاة والصوم والصدقات والحج. فتلك جوانب حفلت بالحديث عنها كتب السنة الشريفة وغيرها، والوصول إليها سهل ميسور، بل هي مما هو معلوم للعامة والخاصة.

وإنما نقصر الحديث هنا على ثلاثة أنواع من عبادته ﷺ، هي:

١ - التفكير

٢ - الجهاد

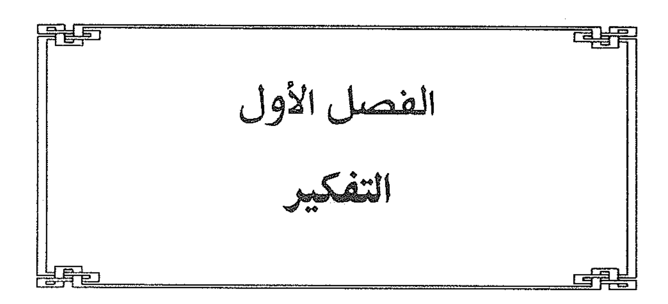
٣ - الذكر والدعاء

ومن المهم أن نذكر: أن حياته كلها، بل إن كل لحظة فيها، كانت عبادة.

ذلك أن كل عمله ﷺ، كان بياناً حياً لما ينبغي على المسلم أن يقتدي به، ويتبع أثره.

وطالما أن كل لحظة فيها بيان، فهي عبادة بهذا المعنى.. فقد أنزل الله إليه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم.

قال القسطلاني في المواهب: «وكلما كان العبد إلى ربه أقرب، كان جهاده إلى الله أعظم.. ولهذا كان النبي ﷺ، أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بوظائف العبادة، ومحافظة عليها إلى أن توفاه الله تعالى».



الفصل الأول
التفكير

المشاهد الكونية في القرآن:

كثيرة كثيرة هي المشاهد الكونية التي جاء القرآن الكريم على ذكرها، ودعا الناس إلى الوقوف أمامها، واعمال الفكر بعد النظر فيها. ونذكر نماذج قليلة من ذلك:

قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٤).



تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾[3].

إنها دعوة للناس للنظر في كتاب الكون المفتوح للتعرف من خلاله على خالقه والإيمان به سبحانه وتعالى.

ولا شك أنها الطريقة المثلى، التي تضع الإنسان أمام يقينيات لا يستطيع العاقل إنكارها.

عندما تعمى القلوب:

على أن هناك فريقاً من الناس آثر أن يغلق منافذ الحس ويعيش في ظلام مطبق بعيداً عن إعمال الفكر والقلب.

---

(١) سورة النحل، الآيات (١٠-١٧).

(٢) سورة النحل، الآيات (٦٦-٦٩).

(٣) سورة الغاشية، الآيات (١٧-٢١).



قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[(١)].

وقال تعالى:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[(٣)].

أولو الألباب:

هذه الآيات وغيرها، عندما يقف المؤمن أمامها، فثمة موقف مغاير ونتيجة إيجابية، تزيد الإيمان.

وهذا ما أثبتته الآيات الكريمة.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[(٤)].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

---

(١) سورة الحج الآية (٤٦).

(٢) سورة يونس، الآية (١٠١).

(٣) سورة يوسف، الآيتان (١٠٥-١٠٦).

(٤) سورة الزمر، الآية (٢١).

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩٠)[1].

وهكذا ينتج التفكير الاعتراف بعظمته تعالى، وانتفاء فعله ـ سبحانه ـ عن العبث والباطل..

وهكذا تستقر الحقائق في نفوس المؤمنين بعد نظر وإعمال فكر، فتخشع القلوب وتدمع العيون.

عبادة التفكير:

سبقت الإشارة إلى أن آيات المشاهد الكونية في القرآن الكريم تأخذ مساحة واسعة من صفحات هذا الكتاب الكريم.

وإذا كانت تلاوة هذه الآيات الكريمة من العبادة، فإن من العبادة أيضاً ـ ومن باب أولى ـ العمل بما جاء بها من نظر ومعان فكر.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

أخرج مسلم عن أبي وائل قال: جاء رجل يقال: له نهيك بن سنان إلى عبدالله بن مسعود فقال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبدالله: هذّاً كهذ الشعر[3]؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع[4]..

وإذاً، لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة، وإنما لتعمل آياته في النفوس ومن ثم في المجتمع..

ولهذا كثر في الآيات قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٩٠-١٩١).

(٢) سورة محمد ﷺ، الآية (٢٤).

(٣) الهذ: شدة الإسراع، والإفراط في العجلة.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٨٢٢).

إن إعمال العقل والفكر فيما أمر به الله تعالى، هو العبادة والطاعة.

وقد نقلت السنة فعل الرسول ﷺ، وهو ينظر في السماء. ويتلو آيات آل عمران.

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثم قام فتوضأ واستن[1] فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح[2].

وعن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ، لأرقبن رسول الله ﷺ، لصلاة حتى أرى فعله، فلما صلى صلاة العشاء، اضطجع هوياً من الليل، ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[3]..

ثم ذكر صلاته ﷺ[4].

وهكذا يؤكد الحديثان أن تلاوة هذه الآيات صاحبها النظر في السماء في الحديث الأول، والنظر في الأفق في الحديث الثاني..

إن الفعل صاحَبَ التلاوة..

كيف لا، والقرآن يرسم لنا في هذه الآيات الحالة التي ينبغي أن يكون عليها أولو اولباب وهم يتلون مثل هذه الآيات.

ولننظر بإمعان إلى النص القرآني الكريم:

---

(١) استن: أي استعمل السواك. والآية من سورة آل عمران (١٩٠).

(٢) متفق عليه (خ ٤٥٦٩، م ٧٦٣) واللفظ للبخاري.

(٣) سورة آل عمران، الآيات (١٩١-١٩٤).

(٤) أخرجه النسائي برقم (١٦٢٥).



قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾(١).

فهل يعقل أن يستمع الصحابة رضي الله عنهم، إلى هذه الآيات، ثم لا يسارعوا إلى تنفيذ ما فيها. وهم الجيل الذي تعلم العلم والعمل معاً!!.

السلف وعبادة التفكير:

وردت أقوال كثيرة على لسان السلف تدل على مدى اهتمامهم بهذه العبادة ورعايتها.

قال الحسن البصري، عن عامر بن عبد قيس، قال: سمعت غير واحد، ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكر.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ.

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة.

وقال الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال سفيان بن عيينة: الفكر نور يدخل قلبك.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٩٠-١٩٤).

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.

وعنه أيضاً: أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادَّكر(١).

وعن محمد بن واسع: أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر، بعد موت أبي ذر، فسألها عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وقال الحسن البصري: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو(٢).

التفكير والخشية:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٣).

وواضح من الآيتين: أن رؤية الألوان في الثمرات، ورؤية الألوان في الجبال والتربة، ورؤية الألوان في الناس، ورؤية الألوان في الدواب والأنعام. وواضح أن هذه الرؤية التي تشمل عالم النبات، وعالم الجماد، وعالم الأحياء تأخذ بالفكر إلى وحدة الصانع وقدرته وعظمته.. مما يخشع له القلب

---

(١) هذا الخبر وما قبله في تفسير ابن كثير عند الآية (١٩٠) وما بعدها من سورة آل عمران.

(٢) هذا الخبر والذي قبله في المهذب في إحياء علوم الدين ٢/٤٢٩.

(٣) سورة فاطر، الآيتان (٢٧-٢٨).

المبصر الذي لم يقف عند ظواهر الأشياء، بل جاوز ذلك إلى حقائقها، وانتقل من التنوع إلى الوحدة إنها القدرة على التلوين لكل الأشياء.

هذه العملية التي تبدأ من الرؤية ثم تنتقل إلى الفكر للمقارنة والاستنتاج، ثم الوصول إلى ما وراء الرؤية والفكرة والاستنتاج إلى المبدع والتعرف عليه من خلال مخلوقاته. هي التي أطلق عليها القرآن الكريم اسم «العلم».

وإذا كانت الآيتان السابقتان قد طافتا بنا في طول الأرض وعرضها وما عليها من حيوان وإنسان ونبات، وما فيها من صخور وجبال، فإن آيات أخرى تحدد طلب النظر في ميدان واحد.

قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

وبعد تدقيق النظر في الأنفس، تبين أن الإنسان، هذا المخلوق عالم قائم بذاته، إن عالم الحيوية فيه، وتنوع الأعمال التي تقوم بها أعضاء الجسم وأجهزته تحتاج إلى نظرة لا تقل عن تلك النظرة التي طافت بنا الأرض كلها.. وما تزال هذه النفس مجهولة تماماً كما يقول العلماء من الأطباء[2]..

وهنا وهناك يخشع القلب حين تنفتح له أفاق العلم.

وأخيراً: من الملفت للنظر أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ في ختام هاتين الآيتين.

الأمر الذي يحرر العلم من القيود.. فالنظر في المخلوقات.. علم..

ولا يكون العلم علماً إلا إذا كانت الخشية من ثمراته.

التفكير والحياة:

وإذا كان الإسلام قد جعل النظر والتفكير في مخلوقات الله عبادة، فلا

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٢١).

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب «الإنسان ذلك المجهول» تأليف ألكسيس كاريل.



يعني أن ذلك قاصر على القضية الإيمانية، وأن فائدته خاصة بما يعود على الإنسان في أخراه، فما كانت الدنيا في منهج الإسلام منفصلة عن الآخرة.

بل إن للنظر والتفكير أثرهما في بناء الحياة والاستفادة مما سخره الله سبحانه وتعالى لنا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾(١).

وعندما عمل المسلمون بتوجيه قرآنهم كان لهم دور القيادة في الأرض، فاستفادوا مما سخره الله تعالى في خير البشر جميعاً..

وعندما نغفل هذا الجانب في حياتنا، فإنما نترك بعض أوامر ديننا.

يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ:

«ما معنى أن أعبر الحياة دون تعريج على شيء منها؟ إن خالق هذه الحياة قال: اعرفوا أسمائي الحسنى وصفاتي العلا في تضاعيف المكان والزمان، وفي مسيرة الحياة والأحياء، إنكم لن تعرفوا عظمتي إذا انطلقتم من المهد إلى اللحد عمياناً عن آياتي في الأرض والسماء، وعن أقداري في الأفراد والأمم.

إنه أقسم بالشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر والشفق، والوالد والولد، بل يقسم بما نبصر وما لا نبصر، لأن رؤية السطوح لا تغني عن رؤية الأعماق.

أقسم بالرياح عاصفة ولطيفة، وبخيل المجاهدين يتطاير الشرر من تحت سنابكها وهي في المعركة الأزلية بين الحق والباطل. أقسم بهذا كله لنتعرف عليه ونعيش في جوه ونفيد من عبره.

---

(١) سورة لقمان، الآية (٢٠).



فكيف يقول: أنا عارف بالله، من هو جاهل بالحياة وأسرارها وقواها ونواميسها؟.

عندما تساءل منكرو البعث: كيف يقع النشور، جاءت إجابة القرآن الكريم على هذا النحو: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

السير في الأرض لدراسة الحياة، هو طريق الإيمان بالله ولقائه، لا بد من السباحة في أمواج الحياة ومعرفة تياراتها ومدها وجزرها، وشواطئها، وأسباب الغرق والنجاة.

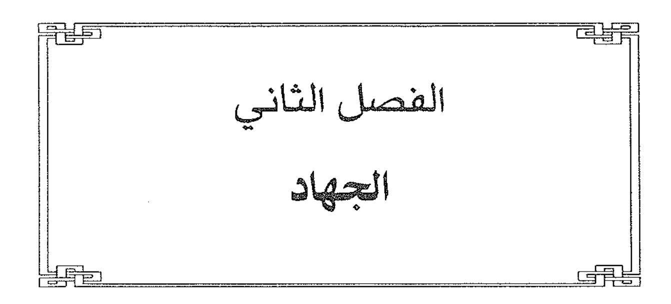
ليست البلاهة إيماناً، ولا الجهل صلاحاً، إن الخبرة بالحياة والقدرة على امتلاكها وتطويعها لخدمة ربها هي الإيمان والعمل الصالح..»[2].

وكما كانت الزكاة عبادة، ومع ذلك فهي جزء أصيل في نظام الإسلام الاقتصادي فكذلك التفكير عبادة، ومع ذلك فهو وسيلة لبناء الإيمان وبناء الحياة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان (١٩-٢٠).

(٢) الحق المر، للشيخ محمد الغزالي، تحت عنوان «الدنيا الخادمة للحق.. دين» ط١ ١٩٩٠م الناشر: الشركة السعودية للأبحاث والنشر.



الفصل الثاني
الجهاد

الجهاد عبادة:

ذهب معظم علماء المسلمين إلى عدِّ الجهاد في سبيل الله الركن السادس من أركان الإسلام.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تأمر بالجهاد وتحض عليه.

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، الذي يتحدث عن أركان الإسلام قال ﷺ: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه)؟.

قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[1].

ولا يكون القتال جهاداً في سبيل الله إلا إذا كان: «لتكون كلمة الله هي العليا».

قال ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[2].

جهاده ﷺ:

استمر جهاده ﷺ، طول حياته، في مكة وفي المدينة، وسيرته ﷺ، ليست خافية عن القارئ الكريم.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣).
(٢) متفق عليه (خ ٣١٢٦، م ١٩٠٤).

جاهد الكفار في مكة، ثم جاهد الكفار والمنافقين في المدينة، وقاد الغزوات، وبعث السرايا.

وقد توفي ﷺ، وجيش أسامة على وشك مغادرة المدينة وقد عقد لواءه بيده.

الجهاد ماض:

والجهاد ماض إلى أن يرث الله الأرض وما عليها:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾(١).

وقال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)(٢).

وعن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله، أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا: لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: (كذبوا، الآن الآن جاء القتال ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق..)(٣).

وعن أنس قال ﷺ: (.. والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال..)(٤).

وكيف يمكن للجهاد أن يتوقف والله سبحانه يقول في بيان موقف أعداء الإسلام من المسلمين.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾(٥).

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٣٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٣) عن جابر وهو متفق عليه من حديث المغيرة وحديث معاوية.

(٣) أخرجه النسائي برقم (٣٥٦٣)، ومعنى أذال: أهان واستخف به.

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٣٢) وضعفه الألباني.

(٥) سورة البقرة، الآية (٢١٧).



وقال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

الإعداد للجهاد:

كثيرة هي الآيات الكريمة التي حضت على الجهاد، وكذا الأحاديث الشريفة.

وقد دعى ﷺ، إلى الأخذ بالأسباب وإعداد العدة. وهناك ثلاثة أنواع من الإعداد: الإعداد النفسي، والإعداد الجسمي، والإعداد المادي ولنذكر نبذة عن كل منها.

١ ـ الإعداد النفسي: إن كل مسلم مطلوب منه أن يهيء نفسه للمشاركة في أعمال الجهاد وخوض المعارك. ولا يعفى من ذلك إلا من ذكرته الآيات الكريمة من أصحاب العاهات أو الأمراض..

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق)[2].

والمسلم الذي تلا آيات الجهاد وعرف الأحاديث التي وردت في فضله، والذي يخاف أن يموت وفيه شعبة من النفاق لا بد أن يبادر إلى المشاركة من تلقاء نفسه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

وهكذا يوفر الإسلام المناخ النفسي، فلا إلزام من قبل الدولة، وإنما يبادر المسلم بدافع إيماني إلى بذل نفسه وماله.

٢ ـ الإعداد الجسمي. وفي سبيل الإعداد الجسمي حض الرسول ﷺ على ممارسة أنواع الرياضة التي تساهم في بناء الجسم وتعده ليكون قادراً فعالاً في ساحة المعركة.

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩١٠).



ومن هنا كانت عنايته ﷺ بإجراء المسابقات على الخيل وغيرها ومسابقات الجري، وحضور ذلك والمشاركة فيه.

ومن هنا كان حضه على الرمي، وحضه على ملازمته حين قال ﷺ: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى)[١].

وقال ﷺ يوماً على المنبر: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي)[٢].

وفي حديث له ﷺ، (فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[٣].

وهكذا يوجه النبي ﷺ، إلى تحويل اللهو إلى عمل مستمر ذي غاية، فالعبث في هذا الدين لا مكان له، فالوقت أثمن من أن يضيع فيما لا طائل تحته.

بل إن رياضة ركوب الخيل والسبق عليها ـ وهي مما حض عليه الإسلام ـ حينما تكون بغير النية التي يريدها الإسلام فلا فائدة فيها.

جاء في الحديث قوله ﷺ: (الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر..) ثم قال: (ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر)[٤].

وفي ظل هذه المعاني لا بد للمسلم أن يسعى جاهداً لبناء جسمه والعناية به، قياماً بما افترض الله تعالى، وتأسياً بفعل رسوله ﷺ.

٣ ـ الإعداد المادي: إن وجود الجسم القوي والروح العالية غير كافيين لخوض المعركة. إذ لا بد من إعداد السلاح.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩١٩).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩١٨).
(٤) متفق عليه (خ ٢٣٧١، م ٩٨٧).

وقد جاءت الآية الكريمة صريحة في ذلك. قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[(١)].

ويحض النبي الكريم ﷺ، على العناية بصنع السلاح وإعداده.

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: (إن الله عز وجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله..)[(٢)].

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٠).

(٢) أخرجه أصحاب السنن والدارمي، ورقمه عند أبي داود (١٥١٣).

الفصل الثالث
الذكر والدعاء

«ليس بعد تلاوة كتاب الله تعالى عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه»(١).

فضيلة الذكر:

قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ، يذكر الله على كل أحيانه(٤).

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به قال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل)(٥).

وهكذا كان ﷺ، دائم الذكر وأوصى بذلك.

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين ١/ ٢٥٠.
(٢) سورة الرعد، الآية (٢٨).
(٣) سورة الأحزاب، الآية (٤١).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٣٧٣).
(٥) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣).

وفي الحديث قوله ﷺ: (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله، قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)(١).

وقال ﷺ: (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)(٢).

والذكر نوعان: مطلق، ومقيد.

فمما جاء مقيداً بوقت:

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: (من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)(٣).

وقال ﷺ لعلي وفاطمة رضي الله عنهما: (إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين)(٤).

ومما جاء مقيداً بيوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك)(٥).

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٥٩٧).
(٤) متفق عليه (خ ٣١١٣، م ٢٧٢٧).
(٥) متفق عليه (خ ٣٢٩٣، م ٢٦٩١).



وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: (من قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[1].

ومما جاء في الذكر المطلق:

قال ﷺ: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس)[2].

وقال ﷺ: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[3].

فضيلة الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[6].

وعن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة، قال ربكم: ﴿ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾)[7].

وقال ﷺ: (ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء)[8].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٠٥، م ٢٦٩١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٥).
(٣) متفق عليه (خ ٧٥٦٣، م ٢٦٩٤).
(٤) سورة البقرة، الآية (١٨٦).
(٥) سورة الأعراف، الآية (٥٥).
(٦) سورة غافر، الآية (٦٠).
(٧) أخرجه أبو داود برقم (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨).
(٨) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧٠) وابن ماجه (٣٨٢٩).



إن الدعاء هو العبادة كما قال ﷺ: وبه تتمثل عبودية العبد خالصة لله تعالى، إذ يلجأ إليه فيما يهمه، من جلب نفع أو دفع ضر فهو سبحانه وحده القادر على ذلك.

وفي الآية الثالثة، جعل الله تعالى عقوبة الذين يستكبرون عن عبادته ـ والعبادة: هنا الدعاء ـ دخول جهنم.

وإذاً فالدعاء هو من أهم الأمور التي تظهر عبودية الإنسان لله تعالى، ولذا كان هو العبادة.

وقد كان ﷺ، كثير الدعاء، فكان من سنته الدعاء عقب الأذان وعقب الصلوات، وفي الخطب.. وفي الصلاة.. وإثر الصيام، وفي مناسك الحج.

وما يستطيع العبد أن يترك الدعاء، يوماً واحداً، فهو بحاجة إلى استمداد العون من الله تعالى في كل شؤونه..

بل إن الكثير من آيات القرآن الكريم هي عبارة عن أدعية..

إن الدعاء على الرغم من كونه عبادة، فهو حاجة نفسية للإنسان يستشعر من خلالها معاني الأسماء الحسنى من القوة والرحمة والرزق..

فالمعتدى عليه المظلوم يدعو فيقول: يا الله، يا قوي.

والذي يكون في مأزق صعب يطلب رحمة الله فيقول: يا رحيم.

ومن ضاق عليه عيشه، قال: يا رزاق يا كريم..

وهكذا يشعر المؤمن بالأمن حينما يلجأ إلى الله في حاجاته كلها، وهذه هي العبودية، والدعاء هو العبادة..

ما ينبغي مراعاته في الدعاء:

وقد جاءت الأحاديث الشريفة توضح ما ينبغي أن يراعى في الدعاء ومن ذلك:

١ ـ العزم في المسألة: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:



(إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له)[1].

٢ ـ أكل الحلال: ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، (.. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يده إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له)[2].

٣ ـ عدم استعجال الإجابة قال ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)[3].

٤ ـ الإلحاح في الدعاء، قال ابن مسعود: كان ﷺ إذا دعا، دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً[4].

٥ ـ الدعاء بالجوامع، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك[5].

لا يدعو على نفسه وولده:

نهى رسول الله ﷺ أن يدعو الإنسان على نفسه أو ولده.

قال ﷺ: (لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم)[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم)[7].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٣٣٨، م ٢٦٧٨).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٥).
(٣) متفق عليه (خ ٦٣٤٠، م ٢٧٣٥).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٧٩٤).
(٥) أخرجه أبو داود برقم (١٤٨٢).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٣٠٠٩).
(٧) أخرجه أبو داود برقم (١٥٣٦) والترمذي (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٨٦٢).




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
الحصري
NEW & EXCLUSIVE



المقصد التاسع

المجتمع الذي أقامه النبي ﷺ




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
الحصري
NEW & EXCLUSIVE

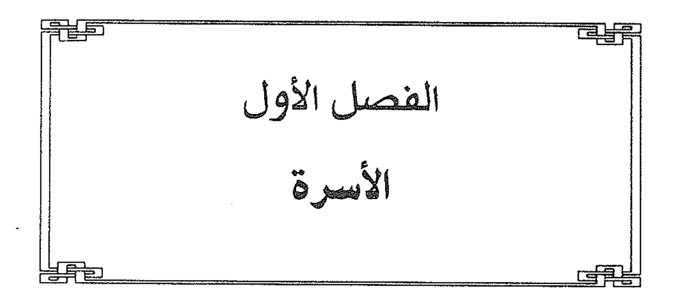
أقام النبي ﷺ المجتمع الإسلامي، الذي حلت فيه رابطة العقيدة مكان رابطة الأرض والقوم والقبيلة.. وأصبح المسلم أخاً للمسلم بغض النظر عن اللون والجنس.

فكان بلال وأبو بكر وسلمان وعمر وصهيب.. إخوة في ظل هذا الدين.

والمسلمون مهما تباعدت بلدانهم، وتناءت أقطارهم فهم إخوة..

وتعد الأسرة الخلية الأساسية في بناء هذا المجتمع، ولذا فإنا نبدأ بالحديث عنها.. ثم نتحدث عن جوانب أخرى تستكمل فيها صورة المجتمع من خلال البناء الخلقي.





الفصل الأول

الأسرة

أقام الإسلام الأسرة على أساس أخلاقي، فالروابط بين أفرادها ترتقي عن أن تكون مادية:

ونستطيع أن نميز في الأسرة العلاقات الآتية. . علاقة كل من الزوجين بالآخر.

- علاقتهما بالأولاد.
- علاقة الأسرة بالقرابة من الرحم.
- مكانة اليتيم.

ونتحدث عن كل من هذه العلاقات في فقرة مستقلة؛ بعد توقف يسير عند شخصية المرأة وشخصية الرجل الزوج.

المرأة:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم[(١)].

وجاء الإسلام، واستعادت المرأة إنسانيتها في ظله، فطولبت بالإيمان والعبادات، كما طولب الرجل، وأخذت مكانها في كل الميادين، فهاجرت في سبيل دينها وجاهدت في سبيل الله. . وفرض الله لها من الميراث،

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩١٣، م ١٤٧٩).



واستقلت ذمتها المالية.. وهكذا عاشت كالرجل في ظل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1].

ومع كل هذا التكريم، فما زال كثير من المسلمين، ومن هذا الكثير مثقفون ومتعلمون، وملتزمون بالإسلام، بل وربما من دعاته.. يعيشون في ظل بعض رواسب الجاهلية بشأن المرأة..

بل وبعض هؤلاء ربما برر لمسلكه ذاك بفهم خاطئ لبعض النصوص سمعه من خطباء الجمعة، الذين أصبح كثير منهم قراء صحف، فلا فقه ولا علم. ومصيبة الأمة بهذا الصنف من الناس أكبر من مصيبتها بأعدائها.

وقد سبق بيان بعض هذه المفاهيم.

ونضيف إليها مفهوم «الطاعة» الذي كثيراً ما يستعمل من قبل الرجل استعمال تسلط وتعنت، حتى فهم بعض الأزواج أن للزوج أن يمنع امرأته من زيارة أهلها وصلة رحمها.. ونسي أن الطاعة قد حددها الشرع وليست مطلقة.

وتكونت صورة منحرفة لوضع المرأة في ظل الفهم الخاطئ، أو الانحراف في المسلك، كادت تعود فيها إلى ما كانت عليه في الجاهلية..

وفي كثير من بلدان المسلمين ـ وبعد أربعة عشر قرناً من مجيء الإسلام ـ تحرم المرأة من ميراثها، تارة بعامل التقاليد، وتارة بعامل الإكراه والظلم..

وعندما لا تكون المرأة في وضعها الصحيح فإن ذلك يؤثر على كيان الأسرة، وينشأ الأطفال في جو غير صحي مما يؤثر في انحرافهم أيضاً..

وبغض النظر عما سبق:

فهل القضية بين الرجل والمرأة قضية معركة؟ ومن هي المرأة بالنسبة للرجل؟.

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

أليست هي البنت والأخت؟

أليست هي الأم التي جعلت الجنة عند أقدامها؟

أليست هي الزوجة التي قال فيها ﷺ: (خيركم خيركم لأهله).

فأين المشكلة إذن؟

ربما كانت المشكلة في أن الرجل المسلم نفسه، ومنذ قرون، قد سلب إنسانيته، فانعكس ذلك على المرأة تلقائياً..

إننا بحاجة إلى تصحيح المفاهيم، وإعادة ترتيب الأمور.

الرجل (الزوج):

الزوج هو عماد الأسرة، وصلاحه عامل كبير ـ بل هو العامل المهم ـ في صلاح الأسرة.

وقد بيّن الرسول ﷺ الصفات المطلوبة في الرجل حتى يؤدي دوره كزوج صالح، وأب كريم فقال:

(إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)[1].

وإذن: فإنما هما اثنتان: الدين والخلق.

ونتساءل هنا: هل الخلق غير الدين؟

لا شك بأنهما أمران، ففي الجاهلية قبل الإسلام كان الخلق هو الميزان الذي يقوَّم به الإنسان.

ولهذا كان للرسول ﷺ قبل الرسالة شأنه الكبير في مكة.. وتصفه خديجة

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧) عن أبي هريرة، كما أخرجه أيضاً الترمذي (١٠٨٥) عن أبي حاتم المزني.

فتقول له: (إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..)(١).

وقد أثنى النبي ﷺ على ناس من المشركين لأخلاقهم الكريمة، منهم المطعم بن عدي، فقال في حقه يوم بدر: (لو كان المطعم بن عدي حيّاً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى - الأسرى - لتركتهم له)(٢) وما ذاك إلا لأخلاقه الكريمة التي عامل بها المسلمين على الرغم من كفره.

على أنه لما جاء الإسلام ضم تحت جناحي منهجه الكامل كل الأخلاق الكريمة، فأصبحت من لوازم هذا الدين.

وسواء أقلنا: إن الأخلاق غير الدين، وهذا مفهوم لفظ الحديث، إذ العطف يقتضي المغايرة.

أو قلنا: إن عطف الأخلاق على الدين، من باب عطف الخاص على العام، للفت النظر إليه، والاهتمام به..

فإن القضية تظل واحدة، وهي: الدين والخلق.

والواقع يؤكد أن بعض الملتزمين بالدين من صلاة وصوم وحج.. ربما كانت أخلاقهم ليست بذاك. ولهذا أسبابه الكثيرة التي لا مجال لبسطها.

وهنا قد يخدع كثير من الناس بهذا الصنف، وذلك لاعتبارهم أن الخلق قرين الدين وملازم له..

ومهما يكن من أمر، فإن الالتزام بنص الحديث فيه الخير كل الخير، فولي البنت لا ينبغي له الاكتفاء بالبحث والسؤال عن دين الخاطب، بل لا بد له أيضاً من السؤال عن أخلاقه وحسن معاملته. فهذا هو الجانب الذي تتعامل المرأة معه من الرجل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣) ومسلم برقم (١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣١٣٩).



الزوجان:

قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

أقام الإسلام بنيان الأسرة على أساس من الود والرحمة، كما نصت الآية الكريمة، وجعل القوامة للرجل ليكون الأوسع صدراً، والأكثر تحملاً، لا ليكون سلطة آمرة ناهية فوق رأس المرأة.

ومن هنا جاءت الأحاديث الشريفة ببيان طبيعة المرأة للرجل حتى يتعامل معها وفق ذلك.

قال ﷺ: (استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)(٢) وفي رواية: (وكسرها طلاقها)(٣).

وقد سبق الحديث عن كيفية معاملة الرسول ﷺ، لنسائه، وصبره عليهن وهو الأسوة في ذلك(٤).

وقد وصف النبي صالحات النساء فقال: (خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)(٥).

ولا شك بأن الإسلام بيَّن حق وواجب كل من الزوجين، ولكنه لم يرد أن

---

(١) سورة الروم، الآية (٢١).

(٢) متفق عليه (خ ٣٣٣١، م ١٤٦٨).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٤٦٨).

(٤) انظر فصل «النبي ﷺ الزوج الكريم» ففيه البيان الكافي لما ينبغي أن يكون عليه كل من الزوجين.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٠٨٢).



تقوم الأسرة على هذا الأساس بل على أساس التعاون والحب والود، وإنما يكون الرجوع إلى لغة الحق والواجب عند الاختلاف.

ولا شك بأن معرفة كل من الزوجين بماله وما عليه يساعد كثيراً في استدامة هذا الود[1].

وما من شك بأن طاعة الزوج واجبة، باعتباره صاحب القوامة، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في ذلك، ولكن هذه الطاعة:

- لا تكون في أمر فيه معصية الخالق سبحانه وتعالى.

- كما لا تكون في أمر فيه هضم لحقوق الآخرين مما أمر الإسلام بمراعاته.

- كما لا تكون في قطع ما أمر الله به أن يوصل، كصلة الوالدين وبرهما والعناية بهما في وقت كبرهما وحاجتهما إلى مساعدة الولد[2].

---

(١) انظر مثلاً فقرة «في مهنة أهله» من فصل «النبي ﷺ الزوج الكريم».
وكم كنت أود لو وضع كتاب يبين مسؤوليات كل من الزوجين تجاه الآخر، وتفصيل وضع العلاقة الزوجية بينهما، وأن لا يجري عقد لعروسين حتى يؤديا اختباراً بذلك.

(٢) نذكر بهذا الصدد ما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء، في باب حقوق الزوج. قال: «كان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى الأسفل، وكان أبوها في الأسفل، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ، تستأذن في النزول إلى أبيها فقال ﷺ: (أطيعي زوجك) فمات، فاستأمرته فقال: (أطيعي زوجك) فدفن أبوها، فأرسل رسول الله ﷺ، يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها».
قال الحافظ العراقي: أخرجه الطبراني بسند ضعيف.
أقول: هذا الخبر ـ حتى ولو كان حسناً ـ معارض بالآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تحض على الإحسان إلى الوالدين، ولا يصح التعويل عليه ولا ذكره، وإنما ذكرته للتنبيه عليه، فقد أكثر خطباء المساجد من الاستشهاد به دون النظر إلى ضعفه ومعارضته للآيات.

إن أداء حق الزوج وطاعته، ينبغي ألا يتعارض مع أداء الواجبات الأخرى التي طلب الإسلام من كل من المرأة والرجل أداءها.

الأولاد:

من واجب الوالدين العناية بالأولاد، ومتابعة تربيتهم وفق معالم هذا الدين، مراعين في ذلك الرفق وحسن الأسلوب والإقناع.

وقد سبق أن رأينا كيف كانت رعايته ﷺ لأبنائه وبناته، وحبه لهم وعطفه عليهم[(١)].

وقد رأينا عدم تفريقه ﷺ، في الرعاية والعطف بين الذكر والأنثى، وكيف تابع رعايته لبناته بعد زواجهن، واختياره للزوج المناسب لهن..

ونضيف في هذه الفقرة: تأكيده ﷺ، على رعاية البنات بوجه خاص، وقد ورد ذلك في أحاديث كثيرة منها:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو) وضم أصابعه[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (لا يكون لأحدكم ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فيحسن إليهن إلا دخل الجنة)[(٣)].

ونضيف أمراً آخر، وهو أن الرسول ﷺ قال: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..)[(٤)].

والحديث واضح في أثر الأبوين في التهويد والتنصير والتمجيس، وإذا

---

(١) سبق ذكر ذلك في فصل «النبي ﷺ الأب الكريم».
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣١).
(٣) أخرجه الترمذي برقم (١٩١٢).
(٤) متفق عليه (خ ١٣٥٨، م ٢٦٥٨).



كان المسلم يولد على الفطرة، فذلك يعني أنه بحاجة إلى رعاية حتى يظل مع هذه الفطرة ولا تجتاله الشياطين كما ورد في الحديث[١].

بر الوالدين:

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة جداً ترغب ببر الوالدين، وتحذر من عقوقهما ومعظم هذه الأحاديث تقدم الأم على الأب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[٤].

ويقدم الرسول ﷺ برِّهما على الجهاد، فعن أبي سعيد: أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن، فقال: (هل لك أحد باليمن)؟ قال: أبواي، قال: (أذنا لك)؟ قال: لا، قال: (ارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرَّهما)[٥].

صلة الرحم:

لم يكتف الإسلام بأن تكون علاقة العطف والرحمة والود قاصرة على الأسرة في نطاقها الضيق في حدود الأبوين والأولاد، بل وسع دائرتها إلى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) والحديث: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنما أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم).
(٢) سورة البقرة، الآية (٨٣).
(٣) سورة العنكبوت، الآية (٨).
(٤) متفق عليه (خ ٥٩٧١، م ٢٥٤٨).
(٥) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٣٠).



أقصى مدى. حتى شملت كل قريب تصله بالإنسان علاقة نسب من جهة الأم أو من جهة الأب.

وبهذا تمتد حبال الود وخيوطه لتصل إلى أماكن بعيدة.

والأحاديث في الحض على صلة الرحم والتحذير من قطعها كثيرة نختار منها:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين بأن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، يا رب، قال: فهو لك) قال رسول الله ﷺ: (فاقرؤا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[١])[٢].

وعن جبير بن مطعم: أنه سمع النبي ﷺ يقول (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[٣].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر)[٤].

رعاية اليتيم:

وقد ألزم الإسلام أقرب الناس إلى اليتيم برعايته، ومع ذلك فإن هذا الإلزام لا يمنع كافل اليتيم من الحصول على الأجر الوفير الذي بينه الرسول ﷺ بقوله: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً[٥].

---

(١) سورة محمد ﷺ، الآية (٢٢).
(٢) متفق عليه (خ ٥٩٨٧، م ٢٥٥٤).
(٣) متفق عليه (خ ٥٩٨٤، م ٢٥٥٦).
(٤) أخرجه الترمذي برقم (١٩٧٩).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٣٠٤).



إن رعاية الضعفاء واجب على أقرب الناس إليهم، ولهم من الأجر ما يجعلهم في عداد المجاهدين.

قال ﷺ: (الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)[1].

وبهذا يقوم التكافل ضمن الأسرة على أساس من الخلق الكريم قبل أن يقوم على أساس الإلزام.

الخلاصة:

وخلاصة الأمر: أن الإسلام جعل العلاقات بين أفراد الأسرة تقوم على أساس من الحب والود، والعطف والشفقة، والبر والاحترام، وبهذا يكون بنيان هذه اللبنة شديد التماسك، قابلاً لتحمل الظروف القاسية في كل الأجواء.

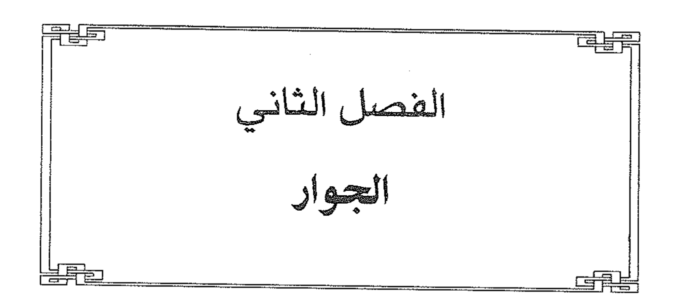
أما عندما يقوم البنيان على أساس مادي، فإنه سوف يتهدم عند أول لحظة تتعارض فيه مصلحة فرد مع الآخر، شأن الأسر التي تعيش في ظل المدينة الجديدة ورفاهيتها.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٣٥٣).







الفصل الثاني
الجوار

المقصود بالجوار، هذه البيوت المتلاصقة المبنية بعضها بجانب بعض، في القرية أو المدينة..

فقد جعل الإسلام للجار حقوقاً، ولا بد لكل إنسان ـ حيث سكن وأقام ـ من جوار.

والجار سيكون ألصق الناس بجاره، فهو يلتقي به في الصباح والمساء عند الذهاب إلى العمل، وعند العودة منه، كما يلتقي به في مسجد الحي في أوقات الصلاة أو بعضها.

والجار هو أقرب الناس عندما يحتاجه جاره في مساعدة مفاجئة، أو دفع ضرر داهم..

لهذا ولغيره فقد جعل الإسلام للجوار حقوقاً. نتحدث عن بعضها.

الوصية بالجار:

كرر ﷺ الوصية بالجار في مناسبات كثيرة، وهو إذ يفعل ذلك فإنما يحذو حذو جبريل عليه السلام.

فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[1].

---

(١) متفق عليه (خ ٢٠١٤، م ٢٦٢٤) وكذلك عن ابن عمر (خ ٢٠١٥، م ٢٦٢٥) وهو عند أبي داود والترمذي عن ابن عمرو (د ٥١٥٢، ت ١٩٤٣) وعند ابن ماجه عن أبي هريرة (٣٦٧٤).





وعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)[1].

وهكذا تأتي النصوص بحسن الجوار ويكون ذلك بثلاثة أمور.

- حسن المعاملة.
- كف الأذى.
- احتمال الأذى.

الإحسان إلى الجار:

طلب الإسلام من كل إنسان الإحسان إلى جاره، والإحسان كلمة عامة تشمل الجانب المادي والجانب المعنوي.

ولتوثيق الصلة بين الجوار أمر رسول الله ﷺ بالتهادي بينهم، فكل واحد يحاول أن يهدي لجاره ولو قليلاً من الطعام.. وليست القضية هنا قضية كثير وقليل، وإنما هو الرمز الذي يعبر عن الود.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك)[2].

ولم يجعل ذلك قاصراً على الرجال، بل إنه ﷺ أمر النساء بذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن شاة)[3].

وعن عبدالله بن عمرو: أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٤٤) والدارمي (٢٤٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (١١٥).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٥).
(٣) متفق عليه (خ ٢٥٦٦، م ١٠٣٠) وفرسن الشاة: هو ظلفها.
(٤) الأدب المفرد برقم (١٠٥).



وإذا لم يكن للإنسان القدرة على إهداء أكثر من جار فإنه يهدي للأقرب باباً.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك بابا)(١).

وينبغي للإنسان أن يعرف من أمر جيرانه ما يساعده على أداء واجبه نحوهم.

فعن ابن عباس، عن ابن الزبير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ليس المؤمن الذي يشبع، وجاره جائع)(٢).

وعن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان ـ أو قال: حين ـ وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، ثم الآن الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت النبي ﷺ يقول: (كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابه دوني، فمنع معروفه)(٣).

ومن منع المعروف منع الماعون، بإعارته إلى جاره إذا احتاج إليه، وقد ذم القرآن الكريم فاعل ذلك.

كف الأذى عن الجار:

وإذا كان الإنسان مطالب بالاحسان إلى جاره، فمطالبته بكف الأذى عنه من باب أولى.

وقد حذر الرسول ﷺ من إيذاء الجار.

عن أبي شريح رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: (والله لا يؤمن، والله لا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٥٩).
(٢) الأدب المفرد برقم (١١٢).
(٣) الأدب المفرد رقم (١١١).

يؤمن، والله لا يؤمن) قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه)[2].

وعنه قال: قيل للنبي: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: (لا خير فيها هي من أهل النار..)[3].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فلا يؤذ جاره)[4].

احتمال أذى الجار:

ومن تمام القيام بحق الجار، احتمال أذاه، والرفق به، وإسداء الخير والمعروف إليه.

قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ. فقال: اذهب، فإن هو عصى الله فيك، فأطع الله فيه[5].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٦) والبوائق: جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك.

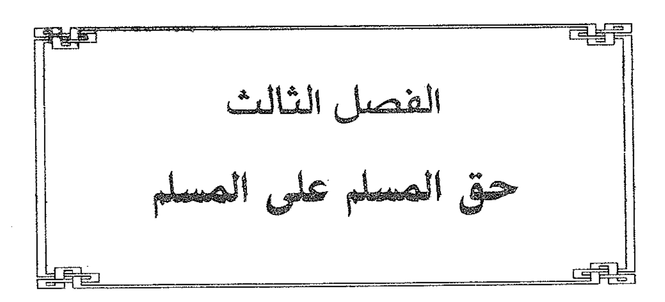
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٦).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٩).

(٤) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

(٥) عن إحياء علوم الدين ٢/٢١٢ .





الفصل الثالث

حق المسلم على المسلم

أخوة الإسلام:

ارتقى الإسلام بالرابطة التي تصل أفراد المجتمع بعضهم مع بعض من كونها رابطة مواطنة إلى رابطة أسمى هي رابطة الأخوة.

وكما أن الأبناء في الأسرة الصغيرة تربطهم رابطة الأخوة، فكذلك أبناء الإسلام في المجتمع الكبير تربطهم رابطة أخوة الإسلام.

وقد أكد الرسول الكريم على هذه الرابطة، واعتبرها المنطلق في علاقة الفرد المسلم بالآخر.

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(١).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)(٢).

وهكذا تقررت رابطة الأخوة بين المسلمين، وكما أن الأخ في الأسرة الصغيرة يحب لأخيه كل خير ويدفع عنه كل مكروه، فكذلك الفرد في المجتمع الإسلامي الكبير، يحب لكل فرد فيه كل خير، ويحزن لكل مكروه ينتاب أحدهم، إنهم جميعاً إخوته.

---

(١) متفق عليه (خ ١٣، م ٤٥).

(٢) متفق عليه (خ ٢٤٤٢، م ٢٥٨٠).





حق المسلم على المسلم:

ولم يكتف الرسول ﷺ بالحديث عن هذه الرابطة في مجال العموميات.

بل حدد ما ينبغي على المسلم أن يقوم به تجاه إخوانه، ومن ذلك ما سبق ذكره في الفقرة السابقة.

ومما جاء في ذلك الحديث التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس).

وزاد في رواية لمسلم: (وإذا استنصحك فانصح له)(١).

وهكذا يطلب من كل مسلم أن يراعي الأدب الاجتماعي مع كل المسلمين من رد السلام، وتشميت العاطس..

كما يطلب منه المشاركة في أفراح وأتراح الآخرين، فيلبي الدعوة، ويشارك في العزاء.

كما يسعى إلى عيادة المرضى ممن يعرف من المسلمين.

وينصح للآخرين، كما جاء في حديث جرير حيث قال: بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم(٢) وإذن، فهناك مشاركة فعالة، من الفرد تجاه الآخرين، مشاركة إيجابية مبعثها الأخوة في دين الله.

وقد أكد ﷺ حقوق هذه الأخوة في كل ميادين الحياة فقال:

(لا يبع بعضكم على بيع أخيه..).

(ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته..)

---

(١) متفق عليه (خ ١٢٤٠، م ٢١٦٢).

(٢) متفق عليه (خ ٥٧، م ٥٦).





(فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه..).

(لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه..).

(تبسمك في وجه أخيك صدقة..).

(بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم).

(لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام).

(إخوانكم خولكم..).

وهكذا يرسخ ﷺ، مفهوم الأخوة في كل الميادين.



الفصل الرابع

المجتمع الإسلامي

المعطيات والتكوين:

في ظل المعطيات السابقة، نستطيع الحديث عن المجتمع الإسلامي، كما بناه النبي ﷺ:

- فإذا الأسرة متماسكة قوية البنيان، في ظلال من الود والحب والرحمة والبر.

- وإذا الأرحام متواصلة.

- وإذا الجوار قائم على الإحسان بمعناه الشامل.

- وإذا رباط الأخوة يسلك كل أفراد المجتمع، فكل منهم يحب للآخرين ما يحب لنفسه.

كلها وشائج متينة يؤازر بعضها بعضاً، ويشد بعضها بعضاً.

صورة تتكرر في القرية وفي البلد وفي المدينة..

وهكذا تتطابق هذه الصور فإذا نحن أمام المجتمع الإسلامي.

وإذا كانت الكلمات عاجزة عن نقل هذه الصورة حية إلى مخيلة الإنسان، فإن البيان النبوي الكريم قد فعل ذلك:

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه[1].

---

(١) متفق عليه (خ ٢٤٤٦، م ٢٥٨٥).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[١].

وفي رواية: (المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كله)[٢].

وفي سبيل تأكيد هذه الصورة ودعم استمرارها، كانت التوجيهات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة.

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٣].

وقال تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٤].

وقال ﷺ: (من نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه..)[٥].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠١١، م ٢٥٨٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٦).
(٣) سورة النساء، الآية (٣٦).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٠٣).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩).



الجسم الواحد:

وإذا كان الأفراد يشكلون بنيان القرية والمدينة.. فإن الأقاليم تشكل المجتمع، الذي إن اشتكى عينه اشتكى كله، كما وصفه النبي الكريم ﷺ.

فعندما يشتكي أقليم من كارثة أو جائحة، فإن بقية الأقاليم تهب للوقوف معه فيما هو فيه..

وفي عام الرمادة: كتب عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عمرو بن العاص أميره على مصر الرسالة الآتية:

من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى العاص بن العاص: سلام عليك، أما بعد، فلعمري يا عمرو، ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أنْ أهلكَ أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه.

فكتب إليه عمرو بن العاص، أما بعد، فيا لبيك ثم يا لبيك، وقد بعثت إليك بعير أولها عندك، وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1].

كانت رسالة عمر رضي الله عنه غاضبة، لأنه ما كان لعمرو أن ينتظر حتى تأتيه رسالة عمر، ولذا قال له: إلى العاص بن العاص..

إن تبلد الإحساس في عضو من الأعضاء بحيث يصبح بحالة لا يشعر معها بآلام العضو الآخر، فذلك يعني أنه قد أصابه الشلل.

إن الإسلام لا يكتفي بأن يحسَّ العضو بآلام العضو الآخر، بل يطلب من كل خلية أن تحس بآلام أي خلية أخرى مهما تباعدت المسافة بينهما فالجسم كل لا يتجزأ.

ومن هذا المنطلق، وتأكيداً لما ورد في الأحاديث السابقة، جاء قوله ﷺ:

---

(١) كنز العمال ١٢/ ١١٤، وطبقات ابن سعد ٣/ ٣١٠.





(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[1] ميزاناً يقيس به المسلم مدى اهتمامه، وبالتالي مدى حرارة الإيمان في قلبه.. وهو ما يربطه بهذا الدين.

وعندما يخبو هذا الاهتمام، أو ينعدم، أو يكون الفرد في صف غير المسلمين، أو يفرح بمصابهم.. فأين الإسلام من هذا الفرد؟ وإن كان يحمل اسم محمد وخالد وعمر!!.

(١) قال في المقاصد الحسنة: أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس. وهو عند الطبراني وأبي نعيم في الحلية بلفظ (من أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم).





المقصد العاشر

حقوق النبي ﷺ على المسلمين



أخرج البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم..)[1].

ونبينا الكريم ﷺ، قد قضى الذي عليه، وبقي الذي له.

قضى الذي عليه بشهادة الله سبحانه وتعالى له، عندما كان يخطب في حجة الوداع فقال للناس وهم ألوف مؤلفة: (ألا هل بلغت)؟ قالوا: نعم قال: (اللهم اشهد)[2].

ونزل قوله تعالى يومئذٍ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3] فكان شهادة من الله تعالى لرسوله ﷺ، بأنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة وقام بما يجب عليه مما كلف به خير قيام.

نعم قضى ﷺ، الذي عليه.

وبقي الذي له.

والذي بقي له من الواجبات على أمته كثير كثير، نكتفي منه بالأمور الآتية:

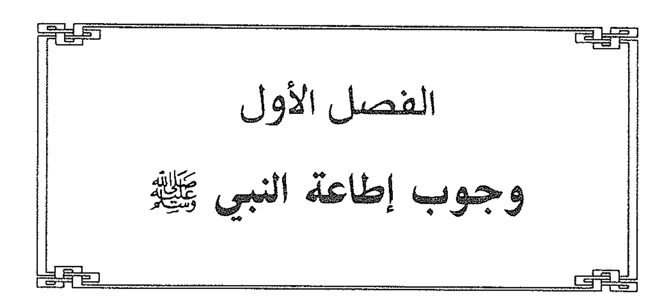
١ - وجوب طاعته ﷺ.

٢ - وجوب محبته ﷺ.

٣ - وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٩٩).
(٢) متفق عليه (خ ١٧٤١، م ١٦٧٩).
(٣) سورة المائدة، الآية (٣).



الفصل الأول

وجوب إطاعة النبي ﷺ

القاعدة العامة:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1].

هذه سنة الله تعالى في الرسل جميعاً، أن يبلغوا ما بعثوا به، وعلى أقوامهم أن يطيعوا وينفذوا.

ولو لم تكن الطاعة مطلوبة. لما كان التزام ودين وخضوع، يظهر من خلاله المؤمن من الكافر.

إطاعة النبي ﷺ:

والآيات الواردة في القرآن الكريم بشأن الأمر بطاعته ﷺ، كثيرة جداً، ومعظمها جاء الأمر به مقترناً بطاعته سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[3].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

وقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٤).
(٢) سورة الأنفال، الآية (٢٠).
(٣) سورة آل عمران، الآية (٣٢).
(٤) سورة آل عمران، الآية (١٣٢).
(٥) سورة النساء، الآية (٨٠).

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(١).

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٢).

والآيات في هذا الشأن كثيرة.

وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أي بيان آخر، ومع ذلك جاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد هذا المعنى وتقرره في ميدان التطبيق، حتى يكون الخضوع لأمر الله ورسوله خضوعاً تاماً في كل الأحوال، في العسر واليسر، وفي السراء والضراء.

عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي فقال: (ألم يقل الله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾..)(٣).

وفي هذا الحديث ما فيه من بيان وإيضاح لما تعنيه هذه الطاعة.

وفي حجة الوداع أمر رسول الله ﷺ الناس ممن ليس معهم هدي أن يحلوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة.. فتلكأ بعضهم. قالت عائشة: فدخل عليَّ وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار. قال: (أَوَ ما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون)؟(٤).

كان غضبه ﷺ لمجرد ترددهم، وذلك خوفاً عليهم من غضب الله عليهم لمعصيتهم رسوله. ودرس غزوة أحد درس لا ينسى.

فطاعته ﷺ هي أولى واجبات المسلم، ولا يكون مسلماً بغيرها.

---

(١) سورة النور، الآية (٥٤).
(٢) سورة الحشر، الآية (٧).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٤٧٤).
(٤) أخرجه مسلم برقم (١٢١١).



الجزاء والثواب:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[2].

نكتفي بالآية الكريمة والحديث الشريف في بيان منزلة من أطاع الله ورسوله ففيهما البيان الشافي. جعلنا الله ممن أطاعه وأطاع رسوله ﷺ.

نماذج من إطاعة الصحابة:

ما من شك في أن الصحابة رضي الله عنهم، قد ضربوا أروع الأمثلة في الطاعة للرسول ﷺ، تنفيذاً لأمر الله تعالى في الآيات الكثيرة الواردة بهذا الصدد، أولاً، وتلبية للحب الذي استقر في نفوسهم له ﷺ ثانياً، وإن المحب لمن يحب مطيع.

ولو ذهبنا نذكر الأمثلة على ذلك لضاق بنا المقام، ولذا فإننا نكتفي بنماذج دلالة على بيان طاعة ذلك الجيل الفريد له ﷺ.

- أخرج أبو داود، عن جابر رضي الله عنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ، يوم الجمعة قال: (اجلسوا) فسمع ذلك عبدالله بن مسعود، فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله ﷺ فقال: (تعال يا عبدالله بن مسعود)[3].

سمع عبدالله قول (اجلسوا) من الرسول الكريم ﷺ فما سمح لنفسه أن يخطو خطوة واحدة فجلس حيث كان، رضي الله عنه.

---

(١) سورة النساء، الآية (٦٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (١٠٩١).





- وهذا أبو عبد الرحمن الفهري رضي الله عنه، يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ حنينا، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظل الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي، وركبت فرسي، فأتيت رسول الله ﷺ، وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قد حان الرواح؟ قال: (أجل) ثم قال: (يا بلال) فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك(١)...

وتستوقفنا هذه الصورة التي ينقلها لنا أبو عبد لرحمن: إن بلالاً ما إن سمع صوت النبي ﷺ، حتى ثار ملبياً النداء، ظله كأنه ظل طائر، وهذا بيان لسرعته حتى إن قدميه ما تكاد تطأ الأرض، فبدا ظله كظل الطائر.

- وعن أسيد بن ظهير قال: جاءنا رافع بن خديج فقال: إن رسول الله ينهاكم عن أمر كان لكم نافعاً، وطاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ أنفع لكم(٢)..

وهكذا لم يكن هناك تردد عند رافع في تنفيذ الأمر فطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ أنفع(٣).

- وفي غزوة بني المصطلق، التي حدث فيها من شأن رأس المنافقين ما سجلته سورة المنافقين. جاء عبدالله بن عبدالله بن أبي - ابن رأس المنافقين - إلى رسول الله ﷺ، لما بلغه ما كان من شأن أبيه، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري، فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥٢٣٣).
(٢) أخرجه أبو داود النسائي وابن ماجه وأصله عند الشيخين.
(٣) ورد هذا بشأن مزارعة الأرض على بعض انتاجها.



أجل، ما نشك في أن رسول الله ﷺ لو أذن للابن في قتل أبيه لفعل. ولكنه ﷺ قال: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[1].

- وقد مر معنا قصة مُحيِّصة حينما عاتبه أخوه حويصة في قتله ابن سبينة اليهودي، فقال محيصة لأخيه: أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك[2]، نعم، وليس هناك من شك في صدق محيصة..

وليس هناك طاعة فوق هذه الطاعة.. إنهم صحابة رسول الله ﷺ.

بين الأمر والشفاعة:

وينبغي هنا أن نشير إلى الفرق بين أمره ﷺ وبين شفاعته.

فالأمر واجب التنفيذ، وإطاعته فرض.

أما الشفاعة، فهي رغبته ﷺ، في الشيء. وهي متروكة للمشفوع عنده. وفي الغالب أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يقبلون شفاعته ﷺ ونضرب مثلاً لكل من الحالتين.

كان لكعب بن مالك على ابن أبي حدرد دين، فالتقى به في المسجد، فطالبه به، حتى ارتفعت أصواتهما، فسمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما، فكشف سجف حجرته، فنادى (يا كعب) فقال كعب: لبيك يا رسول الله، قال: (ضع من دينك هذا) وأومأ إليه: أي الشطر، قال: قد فعلت يا رسول الله، فقال لابن أبي حدرد: (قم فاقضه)[3].

فقد كان طلبه ﷺ، من كعب أن يتنازل عن نصف دينه، شفاعة وليس أمراً، وكان لكعب أن يلبي هذه الرغبة وله أن يرفضها، ولكنه فعل متقبلاً شفاعة النبي الكريم ﷺ.

(١) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المنافقين بسنده عن ابن إسحاق.
(٢) انظر تفصيل القصة في (من معين السيرة) ص ٣٠٠-٣٠١.
(٣) متفق عليه (خ ٤٥٧، م ١٥٥٨).



- وهذه بريرة كانت أمة فتحررت، وكان زوجها عبداً، فلما تحررت فسخت نكاحها منه بعامل حريتها.

قال ابن عباس: كان زوج بريرة عبداً يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي دموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ، لعباس: (يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً).

فقال لها النبي ﷺ: (لو راجعته).

قالت: يا رسول الله، تأمرني؟.

قال: (إنما أنا أشفع).

قالت: لا حاجة لي فيه[1].

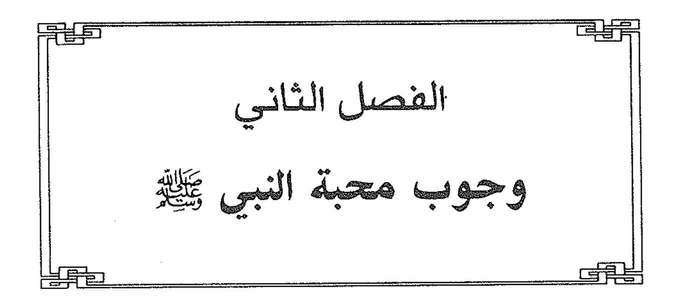
ولم تقبل بريرة شفاعته ﷺ، لما قام في نفسها من بغض ذاك الرجل وعدم قدرتها على معايشته.

ومن هذه الواقعة يتبين لنا كيف استقر الفهم في نفوس الصحابة بشأن التفريق بين الأمر منه ﷺ، وبين شفاعته، حتى بات ذلك معلوماً للإماء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٨٣).





الفصل الثاني
وجوب محبة النبي ﷺ

هذا الحب شرط للإيمان:

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)(١).

وأخرج البخاري والنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)(٢).

والحديثان من الوضوح بحيث لا حاجة إلى أي شرح، وقد قال الحافظ ابن حجر: وفي كلام القاضي عياض: أن ذلك شرط في صحة الإيمان(٣).

ولا شك في ذلك.

حب النبي مقرون بحبه تعالى:

قال تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥) ومسلم (٤٤) والنسائي (٥٠٢٨) وابن ماجه (٦٧) والدارمي (٢٧٤١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤) والنسائي (٥٠٣٠).

(٣) فتح الباري ١/ ٥٩.



وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار)(٢).

كمال الحب وكمال الإيمان:

أخرج البخاري، عن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: (لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك) فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: (الآن يا عمر)(٣).

ثواب محبته ﷺ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: متى الساعة؟ قال: (وماذا أعددت لها) قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: (أنت مع من أحببتَ).

وفي رواية: قال النبي ﷺ: (ما أعددت لها)؟ فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: (أنت مع من أحببت).

---

(١) سورة التوبة، الآية (٢٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (١٦) ومسلم (٤٣) والترمذي (٢٦٢٤) والنسائي (٥٠٠٢) وابن ماجه (٤٠٣٣).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢).



قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: (أنت مع من أحببت).

قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[١].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً، ولما يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: (المرء مع من أحب)[٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: مثله[٣].

وعن أبي ذر قال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال: (أنت يا أبا ذر، مع من أحببت) قال: فإني أحب الله ورسوله قال: (فإنك مع من أحببت) فأعادها أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ[٤].

آثار محبته ﷺ:

الحب عاطفة مقرها القلب، وما كان في القلب لا بد أن تظهره آثاره على الجوارح. ولهذا لم يكن الحب مجرد دعوى يلوكها اللسان، ولكنه عاطفة تهيمن على القلب، وعندها تصطبغ تصرفات الإنسان كلها بما شغل قلبه وملك عليه نفسه.

ونتحدث باختصار عن بعض هذه الآثار.

١ - الاقتداء به ﷺ.

قال القاضي عياض: «اعلم أن من أحب شيئاً آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدعياً، فالصادق في حب النبي ﷺ، مَنْ تظهر

---

(١) متفق عليه (خ ٣٦٨٨، ٧١٥٣، م ٢٦٣٩) وكذا أخرجه أبو داود والترمذي.
(٢) متفق عليه (خ ٦١٦٩، م ٢٦٤٠).
(٣) متفق عليه (خ ٦١٧٠، م ٢٦٤١).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٥١٢٦) والدارمي برقم (٢٧٨٧).

علامة ذلك عليه، وأولها الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه»[1].

٢ - الرضى بما شرعه:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

فمن وجد في نفسه حرجاً وضيقاً من قضائه ﷺ، بأمر. فليراجع حساب إيمانه.

٣ - كثرة ذكره ﷺ.

قال القاضي عياض: «ومن علامات محبة النبي ﷺ، كثرة ذكره له، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره»[3].

وهذا واقع مشاهد وكيف لا يكثر من ذكره، وهو في كل شأن من شؤونه يتبع سنة من سننه ﷺ، أو يقتدي بفعل من أفعاله، أو يذكر قولاً من أقواله.

٤ - محبة من أحبهم ﷺ، وبغض من أبغضهم:

فمن أحب النبي ﷺ، أحب من أحبه النبي ﷺ وكره من كرهه.

وقد أوصى ﷺ، بآل بيته وأصحابه، فالمحب له ﷺ لا بد أن يحب آل بيته المطهرين وأصحابه الكرام والأحاديث النبوية الواردة في ذلك كثيرة.

نماذج من حب الصحابة له ﷺ:

هذا باب واسع، فالسيرة الشريفة مليئة بالمواقف التي تبين مدى حب الصحابة له ﷺ، وما من خبر في السيرة إلا ووراءه موقف حب، يبرز من خلال الكلمات أو من خلال الوقائع.

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٧١).
(٢) سورة النساء، الآية (٦٥).
(٣) الشفا (٢/ ٥٧٢).



ونكتفي بذكر أمثلة من ذلك:

- في مفاوضات صلح الحديبية، كان عروة بن مسعود أحد الموفدين من قبل قريش إلى النبي ﷺ، فلما رجع إليهم قال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ـ ﷺ ـ محمداً[١]..

- وقال عمرو بن العاص: وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه[٢].

- وفي فتح مكة، حين جاء العباس رضي الله بأبي سفيان إلى النبي ﷺ، كان عمر حريصاً على أخذ الإذن من رسول الله ﷺ بقتله، فقال العباس لعمر: مهلاً يا عمر فوالله لو كان من بني عدي ما قلت هذا..

فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ، من إسلام الخطاب لو أسلم[٣].

- وبعد انتهاء معركة أحد، قال ﷺ: (من يأتيني بخبر سعد بن الربيع)؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق قال: فقلت: له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٣٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٢١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/٤٠٣).

عني السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات[(١)].

- وهذا رسول الله ﷺ يسوي الصفوف قبل معركة بدر، وبيده سهم، فلما وصل إلى سواد بن غزية، رآه بارزاً، فقال: (استو يا سواد) فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله، فدعني أقتد منك، فيعطيه رسول الله ﷺ، السهم ويكشف له عن بطنه الشريف، فيعتنقه سواد ويقبله.. فيقول له: (ما حملك على هذا)؟ فيقول: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك.. فدعا له ﷺ، بخير[(٢)].

- في حادثة الغدر التي قامت بها عضل والقارة، وعرفت في السيرة بـ«يوم الرجيع»، كان من آثارها، أن بيع زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي إلى قريش.

فلما قدم زيد ليقتل قال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. وأني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمد محمداً[(٣)].

- وفي عمرة القضاء، دخل رسول الله ﷺ، الحرم محرماً، والصحابة الكرام يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم، يسترونه من أهل مكة، خوفاً أن يرميه أحد منهم بسهم مؤثرين أن يصيب أياً منهم من أن يصيبه ﷺ[(٤)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٤).
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٦٢٦).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٧٢).
(٤) أخرجه البخاري برقم (١٧٩١).

- ولأبي بكر رضي الله عنه مواقف لا تعد، منها ما أخبر به أبو سعيد الخدري قال: جلس رسول الله ﷺ، على المنبر فقال: (إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده) فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ، عن عبد خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ، هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به(١).

وصدق أبو بكر. وصدق الصحابة رضي الله عنهم فلقد فدوه بأنفسهم، وكثير منهم استشهد بين يدي الرسول ﷺ.

معنى المحبة للنبي ﷺ:

حب هذا النبي الكريم فرض في شريعة هذا الدين، كما رأينا من خلال النصوص التي سبق ذكرها.

«وأن تكون الطاعة فرضاً، فذلك أمر مسلم به، فالإنسان باستطاعته أن ينفذ أمراً ما صدر إليه، ممن يحب أو ممن يكره، طالما أنه في حدود طاقته، أما أن يكون الحب فرضاً، فذاك أمر قد يستغربه من لا يعرف طبيعة هذا الدين».

«لا شك بأن الحب عاطفة، والعواطف لا تدخل تحت مظلة الأمر والنهي، بل إنها لا تدخل في مجال الإرادة الشخصية، وقد قال الرسول الكريم نفسه: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)(٢) تقول عائشة: يعني القلب».

---

(١) متفق عليه (خ ٣٩٠٤، م ٢٣٨٢).

(٢) أخرجه أصحاب السنن والدارمي. انظر زوائد السنن على الصحيحين برقم (٤٥٠٤) للمؤلف.



«فعاطفة الحب ليست في إطار ما يملك الإنسان أن يتحكم به.. ولكنها تدلف إلى النفس الإنسانية بعيداً عن ميدان الإرادة، ومع ذلك تأبى هذه الشريعة أن تدخل إلى النفس عن طريق الأمر، فربما نفذ الإنسان الأمر مكرهاً، والإكراه مرفوض في قواعد هذا الدين: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[1]، وأبت إلا أن يكون الحب هو العلاقة التي تحكم هذا الارتباط بين المسلم، وبين نبيه ﷺ، وبين المسلم ودينه، وذلك سمو لا تعرفه علاقات البشر إلا أن تكون ناتجة عن هذا المنهج»[2].

والسؤال المطروح: كيف نفسر هذه المحبة.

قال القاضي عياض:

«وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له:

- إما لاستلذاذه بإدراكه، كحب الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها، مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له.

- أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل المعروف، والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء..

- أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له، وإنعامه عليه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا تقرر هذا، نظرت هذه الأسباب كلها في حقه ﷺ، فعلمت أنه ﷺ، جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة:

- أما جمال الصورة والظاهر.

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) عن أضواء على دراسة السيرة، للمؤلف ص ١٦-١٧.





- وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها قبل فيما مر في الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

- وأما إحسانه، وإنعامه على أمته.. ورأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً..

فأي إحسان أجل قدراً، وأعظم خطراً، من إحسانه إلى جميع المؤمنين.. إذ كان ذريعتهم[١] إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد.

وإذا كان يحب بالطبع ملك لحسن سيرته، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاصّ[٢] بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كريم شيمته، فمن جمع هذه الخصال على غاية من مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل» انتهى ملخصاً[٣].

وهكذا يرجع القاضي عياض رحمه الله محبته ﷺ، إلى ثلاثة أسباب.

- جمال صورته.

- وكرم أخلاقه.

- وعظيم إحسانه.

وهي ولا شك أسباب لها مكانتها في الموضوع. ولكنها جميعاً ترجع إلى أصل هو الأساس في ألا وهو: المعرفة.

---

(١) ذريعتهم: وسيلتهم، والسبب الموصل لهم.
(٢) القاص: هو الواعظ.
(٣) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٥٧٩-٥٨١) والكلام ـ والله أعلم ـ مأخوذ من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.



يقول الإمام الغزالي: «لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه»[١].

وأقول في إيضاح قول الإمام الغزالي:

إن كثيراً ممن عادى رسول الله ﷺ عاداه على جهل به وبعد عنه، فلو أتيح له القرب والمخالطة لكان له موقف آخر. والأمثلة في السيرة على ذلك كثيرة:

أخرج الشيخان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ، خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: (ما عندك يا ثمامة) فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل منه ما شئت.

فترِك حتى كان الغد، ثم قال له: (ما عندك يا ثمامة) قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر.

فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: (ما عندك ياثمامة) فقال: عندي ما قلت لك، فقال: (أطلقوا ثمامة).

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليَّ.. الحديث[٢].

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين، للمؤلف (٢/ ٣٦٤).
(٢) متفق عليه (خ ٤٣٧٢، م ١٧٦٤).



إنه تغير كلي حدث لثمامة خلال إقامته الأيام الثلاثة في المسجد أسيراً، فتعرف خلالها على شخصية الرسول ﷺ عن قرب، فتبدد الظلام الذي كان يغمر نفسه، وأشرقت عليها خصال وصفات النبي الكريم، فذهب البغض من نفسه للرسول ودينه وبلده وحلَّ الحب مكان ذلك كله.

إن العامل البارز في هذا كله هو المعرفة.

وهذا عمير بن وهب يذهب إلى المدينة مرسلاً من قبل صفوان بن أمية إثر غزوة بدر ليقوم باغتيال النبي ﷺ، وقتله، وما إن يلتقي به حتى يتبدد الحقد الذي كان يملأ نفسه.. ويعلن إسلامه.

وهذه زوجة أبي سفيان، هند بنت عتبة، وهي معروفة بعدائها وحقدها وبغضها للنبي ﷺ، تأتي إليه إثر فتح مكة لتقول: يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يعزّوا من أهل خبائك، قال: (وأيضاً، والذي نفسي بيده)[1].

ما الذي تغير فيها؟ إنها رأت العفو والسماحة في أعلى صورها، قوم أخرجوه من بلده وحاربوه في البلد الذي استقر فيه، ثم يتمكن منهم، ومع ذلك لا يقتص ولا يعامل بالمثل، بل يعفو ويصفح..

رأت الانتصار الكبير، ولكن المنتصر لا يدخل مترفعاً ولا متعالياً، بل متواضعاً لله، شاكراً له مثنياً عليه.

إنها صورة تبدو أمام ناظرها، فتبدد الصورة التي بناها الحقد والكره.

ولو ذهبنا نسرد الأمثلة من السيرة لطال بنا المقام، ولكنا نكتفي بهذه النماذج وكل منها يمثل لوناً من ألوان التعرف عن قرب.

---

(١) متفق عليه (خ ٣٨٢٥، م ١٧١٤).



كيف يبدأ الحب:

نؤكد أن الحب ليس عملاً اختيارياً، ولهذا لا ينفع فيه الأمر والنهي، والذي يبدو لي، أنه يبدأ بموقف إعجاب، ثم يتأكد هذا الموقف بمواقف أخرى حتى يتحول الإعجاب إلى حب.

والأمور الثلاثة التي ذكرها القاضي عياض، ما هي إلا روافد، لتأكيد هذا الحب بعد وجوده.

أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ، على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء لا يخشى الفاقة.

قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها(١).

إن هذا الرجل الذي ذكره أنس، لا شك أن كان أمام صورة من كرم عظيم ملكت عليه لبه، وذهبت بإعجابه.. ولكنه بعد ذلك تحول إلى حب كبير..

ويؤكد هذا المعنى صفوان بن أمية عندما قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني، حتى إنه لأحب الناس إليَّ(٢).

فصفوان في العطاء الأول، لم يكن لديه أكثر من الإعجاب، ثم تأكد هذا الإعجاب مرة بعد أخرى حتى وصل إلى الحب.

بواعث الحب له ﷺ:

بواعث الحب للرسول ﷺ، كثيرة، أجملها القاضي عياض في الأمور الثلاثة الآنفة الذكر.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٢).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٣).



ونستطيع أن نضيف أمراً رابعاً لعله هو الأصل في ذلك كله.

إن مبعث الحب الأساسي، كونه رسول الله، وإذا كان الله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه ﷺ، ينبغي أن يحب لهذا الوصف ولهذه المكانة.

فحبنا له إنما الباعث عليه حبنا لله تعالى، وإذا كان حبنا لله تعالى، وحب الله تعالى لنا لا يكون إلا من خلال هذا الرسول الكريم، أمكننا أن نقدر المكانة التي بوأه الله إياها وأقامه بها.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فحتى تبرهن على حبك لله تعالى، فليس هناك أمامك سوى سبيل واحد يمر من خلال هذا النبي الكريم، وهو اتباعك له.

وإذا حصل منك الاتباع، فإن محبة الله حاصلة لك بنص قوله تعالى، ومن أصدق من الله قيلا؟!.

واتباعك له يقتضي منك التعرف عليه.

وإذا كان جيل الصحابة قد تعرفوا عليه من خلال رؤيته والجلوس إليه، وهذا شرف خصَّهم الله تعالى به، فإن غيرهم قادر على هذه المعرفة من خلال دراسته للسيرة الشريفة بمفهومها العام.

وقد تنبه السلف الصالح إلى مكانة هذه الدراسة والمعرفة. فحضوا عليها ودعو إليها.

قال زين العابدين ـ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رحمه الله: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ، كما نعلم السورة من القرآن(٢).

والمغازي بعض سيرة النبي ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣١).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٤٢).



وقال ابن القيم: «وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها أن يعرف هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به»(١).

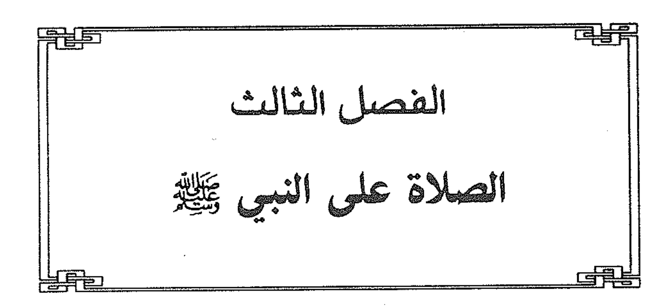
وقال أيضاً عن المحب للرسول ﷺ: «فجعله ـ أي النبي ﷺ ـ إمامه ومعلمه وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادىء أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه»(٢).

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٦٩).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم (٣/ ٢٦٨).





الفصل الثالث

الصلاة على النبي ﷺ

الأمر من الله تعالى بذلك:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[١].

معنى الصلاة ومعنى الآية:

قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء[٢].

قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه: ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم: طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد: طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة[٣].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وصلاة الله على النبي: ذكره بالثناء في الملأ الأعلى، وصلاة ملائكته دعاؤهم له عند الله سبحانه وتعالى، ويا لها من مرتبة سنية، حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه، ويشرق به الكون كله، وتتجاوب به أرجاؤه. ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، عند تفسير الآية الكريمة.

(٣) المواهب اللدنية للقسطلاني: (٣/ ٣١٩).





الأبدي الباقي، وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم، وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه، وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى وتسليمهم، إنما يشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته، وتسليمهم إلى تسليمه، وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم، الأزلي القديم»[١].

صفة الصلاة على النبي ﷺ:

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ قلت: بلى، فأهدها إلي. فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم. قال: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد)[٢].

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه: أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك،

---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.
(٢) متفق عليه (خ ٣٣٧٠، م ٤٠٦).
(٣) متفق عليه (خ ٣٣٦٩، م ٤٠٧).



كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم)[1].

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري، قال رسول الله ﷺ: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم)[2].

وقوله: (والسلام كما قد علمتم) هو ما ورد في دعاء التشهد: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)[3].

وفي حديث زيد بن خارجة، قال رسول الله ﷺ: (صلوا عليَّ، واجتهدوا في الدعاء، وقولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد)[4].

والأمر بالصلاة على النبي ﷺ عام، وأفضل الصيغ ما ورد في السنة الصحيحة.

مواطن الصلاة عليه ﷺ:

نذكر بعض المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ.

- منها: بعد التشهد في الصلاة. فعن فضالة بن عبيد قال: سمع رسول الله ﷺ، رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال: (عجل هذا) ثم دعاه فقال له أو لغيره: (إذا صلى أحدكم فليبدأ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٥٨).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٠٥).
(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود (خ ٨٣٥، م ٤٠٢).
(٤) أخرجه النسائي برقم (١٢٩١).

بتحميد ربه عزَّ وجل، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بعد بما شاء)[١].

- ومنها عند دخول المسجد، قال ﷺ: (إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبي ﷺ، ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، فإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك)[٢].

- ومنها عقب الأذان، عن عبدالله بن عمرو، أنه سمع النبي ﷺ، يقول: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له شفاعتي)[٣].

- وفي كل وقت ذكر فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم.

فضيلة الصلاة عليه ﷺ:

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (من صلى عليَّ واحدة، صلى الله عليه عشراً)[٤].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من صلى عليَّ صلاة واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات)[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي (د ١٤٨١، ت ٣٤٧٦، ن ١٢٨٣).
(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه والدارمي (د ٤٦٥، جه ٧٧٢، مي ١٣٩٤) وهو عند مسلم دون ذكر السلام.
(٣) أخرجه مسلم برقم (٣٨٤) وهو عند أبي داود والترمذي والنسائي.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٤٠٨) وهو عند أبي داود والترمذي والنسائي والدارمي.
(٥) أخرجه النسائي برقم (١٢٩٦).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (رغم أنف رجل ذكرتُ عنده فلم يصلِّ علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة)[١].

وعن حسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: (البخيل الذي من ذكرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ)[٢].

وعن أبي طلحة: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه.

فقلنا: إنا لنرى البشرى في وجهك، فقال: (إنه أتاني الملك، فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً)[٣].

تبليغه الصلاة والسلام عليه ﷺ:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[٤].

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغونني عن أمتي السلام)[٥].

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال: (ما من أحد يسلم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي، حتى أرد عليه السلام)[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٥).
(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٦).
(٣) أخرجه النسائي برقم (١٢٨٢) والدارمي (٢٧٧٣).
(٤) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٤٢).
(٥) أخرجه النسائي برقم (١٢٨١) والدارمي (٢٧٧٤).
(٦) أخرجه أبو داود برقم (٢٠٤١).



فائدة الصلاة عليه ﷺ:

فوائد الصلاة على النبي ﷺ، كثيرة، وهي في مجموعها ترجع إلى الذي يصلي عليه.

ونذكر بعض هذه الفوائد:

- فمنها: التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1].

- ومنها قضاء حق من حقوق النبي ﷺ علينا، وما أكثرها.

قال ابن عبد السلام: «ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشد الله . لَمّا علم عجزنا عن مكافأة نبينا . إلى الصلاة عليه»[2].

- ومنها أننا عندما نصلي على النبي ﷺ فنقول: «اللهم صلِّ على محمد..» فإننا نتوجه بالدعاء إلى الله تعالى أن يصلي عليه، والدعاء عبادة.

عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة، قال ربكم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[3])[4].

وإذن، فعندما تردد الصلاة على النبي ﷺ، فأنت في عبادة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٦).
(٢) المواهب اللدنية، للقسطلاني (٣/ ٣٢٢).
(٣) سورة غافر، الآية (٦٠) وتمام الآية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.
(٤) أخرجه أبو داود برقم (١٤٦٩) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨).



- وهي ثواب يدخر لصاحبه عند الله تعالى، وقد مرت بنا الأحاديث الصحيحة الواردة بهذا الشأن، وفي مقدمتها حديث أبي هريرة مرفوعاً: (من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشراً).

- وهي بعد هذا كله، تشريف من الله تعالى للمؤمنين ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ بأن يقرن الله تعالى صلاتهم إلى صلاته، وتسليمهم إلى تسليمه.

فما أحرانا أن نكثر من الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم.

وصلّى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين





فهرس مقاصد الكتاب




شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
NEW & EXCLUSIVE



فهرس حرفي للموضوعات الواردة في الكتاب







(ن)

(هـ)

(و)

(ي)



شبكة
الألوكة
www.alukah.net



الجديد
NEW & EXCLUSIVE



من المراجع والمصادر

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ترقيم فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة. بيروت.

٢ - صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث بيروت.

٣ - سنن أبي داود. إعداد عزت عبيد الدعاس. دار الحديث. حمص سوريا.

٤ - سنن الترمذي. بتحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وكمال يوسف الحوت. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥ - سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي. دار المعرفة. بيروت ط ٣.

٦ - سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.

٧ - الأدب المفرد للإمام البخاري. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت ط ١، ١٤٠٦.

٨ - الفتح الرباني: لترتيب مسند الإمام أحمد. للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا. دار الشهاب بالقاهرة.

٩ - الشمائل للإمام الترمذي.

١٠ - الأنوار في شمائل النبي المختار. للبغوي. تحقيق إبراهيم اليعقوبي. دار الضياء. بيروت ط ١، ١٤٠٩ هـ.

١١ - البداية والنهاية، لابن كثير. ط ١، ١٩٦٦ م.

١٢ - أخلاق النبي ﷺ. لعبدالله بن محمد الأصبهاني (المعروف بأبي الشيخ). مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢ م.



١٣ - المواهب اللدنية للقسطلاني. تحقيق صالح أحمد الشامي. المكتب الإسلامي ط ١، ١٤١٢ هـ.

١٤ - شرح الزرقاني على المواهب. دار المعرفة. بيروت ط ٢، ١٣٩٣ هـ.

١٥ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى. للقاضي عياض. تحقيق علي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. القاهرة. بغير تاريخ.

١٦ - الوفاء، بأحوال المصطفى، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.

١٧ - خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى (تاريخ المدينة المنورة). للسمهودي. ط ١، ١٤٠٣ هـ.

١٨ - البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسيرة النبوية. دوحة ـ قطر عام ١٤٠٠ هـ.

١٩ - الأخلاق الإسلامية وأسسها. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. دار القلم بدمشق، ط ١، ١٣٩٩ هـ.

٢٠ - الصحيح المسند من دلائل النبوة، مقبل بن هادي الوادعي. مكتبة ابن تيمية. القاهرة ط ٢ / ١٤٠٧ هـ.

فهرس كتاب "من معين الشمائل"

الموضوع	الصفحة

المقصد الأول
النسب الشريف والقرابة الطاهرة

الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة

المقصد الثاني

صفة النبي ﷺ وهيئته

الموضوع	الصفحة

المقصد الثالث

أخلاق النبي ﷺ وشمائله



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المقصد الرابع

طهارته ﷺ من سيء الأخلاق

المقصد الخامس

من آدابه ﷺ



الموضوع | الصفحة





الموضوع	الصفحة

المقصد السادس

سيرته ﷺ بشأن تلبية الحاجات الضرورية



الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة

المقصد السابع

النذير العريان





الموضوع	الصفحة

المقصد الثامن

طرف من عبادته ﷺ



الموضوع	الصفحة

المقصد التاسع

المجتمع الذي أقامه النبي ﷺ

الموضوع	الصفحة

المقصد العاشر

حقوق النبي ﷺ على المسلمين



الموضوع	الصفحة





كتب للمؤلف

١ - الجامع بين الصحيحين (٤ مجلدات).

٢ - زوائد السنن على الصحيحين (٦ مجلدات).

٣ - من معين السيرة.

٤ - السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).

٥ - أضواء على دراسة السيرة.

٦ - أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).

٧ - هكذا فهم السلف.

٨ - تحقيق «الجمع بين الصحيحين» للموصلي (مجلدان).

٩ - تحقيق «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٤ مجلدات).

١٠ - تحقيق «رسالة شرح المعرفة» للحارث المحاسبي.

١١ - المهذب من إحياء علوم الدين (مجلدان).

١٢ - تقريب (طريق الهجرتين) لابن القيم.

١٣ - حجة الإسلام الإمام الغزالي.

١٤ - الفن الإسلامي (التزام وإبداع).

١٥ - دراسة جمالية في ثلاثة أجزاء.

١ - الظاهرة الجمالية في الإسلام.

٢ - ميادين الجمال.

٣ - التربية الجمالية في الإسلام.

تحت الطبع

الفرائض (فقهاً وحساباً) في جزأين. الثاني منهما للتطبيقات.

